
رواية
أَو أشدُّ قسوَة
حين يقص الحب أجنحة الجميلات
محمد طارق
تشكيل للنشر والتوزيع

أو أشدُّ قسوة

رواية

محمد طارق

المقدمة

ذات يوم قالت لي امرأة عجوز:

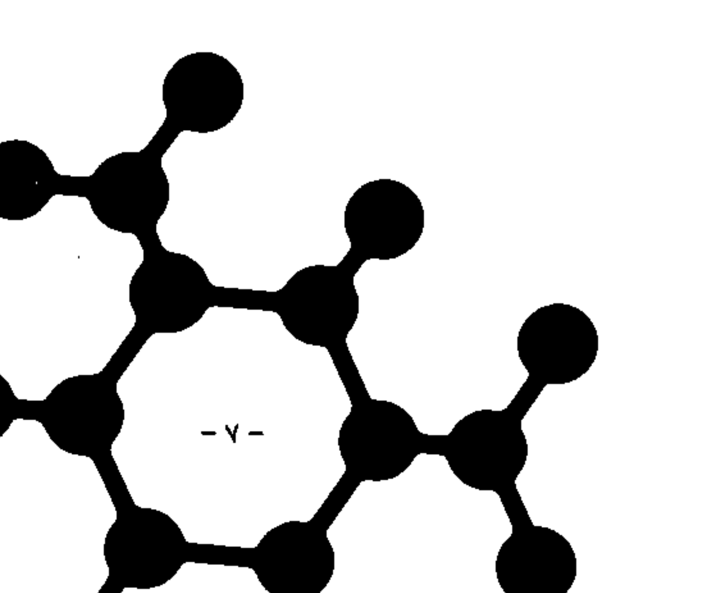
«لتحيا بسلام تأكد أنك لستَ محور الكون، أنتَ لستَ متميزًا أو مختلفًا عن أي شخص؛ إذا كنتَ تملك الثقافة فثَمَّة من يملك المال، وإن كنت تملك المال فثمة من يملك النفوذ والسلطة، وإن كنت من أولئك الذين يتمسكون بشعائرهم الدينية فهناك من يتمسك بأفكاره الإلحادية التي لا تؤمن بكل هؤلاء. أنتَ مجرد شخص عادي من ضمن مليارات البشر الذين يعيشون على الأرض، أنت لا تملك إلا نفسك، أنت بطل قصتك، وأنت أسطورتك، ولست مجبرًا على أن تكون شخصًا آخر.»

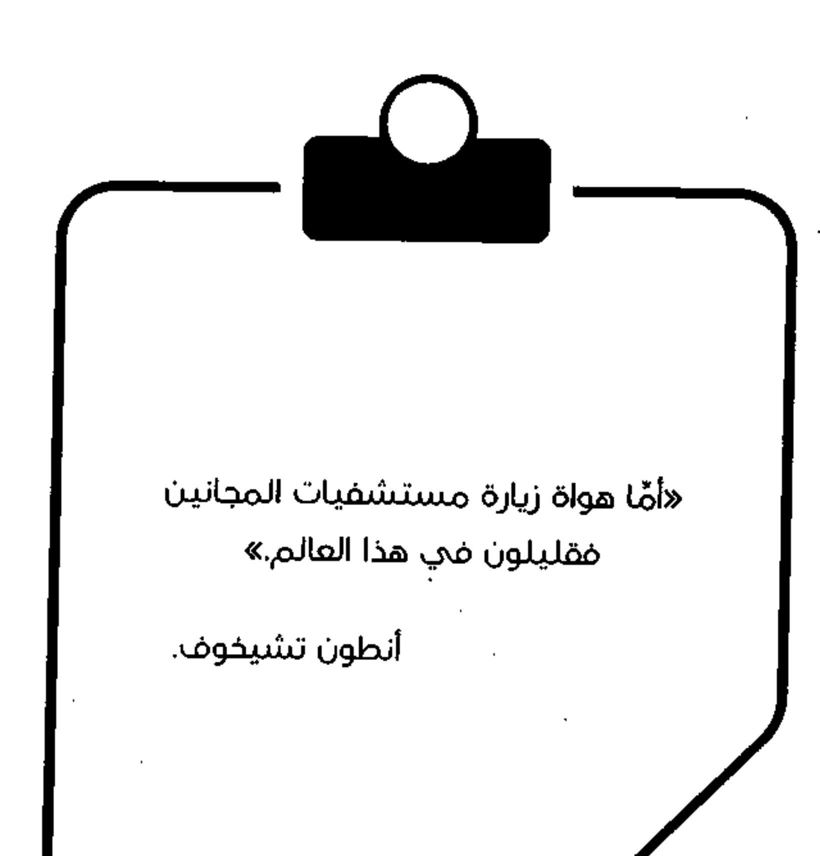
في هذا العمل لن تجد إلا حقائق وواقع لأشخاص ربما تعرفهم، ربما مروا عليك، وربما سمعت عنهم، وبالتأكيد ستجد ـ من بين المواقف والتفاصيل المذكورة ـ شيئًا ما قد حدث في حياتك.

كل ما عليك هو القراءة ومعرفة ما يحدث في حياة الآخرين وواقعهم، فإن كنت ترفض واقعهم فتذكر أن رفضك لا يعني تغيير الحقائق والاضطرابات النفسية والاجتماعية المذكورة، أنت ترفض جزءًا أصيلًا من حقيقة العالم فقط. وإن كنت توافق وتؤمن بالأحداث فأعانك الله على إدراكك ووعيك، وأرجو أن لا يدفع بك هذا الوعي -بعد زمن طويل- إلى الهاوية.

أهلًا بك في ليلةِ سقوط العالم.

الفصل الأول





«أمّا هواة زيارة مستشفيات المجانين
فقليلون في هذا العالم.»

أنطون تشيخوف.

(الذكرى الخامسة للرحيل:
كوبري قصر النيل/ القاهرة).

القاهرة مثيرة للاكتئاب، لكن أسباب اكتئابها أيضًا مثيرة للحزن؛ في شوارعها نكهة حزن مختلفة، آثار مختلفة من أشكال الحزن؛ هنا حيث فقدان الأحِبَّة، العشاق، الأصدقاء، وزخَّات الرصاص لا زالت عالقة على فقدانها لثوار أرادوا تحرير بلدتهم من نظام قمعي مُستبد.

على كوبري قصر النيل الكثير من الوعود التي أنكرها أصحابها وتبرأوا منها فيما بعد، والكثير من الوعود التي وفَّى بها أصحابها وبدأوا معًا حياةً عاطفية أمام عالم لم يحارب إلا الحب.

ذكرى حزينة هنا يتبعها نبرة أسى من شخص ما، وابتسامة وعناق طويل يحي ذكرى اللقاء.

مثيرة وتعيسة القاهرة؛ ترفضك وتعانقك وتسلب منك كل شيء، ثم تبتسم لك وتعطيك كل الحب، وقد كان.

كانت ليلة في غاية الحزن ككل الليالي التي قضيتها وحدي بعد الغياب، أمشي بخطى ثابتة نحو اللا شيء، الهواء البارد يتغلغل إلى صدري ليستيقظ الحنين معلنًا الحرب، وتنتفض الذكريات لتعود بي إلى نقطة الصفر حيث كل شيء حاولتُ نسيانه وتجاوزه، حيث لحظة

الفراق الملعون، تلك اللحظة التي قرر القدر بعدها أن أتحول إلى شخصٍ آخر.

هناك كنت أقف مكتوف الأيدي وهي تنهال عليّ بكلمات العتاب والقسوة، لم تكن (آسيا) إلا طفلة أرادت الحياة معي في سلام وهدوءٍ تام، طفلة أرادت أن تعرف معنى الحب، أن تكون بطلة أسطّورية في حياة شخصٍ ما سمعتْ عنه كثيرًا، وبعد تردد وتفكير طويل اختارت أن أكون بطلها الأول. لم يكن من السهل أبدًا تحمل مثل هذه المسؤولية، هي لا تعرف الكثير عن الخذلان، لا تفهم الكثير عن الخيبات، ولم تتذوق معنى الوحدة والكسر، طفلة القلب رغم نضج عقلها.

اختارتني أن أكون بطلها في الحياة، لكن رجل مثلي لم يكن شجاعًا بما يكفي ليواجه كل هذه الهزائم مبكرًا ثم يبدأ من جديد في حربٍ أُخرى، ولهذه الأسباب المبهمة افترقنا.

أتذكر يومها كانت في غاية الثبات والهدوء:

ـ داوود، أظن أن هذا الوقت المناسب للرحيل.

صمتُ في الوقت الذي كنت أتابع فيه عينيها جيدًا، كانت مضطربة جدًا، ليست بهذا الثبات الذي تَدَّعي، تتجنب النظر في عيني، تنظر حولها بأسى وترتعش.

واصلت:

ـ لم نعد نصلح لبعضنا البعض يا داوود، بهذه البساطة فقط لم نعد نصلح، رغم كل هذا، وأقسم لك أن عزائي الوحيد على كل الحب الذي أحببته لك، صدقًا ورغم الخلافات التي حدثت بيننا أحببتك بطريقة تجعلني الآن في غاية الضعف،

وكم أحسد نفسي على هذا الثبات الذي أبدو عليه أمامك، لأنني لا أعرف كيف ستكون حياتي بعد أن ننتهي، لكنك لا تدرك قسوة ما أشعر به. لقد استهلكتني يا داوود، لم أطلب منك فقط إلا أن تفهم أنني أُحبك مثلما تحبني أنت. ترى نفسك الطرف الذي يغرق أكثر في الحب، لكن الحقيقة ليست دائمًا هكذا، لقد أحببتك بكل صدق. إنك لا تفهم معنى أن تكون الرجل الأول في حياة فتاة لم تعرف رجلًا إلا والدها، الحب الأول للفتاة يا داوود أهم حب في الوجود، الحب الأول للفتاة الأكثر صدقًا ووفاءً له، وكل ما هو بعده مجرد مخاطرة إما أن يُمحى من ذاكرتها وإما أن تضطر للحياة بقلبٍ خائن حتى بعد الزواج من أي شخص، هي تلك التي ترفض الخيانة بكل أشكالها تضطر للحياة بقلب خائن من أجل استمرار الحياة! وكم سيكون هذا مؤلمًا -وللأبد- عليها. أنت لا تفهم هذا ولن تفهمه أبدًا.

بداخلي كنت أعرف أنها حقًا عانت أشد معاناة في حياتها معي، وأن قرار رحيلنا هو الأكثر صوابًا، لكنني أيضًا كنت أعرف أنني أستحق فرصةً أخرى للمحاولة من أجل الذكريات، المواقف، من أجلي!

بهدوءٍ شديد، وبحزنٍ في موقف أنت تحاول التشبث بشخص لم يعد يراك كافيًا له رددتُ:

- أعرف أنني سيئ معكِ بما يكفي لترحلي عني، لكنني أعدكِ لن أكرر أخطائي القديمة، سأحاول جاهدًا إصلاح ما أفسدته في قلبك .

قاطعنا صوت أم كلثوم الذي خرج من عربة بائع المثلجات:

«تفيد بإيه.. إيه يا ندم يا ندم.. وتعمل إيه يا عتاب! فاتت ليالي الأمل واتفرقوا الأحباب.. اتفرقوا.. وكفاية بقى تعذيب وشقى ودموع في فراق ودموع في لقا»

وبتلك الابتسامة فاقدة الأمل قالت وهي على وشك البكاء:

- للأسف، متأخر كعادتك يا داوود، تأتي دائمًا متأخرًا ثم تلومني على عدم الانتظار، وقد انتظرتك كثيرًا، وفي كل مرة كنت أقول لنفسي: حتمًا سيدرك قسوة أفعاله، هو ابنك المدلل ولن يحتويه ويغفر له إلا أنتِ. وفي كل مرة تشعرني بالندم على غفراني لك. كنت أمزق قلبي وأنا أراك تجيد تكرار أخطائك كما لو أنك تتعمد إيذائي، كما لو أنني ألَد أعدائك يا داوود. ضمنتَ بقائي ونسيتَ أنني امرأة تتحمل وتتحمل لكنها إن قررت الرحيل لا تعود أبدًا، ومع الأسف لقد حان وقت الرحيل.

بعد تنهيدة طويلة نظرت إلى السماء وكأنها تتحدث إليها لينقذنا الرب، لتحدث المعجزة، ليتوقف الزمن أو تعترض السماء بطريقتها على هذه اللحظة فتصب غضبها، ربما بإعصار أو رياح يفقدها ذاكرة ما بعد هذه اللحظة.

أنظر أقصى اليمين عسى يتأثر أحدهم بهول المشهد وأنا أرتجف أمامها كرجلٍ أمام بندقية يرجو القاتل ألا يقتله، وهي تمسك مسدسها وترتعش تأمل ألا أصدقها، أو ربما تأمل حقًا أن أومن بفرض الغياب

الذي كفرتُ به في وجودها، أنظر إلى اليسار لعل كل ما يحدث فيلم سخيف أو حلم وحتمًا هناك من سيأتي ليوقظنا.

التحديق في اللا شيء ، كانت تحاول ألا تبكي مهما حدث، وغدرًا ظهرت دمعة دخيلة في عينها منعتها هي بتنهيدة أخرى ثم قالت:

- اعتنِ بنفسك جيدًا، حاول أن تكون بخير، لقد كافحتُ لتكون بخير، لقد ضحيت بي من أجلك أنت، من أجلي فقط كن بخير، فأنا أعرف أنك لن تحب أحدًا مثلما أحببتني حتى نفسك. لا تحاول التواصل معي يا داوود، لا تحاول إثبات حسن نيتك وصدقك هذه المرة لن أصدقك، ولن نعود أبدًا، ومن الآن أقول لك أن احتمال عودة إبليس إلى الجنة أقرب من عودتنا. اعتنِ بنفسك، فغدًا ربما سأكون في طي النسيان، وإن حدث وأحببتَ فتاة أخرى تأكد أنني أحببتك بالطريقة التي أحببتَها أنت، أحببتك بطفولتي، أحببتك بمشاعري الأولى وصدقها وبراءتها، لقد كنتُ حقًا مستعدة للتضحية بكل شيء من أجلك، تنازلتُ عن الكثير والكثير من أفكاري ومبادئي وهدمتُ كل الثوابت التي تربيت عليها فقط لنبقى معًا، لنبقى معًا مهما كلفني الأمر، كنت أعرف أنك تستحق كل هذا، كنت أومن أنك لن تؤذيني، وأنك ومهما كنت سيئًا لن تتعمد إيذائي مهما حدث، مع الأسف كنت أُحسن الظن بك، وكان بعض الظن وجع وحزن وكسر، لقد كسرتني يا داوود، أقسم حطمتني تمامًا .

بهدوءٍ تام خطت خطواتها الأولى في الرحيل، في كل خطوة تبتعد كنت أعرف أنها لن تعود. الهواء ينعدم رويدًا رويدًا، والأرض تضيق أكثر مع ابتعاد خطواتها في تناغم قبيح تسحب كل الهواء خلفها.

لربما هذه المرة الوحيدة التي أردتُ حقًا أن يتوقف الزمن كي لا تخطو خطوة أخرى ناحية الرحيل الأبدي، كان الأمر أشبه أن تنهار حياتك بهدوء تام وأنت تقف مكتوف الأيدي لا تستطيع إنقاذها، عاجز تمامًا عن فعل أي شيء، فقط تتأملها وهي تنهار في صمتٍ تام.

تابعتها وهي تبتعد، كنت كما لو أنني أمشي في جنازة والميت بها هو أنا، هذه جنازتي وهذا عزائي، فلقد قرر القدر أن يقتلني بالحياة.

خطواتها المتباعدة كانت تهز أركان قلبي، تؤلمه دون أن تقتله، كوخزة إبرة في جسدٍ ملتهب كان قلبي يتألم.

كيف حدث هذا ومتى؟! لا أعرف، لكن حتى مَن حولنا مِن المارة يشعرون أن ثمّة نهاية ما تحدث الآن، ثمّة قصة أبديّة فلسفية بدأت الآن، كانوا ينظرون لي نظرات حزن وأسَف وشفقة، ولم أتحمل تلك النظرات فاضطررتُ للرحيل عن المكان في الاتجاه المعاكس لخطوات آسيا، لنفترق وللأبد.»

قاطعني من كتابة الفصل الأول من الرواية صوت اصطدام مدوي بالأرض، استيقظ كل من في العنبر، بعضهم هرول إلى الشرفة، وبعضهم خرجوا مسرعين إلى السلالم ومن ثَمَّ إلى الحديقة، كان الظلام يسيطر على المكان، الأطباء والممرضات في حالة فزع، ورجال الأمن الداخلي يلتفون حول شيء ما!

اقتربتُ من التجمع حتى صفعتني رؤية جثة «**ليلى العدوي**» سيدة الأعمال وصاحبة شركة مستحضرات التجميل المعروفة، غارقة وسط بركة من الدماء.

كان يومًا مشؤومًا على أي حال، كان المستشفى في حالة كرٍ وفَر وفزع وترَقب.

احتشد رجال الأمن وقتها، وبدأ رجال الصحافة يتوافدون على المستشفى، كان خبرًا مفزعًا للجميع، ومع تواصل التحقيقات لم يفلح الطب الشرعي في معرفة إن كان السقوط عمدًا بدافع الانتحار أم كان رغمًا عنها، وهنا تحولت إلى قضية جنائية وبدأت تحقيقات واسعة مع الجميع بما فيهم المرضى أنفسهم.

أتذكر وقتها كانت حالة الفزع والترقب في العنبر كبيرة، حتى الذين لا يدركون الواقع بشكلٍ كبير بدا عليهم الاهتمام، كل شخص بدأ يحكي ما رأى وتوقعاته عن القاتل، والكثير من الخدع والخيالات الواسعة، وربما شهود عيان.

في صالة الطعام سادت حالة صمت مريبة، كنت تسمع من شدة الصمت صوت الملاعق وهي تضرب الأطباق الصينية، تسمع الأنفاس، ونظرات مريبة تسيطر على الجميع.

في الحديقة كان البعض يواصل الألعاب الرياضية، الضحك، الرقص، الألعاب الترفيهية، وآخرين كانوا في حالة متابعة من بعيد يراقبون الجميع في صمتٍ تام، وخلفهم رجال الأمن الذين ارتدى بعضهم الزي المدنيّ واندمجوا بيننا.

كانت أيامًا صعبة ومشحونة على الجميع، ثم عاد الهدوء مرة أخرى يسيطر على الأجواء هنا، وتختفي تداعيات الحادث، حتى تعود من جديد بخبر نقل أحد الأطباء من المستشفى أو تقديم آخر استقالته، أو حتى الحملات المتكررة للتفتيش على المستشفى بشكلٍ دوريّ، كلها كانت أشياء مزعجة، وللمرضى دائمًا رد فعل سواء بالسخرية أو التهكم أو حتى إبداء الآراء بينهم.

من حسن حظي أنني هنا، مريض في هذا المستشفى، صحيح أنني تركت حياتي في أشد لحظات توهجي بعدما كنت الممثل الأول في مصر، الحفلات، المؤتمرات، الثروة الطائلة، ولا أنكر أنني كافحت من أجل الوصول إلى ما وصلت إليه من مجدٍ وشهرة في الوطن العربي، بعدما كان اسمي السينمائي من أهم الأسماء الفنية في مصر، (**داوود الحسيني**) الحاصل على عدة جوائز وتكريمات عن أدواره السينمائية، والممثل الوحيد الذي يتنبأ له الجميع بالترشح وربما الفوز بجائزة الأوسكار بعد اقتحامي عالم السينما العالمية، تعثرتُ أمام لعنتي بتخيل الأشخاص.

في الحقيقة أنا أكذب، لم أكن أتخيل أشخاصًا لا وجود لهم على أرض الواقع، بل كنت أتخيل فتاة واحدة فقط، وحدها كان غيابها أشد فقدان على قلبي. وبعد الونس الذي حاول مَن حولي خلقه في حياتي مِن أصدقاء، خصوصًا صديقي العزيز (**يونس**)، أقارب تذكروني بعد نجاحي، والكثير من النساء اللواتي يرغبن في الاقتراب مني، أنا الممثل المعروف (**داوود الحسيني**) وبعد كل هذه النجاحات التي حققتها أصبحت نزيلًا ومريضًا في مستشفى لعلاج الأمراض النفسية

وحالات الإدمان، لأنني لم أتعافَ من اضطراب الفكر الوهمي (**تخيل الأشخاص**).

عرفت أن غدًا ستبدأ أولى التحقيقات مع الأطباء والممرضات ورجال الأمن، هكذا أخبرتني (**جيسي**) إحدى الممرضات في المستشفى، والتي تعرفني جيدًا، وكنوع من أنواع الحب تبلغني بآخر الأخبار التي تحدث في الكواليس.

كانت حالة من الصمت الطويل تسيطر على العنبر، قاطعه جرس ميعاد الإفطار، انصرف الجميع ولم يتبقَ إلّا (**خالد زيدان**)، فنان ورسام معروف، جذبه الفن للتفكير في كل شيء حتى ظهرت عليه علامات واضطرابات الهلوسة، رغم تحذيرات الأطباء من التعامل معه بشكلٍ مباشر إلّا أن تلك الاضطرابات لم تظهر يومًا على خالد، لا يتحدث مع أي شخص، متزن لأبعد مدى، ودائم الرسم على الورق، الجدران، حتى في الحديقة كان يرسم، إنه يرسم طوال الوقت.

في هذا الصباح كان يسند ظهره إلى السرير، يمسك سيجارته بيدية التي ترتجف دائمًا، وبانعكاس الورقة في عينيه الباهتتين يغرق في التأمل، ينظر للسقف وللجدران، يتفوَّه بكلمات غير مفهومة ثم يعود للرسم.

لاحظ خالد أنني لم أخرج معهم، وتظاهر بعدم اكتراثه لأمري. في الحقيقة لم أحاول ولو لمرة واحدة التحدث معه، كان كل منا يتجنب التعامل مع الآخر بأكثر الطرق الممكنة، حاولت في هذا الصباح شد انتباهه، كنت على وشك بدء حديث معه، لكن سرعان ما استعاد شروده واعتدل في جلسته، وأعَدَّ حقيبته ووضع الأقلام والألوان واللوحات ثم

خرج من الغرفة، لاحقته حتى خرج إلى المطبخ، طلب القهوة ثم اتجه إلى أحد أركان الحديقة البعيدة عن الضجيج والملاعب والمسرح وأماكن الزيارات، وبدأ في الرسم وهو يؤكد النظر لي بأنني أتابعه.

جلست على قرابة ما بين الأماكن المزدحمة بالمرضى وما بين مكانه الهادئ البعيد عن هذا الضجيج، كانت يتابعني كل فترة بالنظرات ثم يواصل الرسم، كانت الحديقة في حالة من الهرج والمرج، والمسرح دائمًا بعروضه المختلفة المكان المناسب لـ (**سارة خطاب**)، لكن في هذا الصباح كانت تجلس على إحدى كراسي الصفوف الأمامية ولم تصعد إلى خشبة المسرح لممارسة رقصة الباليه المعروفة عنها في عالمها الخاص، كانت تجلس تراقب كل مَن حولها في حذر، تأكل أظافرها وتضرب الأرض بقدميها ثم تعود هادئة في جلستها وتتأمل الجميع.

ملامح سارة هادئة جدًا، رمادية، لا يمكن تمييز إن كانت تشعر بالحزن أو السعادة، فجأة لا تفارق المسجد، وفجأة تجدها على المسرح ترقص بطريقة جنونية، لا أحد يعرف أسباب وجودها هنا، ترفض الاقتراب من الجميع، ترفض المناقشات تمامًا، ولا أحد من الأطباء الرجال يتواصل معها بشكلٍ مباشر عدا الممرضات والطبيبات فقط، ولا أحد يعرف أيضًا من المرضى السر وراء هذا، بالكاد هم لا يهتمون بالأساس بهذه الأمور، لكنني أدرك جيدًا أن ثمة أسرار في هذه الفتاة. لست شخصًا فضوليًا، لكن لطالما تردد اسمها كثيرًا في الحديقة، خصوصًا أن (**ليلى العدوي**) كانت الوحيدة التي تتحدث معها.

مر الوقت بهدوءٍ تام بين نظرات الترقب والضجيج، انتهى وقت الغداء، وانصرف الجميع إلى عنابرهم، استجمع خالد حقيبته واتجه إلى المبنى، كذلك سارة نهضت من مكانها لتتجه إلى العنبر.

هنا العنابر منفصلة بين الرجال والنساء. يكون اللقاء فقط في أوقات الوجبات اليومية أو ساعات ما بعد الظهيرة. كانت إدارة المستشفى تعرف أسماء المرضى جيدًا، وتعرف كيف توفر لهم جزءًا من حياتهم الخارجية الواقعية.

في العنبر كنت ما زلت أتأمل، خالد كان يجلس هادئًا جدًا، لا يسمع للاحتمالات والتوقعات التي قد تحدث غدًا، يتظاهر بعدم اكتراثه للأحاديث التي تدار حوله، لكنني لم أصدق تجاهله هذا أبدًا.

تظاهر خالد بالنوم، وظللتُ أفكر في تصرفاته التي أصبحت أكثر غرابة بعد الواقعة الأخيرة، حتى دخلت (جيسي) وطلبت من الجميع الخروج من العنبر لإجراء التفتيش.

بالمناسبة، لكل شخص غرفته الخاصة، لكن وبعد ما حدث أمرت الإدارة بجمع كل المرضى في عنبر واحد ووضعهم جميعًا تحت المراقبة مؤقتًا حتى نهاية التحقيقات.

أثناء خروجي من العنبر لحقت بي جيسي:

ـ أنتظرك بعد نصف ساعة في مخزن الأدوات الطبية.

اتجهتُ إلى المطبخ، طلبتُ فنجان القهوة، ثم ومن الباب الخلفي للمبنى ذهبت إلى المخزن، وبعد دقائق جاءت جيسي بأنوثتها الطاغية، شعرها المسدل وملابسها الضيقة، قبّلتني على جبيني ثم جلست أمامي:

- غدًا سيبدأ التحقيق مع (**مدكور التهامي**) مدير المستشفى وزوجته (**ميسون**) حتى أصغر عامل في المستشفى، لا أحد يشعر بالراحة مما ينتظره في المستقبل، لقد بدا (**مدكور**) متوترًا جدًا بعد تلك الحادثة، كذلك الإشاعات التي كان يروجها البعض هنا عن عداوة باطنة بين ليلى وميسون، ولم ينسَ أحد رفض ميسون لاستقبال حالة ليلى، لولا إصرار مدكور وإشرافه الشخصي على رحلتها العلاجية. ما يشيع هنا أن المسألة بعيدة كل البعد عن الانتحار وإنما هي قضية قتل مدبرة، خصوصًا بعد مراجعة الكاميرات واكتشاف أنها لم تكن تعمل قبل وبعد الحادث بساعتين، كذلك لا يستبعد أحد أن يكون لأحد المرضى دور في هذه القضية، الأسماء المطروحة مرعبة أيضًا وثمة صلة كانت تربطهم بالضحية.

قاطعتها:

- ومَن مِن المرضى تدور حوله الشكوك؟

ردت وهي تخلع سترتها الضيقة:

- سيتم التحقيق مع الجميع بلا استثناء، لكن أكثر الأسماء المطروحة هم سارة خطاب، خالد زيدان، وكريم رمزي.

أشعلتُ سيجارتي، دونت الأسماء في مذكرتي الخاصة ثم قلت:

- رغم التفاوت العمري الواضح لكن سارة كانت الصديقة المقربة لها هنا، ولا أفهم سر طرح اسم خالد وكريم، هل تستطيعين مساعدتي؟

بدأت بتقبيل شفتيّ بنشوة عارمة:

ـ بالتأكيد، أنا هنا لأجلك.

ـ أريد حضور هذه التحقيقات كاملة.

توقفت عن مداعبة شفتي وقالت:

ـ مستحيل!

ـ على العكس، أنا أومن أن بإمكاني التواجد في التحقيقات إن أردتِ أنتِ هذا.

ردت:

ـ علاقتك رائعة بمدكور التهامي، ربما يستطيع مساعدتك!

قلت:

ـ صحيح أن مدكور مدير المستشفى، لكن لا تنسي هو متهم أيضًا ولن يفلت من التحقيقات.

همهمت جيسي ثم نهضت:

ـ حسنًا، دعنا نرى ما سيحدث في الصباح، الآن عد إلى غرفتك، فقد انتهى وقت العشاء.

استعدت جلستي ثم قلت:

ـ حسنًا، سأنتظركِ بعد منتصف الليل.

قالت وهي تهندم ملابسها:

ـ سأفعل كل ما في وسعي للمجيء.

عدتُ إلى غرفتي وأنا أفكر فيما سيحدث غدًا.

وفي الغرفة اجتاحتني نوبة من الحنين لحياتي قبل مجيئي إلى هنا، وقفتُ أمام الأوسمة المعلقة على جدران الغرفة، كانت عن فيلم (رحيل)، أتذكر يوم العرض الأول لهذا الفيلم واللقاء الأول الذي

جمعني بمدير المستشفى (**مدكور التهامي**). يومها ونحن في الطريق إلى السينما مع صديقي الوحيد (**يونس**) قال وهو يحاول الاستنجاد بـخدمة (**جوجل لوكيشن**):

ـ لم يتبق سوى ساعة على الحفل، عار علينا أن نتأخر على العرض الأول من الفيلم!

ـ لا عليك.

اتخذ الطريق المعاكس ليقطع الطريق بالعرض، ثم انطلق مرة أخرى بسرعته الجنونية.

لم أرد على كلماته، كنت في حالة هدوءٍ مصطنع يخفي خلفه كل تنهدات الحزنِ والأسى.

أغلق يونس نوافذ السيارة ثم أخرج سيجارتين محشوتين بالحشيش، أعطاني الأولى ثم أشعل الثانية وهو يردد مع الأغنية:

«صار لي شهرين وكام يوم أنا وإياك.. ما عم نقدر نوصل على ولا شي.. بعرف إني صار لازم أنساك.. بس لون عيونك بيذكرني فيك.. غير لون عيونك أخبارك، حكيك وجنونك.. بحّة صوتك بتذكرني فيك.»

بخبث الأصدقاء الساخر قال:

ـ لا أظن أن هذا الشاب يعاني من ألم المرحلة الأولى في الفراق.

رددت:

ـ ثم..؟!

بعد نفسٍ عميق يملأ صدره بدخان الحشيش قال:

ـ الشهرين الذي يقصدهم هذا الشاب ربما هما في الأساس خمسة أعوام، ربما عشرة؛ الذين تألموا من الفراق لا يدركون الوقت جيدًا، إنهم عالقون في اللحظة التي قرروا فيها أن يفترقوا، وما بعد هذه اللحظة مجرد أيام لا قيمة لها مهما حملت تلك الأيام من إنجازات ومواقف هامة. حين طُرد آدم من الجنة لم ينبهر بجمال الأرض، مثلك تمامًا يا داوود. اليوم ذكرى الرحيل، أليس كذلك؟!

دون أن ينتظر مني رد واصل:

ـ أعرف هذا جيدًا، وأتذكر ذاك التاريخ الملعون عن ظهر قلب، ربما الأمر يبدو غريبًا لك، لكنك تعرف جيدًا يا صديقي. بعد هذا اليوم الملعون تغيرتَ تمامًا، اختفتْ ملامحك الهادئة التي كانت تميزك، وأصبحت ملامحك أكثر خشونة وحدة وقسوة، آراؤك التي كانت تتميز بالسماحة والمودة باتت أكثر عدوانية، كما لو أنك تريد قتل البشر جميعًا والجلوس على حطامهم بكل سلام ورضاء نفسي، تصرفاتك تجاه نفسك باتت أكثر عنفًا كما لو أنك تعاتبها، بل تمزقها بلا رحمة. لم تعد أنت يا داوود، ابتسامتك باردة وجامدة، تبتسم من أجل الابتسام فقط، تواصل حياتك لأنك لا تملك رفاهية الهروب منها، تواصلها بروح وملامح عجوز في الستين عاجز وعاقر. النهايات الحزينة فرض وواقع علينا، لكنك أصبحت تضع تلك النهايات وتقررها قبل بدايتها، تركض نحو اليأس دون أن تحاول حتى مداعبة طرق الأمل من بعيد، تقرر الموت

قبل أن تحيا. أعرف أنك مررت بـعاصفة شديدة اقتلعت جذورك وحطمتك تمامًا، لكن المؤسف أنها وحتى بعد مرورها غيرتك، جعلت منك شخصًا آخر، شخصًا آخر لا يشبهك.

قاطعته بغضب حاولت إخفائه بنبرةٍ هادئة:

ـ يونس، ما رأيك في الفيلم الأخير؟

ضحك وهو يواصل القيادة بسرعته الجنونية:

ـ أمام الكاميرات أنت ممثل مبدع، لكن الإبداع الحقيقي يكمن في الكواليس، في حياتنا العادية، وأنت في حياتك ممثل مبدع من الدرجة الأولى، تستحق الأوسكار على ثباتك وقوتك.

اقتربنا من السينما، استعدنا هيئتنا بعد نظرات متبادلة من الضحك والسخرية.

نوع آخر من الحزن أن تواجه الحقيقة بالسخرية، أن تبتسم وتسخر خوفًا من أن تنهار أمام الحشود، هذا النوع من الضحك الذي يقتل قلبك من فرط الالآم.

الشارع مزدحم تمامًا، الصحافيين والمصورين ـالفئة الأكثر فضولًا وسماجةـ، والمشاهدين ـأولئك الموهومون بشخصية نجومهم السينمائيينـ، وأبطال الفيلم بنظراتهم الحقودة تجاه بعضهم البعض رغم ما يحاولون إظهاره للناس من حبٍ ومودة. رغم أن العرض الأول كان بعد منتصف الليل، إلا أن مجانين السينما لم يفوتوا الفرصة لالتقاط الصور، كذلك الصحافيين والإعلاميين.

قال يونس بسخرية:

- لدينا غنيمة من النساء اليوم، لنستعد جيدًا. ابتسم يا داوود، أرجوك ابتسم، النساء يحببن الرجال الذين يبتسمون دائمًا.

خرجنا وسط الزحام بين الحراسة الأمنية الخاصة، كان يبتسم للكاميرات ويختلس النظرات على أقدام النساء الفاتنات، كنت أبتسم أنا أيضًا، لكن ليس حبًا في الأضواء والشهرة، لكن من تصرفات يونس التي تبدو طفولية من الدرجة الأولى لكنها تعجبني.

تبادلنا التحية بين زملاء العمل، المخرج والعمال الذين بذلوا أقصى ما في وسعهم لظهور الفيلم.

اتجهنا إلى المقاعد المخصصة لنا، تفاجأنا أن مقاعدنا تبعد عن مقاعد الزملاء بمسافة بعيدة جدًا، لم نفهم بالضبط السر وراء هذا العزل الإجباري، لكنني ومن الأساس لا أحب الأضواء، فلقد كانت صدفة رائعة مثيرة للإزعاج بالنسبة ليونس. انطفأت الأضواء وبدأ العرض.

«فيلم: رحيل..»

ما إن بدأ العرض حتى تفاجأنا برجل قادم نحونا، جلس بجواري في هدوءٍ تام دون أن يلقي حتى التحية علينا. همس لي يونس بسخرية:

- يبدو أنه أحد رجال الدولة أو صاحب السينما على ما أظن!

لم أهتم كثيرًا بأمر الرجل، كنت مشغولًا بمتابعة الفيلم، قدرتي على التمثيل أعجبتني، أحب أدائي في العمل بشكلٍ عام مهما ظهرت متواضعًا أمام الناس، أعرف أنني متمكنٌ ومتميزٌ في تمثيل وتقمص الأشخاص.

كانت أحداث الفيلم تدور حول بطل ثوري أحب فتاة لكن رصاصة الطغاة قررت أن تكتب نهاية القصة، فأصابت البطلة في قلبها لتمت متأثرة بجراحها وأصابت البطل في روحه لتمنع الحياة عن قلبه.

كنت أسمع ضحكات الحضور، بكاءهم أحيانًا، وغضبهم من ردود أفعال الأبطال، من تأثر الحضور بالمشاهد والمواقف التي يحملها الفيلم أدركت أنه سينجح ويحقق مراده.

انتهى الجزء الأول وحان وقت الاستراحة، كنا نستعد للخروج لبعض المقابلات الصحفية والتقاط الصور التذكارية، لكن فجأة وقف الرجل غريب الأطوار أمامي، وقال بهدوء:

ـ أحتاج إلى الحديث معك على انفراد قبل العودة من الاستراحة، اتبعني.

كاد يونس أن يقطعه لكنني ربَّتُّ على كتفه:

ـ لن أتأخر.

تبعتُ الرجل الذي اتخذ طريقًا معاكسًا تمامًا بعيدًا كل البعد عن الضجيج وكلمات وأسئلة الصحفيين، تبعته ونحن نسير في ممرٍ طويل لا يقطعه إلا ضوء أزرق خافت. أعجبتني هيئته، يبدو في خمسينات العمر، يرتدي معطفًا أسود، ملامحه خشنة، وصوته رغم كلماته البسيطة لكن له نغمة مميزة خاصة جدًا.

جلسنا في إحدى الغرف، كانت الغرفة أكثر غرابة، أضواء بسيطة هادئة، مكتبة ضخمة، صور لبعض الفنانين في أيامهم الأولى، بعض الخطابات القديمة.

أعد لنا كأسين من النبيذ المعتق ثم جلس على مكتبه، صب لنفسه الكأس الأول، أشعل سيجارته ثم قطع الموسيقى الهادئة التي كانت تسود أجواء الغرفة، وبعد صمتٍ طويل قال:

- أنت ممثل وشخص رائع، تعجبني فلسفتك أيضًا، لهذا أردت أن نبدأ تعارفنا بكأس النبيذ، تحب مثل هذه (**البداسيا**) أعرف هذا جيدًا.

بعد نفس عميق من (**البايب**) الذي لم يفارق يده واصل وهو يمعن النظر في عيني:

- أنا مدكور التهامي، مدير أحد المستشفيات الخاص للعلاج النفسي والإدمان، ومنتج سينمائي. لا تسأل أحدًا عني، حتى أكبر مَن في الوسط الفني لا يعرفني، سنكون أصدقاء عما قريب. انتهت الاستراحة، وداعًا.

لم أنطق كلمة من شدة الإحراج، خرجت بهدوءٍ تام ثم عدت إلى المقعد.

لاحظ يونس تغير ملامحي التي ظهر عليها آثار الصدمة والإحراج، فسألني عما حدث، حاولت الهروب من سؤاله، لكنه كان مصممًا على السؤال، فأجبت بهدوء:

- هو منتج سينمائي يعمل خارج مصر وقد عاد للتو من أجل فرض سيطرته على السوق المحلي، أشاد فقط بأدائي وهذا كل شيء.

لم يقتنع يونس بإجابتي، لكنه حاول تقبلها حتى لا يفسد ما تبقى من اليوم.

انتهى العرض وبدأنا بالفعل في التقاط الصور مع الحضور، كذلك اللقاءات الصحفية والتصريحات التي ينتظرها الجميع، كانت القاعة الخاصة باللقاءات والصور مزدحمة بطريقة تثير الخوف في نفسي؛ بشكلٍ عام أنا لا أحب الأماكن المزدحمة، لا أحب الأضواء وتزعجني الأسئلة والابتسامات المزيفة.

مر الوقت ثقيلًا على قلبي حتى خرجنا بعد أن انتهينا من المراسم التقليدية، كان المخرج قد دعانا لحفل عشاء في أحد النوادي الليلية المطلة على النيل، أدار يونس المحرك وانطلقنا إلى هناك.

بعد كل هذا الضجيج لم أكن في حاجة حتى لأبسط الكلمات التي قد يتحدث بها يونس؛ التزم الصمت تمامًا حتى وصلنا إلى هناك، المكان محجوز بالكامل لطاقم العمل، خرجنا من السيارة واتجهنا لطاولة العشاء، كان يونس يبادل زملاء العمل بالابتسامات وكلمات المداعبة المثيرة للنساء.

المخرج، الممثلين، أقاربهم، كلهم كانوا يجلسون في حالة احتفاء بالعرض الأول. لاحظ يونس عدم انخراطي بينهم، كنت صامتًا بطريقة مريبة أفكر في الأمرين معًا، ذكرى نهاية علاقتي بـ **(آسيا)** واللقاء الذي لم يستمر دقائق مع مدكور التهامي.

انتهى العشاء وبدأ كل منا في الاحتفال بطريقته الخاصة، اتجهت إلى الشرفة بعد أن أعد يونس كأسين الفودكا كعادتنا.

النيل، وإن كنت أميل أكثر إلى البحر، لكن ثمة ألغاز وهَيبة مفجعة في هذا الهدوء، أيضًا في المياه التي تتحرك بصمت تام.

بعد دقائق قال يونس:

ـ أتفهم جيدًا سبب مزاجك السيئ اليوم، لكن يبدو أنه ازداد سوءًا بعد لقائك بهذا الرجل غريب الأطوار، ماذا حدث بالضبط؟

رددت لأهدم كل الأفكار التي تدور في ذهنه:

ـ لم يحدث شيء، فقط كانت مجرد إشادة بأدائي كما قلت لك.

همهم في صمت ثم قال:

ـ أتمنى حقًا أن تكون ذكرى رحيلك عن آسيا هي السبب في كل هذا.

لم أرد حتى فاجأتنا فتاة مراهقة في بداية العشرينات، ـ لا أعرف بالضبط من سمح لها بالدخول ـ، ظننتُ في البداية أنها من طاقم العمل وأرادت أن تستمع بجمال النيل، لكن سرعان ما خابت ظنوني، فلقد اقتربت نحونا متوترة ترتعش، ترتدي ملابس عادية لا يبدو عليها الثراء وتتلعثم قليلًا:

ـ آسفة على اقتحام مجلسكم، لو تسمح لي يا سيدي أريد التحدث معك قليلًا.

استأذن يونس ثم خرج من الشرفة.

صمتت الفتاة صمتًا طويلًا ثم قالت:

ـ أنا معجبة بك، أقصد معجبة بأدائك في أفلامك، كذلك آرائك الدينية والسياسية والاجتماعية على مواقع التواصل الاجتماعي.

كان عقلي في وادٍ آخر، لكن رددتُ عليها:

ـ أشكركِ على هذا الإطراء اللطيف.

ابتسمت بطفولية ثم قالت:

ـ أسعدني لقائي بك، بالمناسبة اسمي (نيفين). إلى اللقاء.

ما إن خرجت حتى عاد يونس ساخرًا:

ـ هل تفكر في التبني؟

لم أفهم سؤاله:

ـ ماذا تقصد؟

رد:

ـ عن تلك الطفلة التي كنت معها قبل لحظات، ما اسمها؟

قلت:

ـ على ما أتذكر (نيفين).

كاد أن يسقط من الضحك، وبدأ يحكي عن ليلته الساخنة مع فتاة ليل تحمل نفس الاسم. أوقفته على الفور:

ـ تعرف أنني لا أحب هذه السخرية، ثم الفتاة تبدو في غاية الاحترام!

واصل سخريته:

ـ الاحترام! يا صديقي هذا الجنس لا يؤتمن أبدًا، إنهن أشبه بالأفاعي، يحومن حولك في صمتٍ تام حتى تثق أنهن لن يؤذينك، وفي هذه اللحظة ينقضضن عليك ليسفكن دماءك ويقتلنك بدماءٍ باردة، عندها لن تلقي اللوم إلا على نفسك، لأنك وبسذاجة وثقت فيهن.

قاطعته بتلقائية:

ـ آسيا لم تكن مثلهن أبدًا يا يونس.

ابتسم ثم أشعل سيجارته.

استمر الصمت بيننا لثواني حتى شعرت بالضيق من المكان، فطلبت منه أن نعود إلى المنزل. اليوم كان مرهقًا بكل تفاصيله، وقد كان ردي على يونس هو مسك الختام ليوم سيئ.

بعد أن ودعنا أصدقاءنا اتجهنا إلى المنزل، وفي الطريق سادت حالة صمتٍ طويلة، الشمس تستعد لفرض سيطرتها على الأرض، إنها تظهر بتناغم وإبداع لا مثيل له، الطيور تبدأ حالة الاستعداد القصوى لرحلتها وبحثها اليومي عن الطعام، حبات الندى تستقبل اليوم بقطراتها التي تذوب رويدًا رويدًا مع ظهور الشمس، ونسمات الهواء تضربك في صدرك لتذكرك أن هناك يوم آخر من المعاناة ينتظرك، الشوارع تستعد لاستقبال مواطنيها الذين تبعوا النظام الكوني وناموا مبكرًا، أما أنا ومَن هم مثلي فالشوارع تبغضنا وترفضنا، لأنني من أولئك الذين لا يعرفون السير إلا بعد المنتصف، أعرف أن خطواتي بعد منتصف الليل أثقل على الأرض من خطوات كتيبة من الجنود في الصباح، أعرف كم تلعنني وترفضني لأنني أخطو عليها بقلبٍ محطم ممتلئ بالخيبات، بأفكارٍ وصراعات في عقلي تجعل رأسي أكبر من العالم، وأقدام ثقيلة استُهلكَتْ في طرق التعب والاكتئاب. الأرض ترفضني، حتى الهواء لا يصل إلى صدري إلا بعد معاناة وتعب، أنا ثقيل على العالم، وهذه هي الحقيقة؛ العالم رقعة لا تتسع لأفكاري، لأحلامي، لأمنياتي، العالم لا يتسع لأقدامي.

ظللت أرددها بيني وبين نفسي، حتى ورغمًا عني رددتها بصوت واضح، فتحت النافذة وتركت ليدي حرية مداعبة الهواء وكأنني أحاول الإمساك به. كان يونس مشغولًا في القيادة بسرعته الجنونية، هكذا ظننت حتى فاجأني بسؤال مباغت:

ـ وقد كانت آسيا تتسع لك؟

للمرة الأولى شعرت أن هذا سر لوعتي بجنوني بهذه الفتاة:

ـ نعم يا صديقي، كانت تتسع لي. إن المسألة لا تتعلق بالجمال، بالردود الطيبة، باختلافها عن الجميع، على العكس، آسيا كانت فتاة عادية جدًا، ليست مِمَّن يتميزن بأنوثةٍ طاغية أو يجيدن كلمات الغزل والغرام طوال الوقت، لكنها كانت بمثابة العالم، فتاة تعرف كيف تمتصك في أشد لحظات غضبك بابتسامتها، مهما كنت ساخطًا على الحياة تبادرك هي بكلماتٍ وابتسامة تمتص كل غضبك، تطفئ نيران صدرك المشتعلة كما لو أنها لم تكن، بل تسخر من هذا الغضب بطفولة تجعلك تسخر منه أنت أيضًا، لا تحتاج للثبات أمامها، هي كأُمك مهما حاولت إخفاء انهيارك لن تفلح في خداعها، قد لا تفهم أسباب هذا الانهيار وليست فضولية من الدرجة الأولى هي فقط لا تسمح لك بالكذب حتى في ثباتك، تقترب منك وتُربت على كتفك بهدوءٍ تام ثم تداعب رأسك المنهك بأناملها الصغيرة، تسمح لك بالبكاء بينما هي تعتذر لك عن كل وجعٍ لا تعرفه فقط كي لا تبكي، لا تحتاج إلى التجمّل أمامها، هي لا تنظر إلى ملابسك أو

هيئتك، تنظر إلى قلبك فقط، مهما كانت أفعالك وتصرفاتك هي تنظر إلى ما لا تنظر له أنت أبدًا. كذبت؟ «**ومن قال أننا لا نكذب! الأهم ألا نعتاد الكذب.**»، أخطأت؟ «**لولا الخطأ والذنب ما وجد الغفران والرحمة الإلهية، الأهم أن ندرك خطأنا لنتجنبه في المرة القادمة.**»، تشعر باليأس والسوداوية؟ «**كل الحق لك، الواقع في غاية القسوة والحياة صعبة، لكن ألا نستحق القليل من الأمل لنواصل كفاحنا ضد الحياة من أجل أن نبقى معًا؟!**»، هكذا كانت تستقبل كل حالاتي ومشاعري بطريقةٍ تحول الحجر المشتعل لقطعةٍ رطبة من الفردوس، مهما يحدث منك يكفي شعور أنك في عينها أجمل الرجال، مهما فعلت هي تراك جميل بكل تفاصيلك الغريبة العشوائية، لم تشكُ يومًا من نوبات غضبي القاسية، كانت لا تفكر إلا في امتصاص هذا الغضب، تنسى سريعًا تلك الكلمات التي قيلت وقت الغضب لتحافظ على صورتك الجميلة في عينها، لم تتمرد يومًا على طباعي أو شخصيتي، كانت تحاول إرضائي أولًا ثم وبدلال تناقشني، ليس من أجل المناقشة نفسها لكن من أجل أن نتراضى معًا لنبقى معًا، هذا كان الأهم والأبقى عندها من العالم. «**اليوم لنتحدث عن العلوم، غدًا موعدنا في مناقشة الفلسفة، وبعد غد لنكتشف نكات ومواقف كوميدية جديدة، لنمارس الحب لكن لا تنسى الصلاة، بالمناسبة أنا لا يزعجني إفراطك في شرب التبغ وأنواعه لكن صدرك سيتعبه الركض**

الطويل الذي نركضه، أظن أن الحياة معًا ستكون أفضل لو قضيناها نركض ونرقص ونغني في سلام وهدوء بعيد عن ضجيج العالم وقسوته.»، هكذا كانت تفعل يا صديقي، لا تتعامل معي بل تتراقص بالكلمات والمواقف، تعزف على صفاتي وطباعي كأشهر العازفين، كانت تتسع لي فأنت هنا في حرمتها عاري الطبع والمشاعر والصفات، هي غطائك ووشاحك وأمانك الوحيد، هي جيشك الذي سيبقى يدافع عنك حتى اللحظة الأخيرة، عكازك إن أصابك العمى، وأنت حملها الجميل حين تعجز أقدامك عن المشي، وفي عالم ضيق فوضوي ودموي يحطمنا ويهزمنا نحن معشر الرجال، كانت هي ملجأي ومتسعي وموطني، والرجل لا ينسى امرأة اتسعت له لضجيجه ولحزنه وأفكاره وهمومه، ولقد كانت آسيا دائمًا تتسع لي.

ضحك يونس بسخرية وهو يحاول أن يوازى السيارة بالرصيف قال:

- أخشى عليك من داء العشق يا صديقي، أخشى أن تُتيم بها فتنسَ نفسك، تجدد مشاعرك بها ثم تغدوا عنها متأثرًا بجراح الفراق. أفهم أنها طاقة متجددة بداخلك لا تفنى أبدًا، لكنني أخشى عليك من أن لا تقع في غرام فتاة أخرى لتحرم عقلك وقلبك من مشاعر جديدة ربما أكثر صدقًا من تلك الأشياء التي تشعر بها الآن.

رددت:

ـ أنا بحاجة إلى النوم.

ابتسم:

ـ أنت دائمًا بحاجة إلى النوم يا صديقي.

سبقت يونس الذي اتجه إلى المتجر لشراء بعض المستلزمات الخاصة بنا. من السيارة إلى المنزل في الطابق الثالث، وبعد دقائق جاء يونس يحمل احتياجاتنا اليومية والطعام.

سريعًا أعد لنا الإفطار ثم جلسنا على الطاولة:

ـ ماذا كان يريد منك مدكور التهامي؟

رددت:

ـ ومن قال لك عن اسمه؟!

ضحك:

ـ أنت يا صديقي أخبرتني به!

بعد ثوان من التفكير قلت:

ـ كما أخبرتك، هو منتج سينمائي وطبيب نفسي لا أكثر.

استأذنتُ وذهبتُ إلى غرفتي، وكالعادة لا أستطيع النوم إلا بعد مراجعة كل التفاصيل التي حدثت.

ترى هل تتذكر آسيا وتحتفل أو تحزن بمراسم هذا اليوم؟ هل خطرتُ ببالها من الأساس؟ عندما تذكرتني هل كانت تشرب قهوتها الصباحية؟ هل فكرت بالعودة؟ ولِمَ لا! لربما هناك فرصة حقًا للعودة! لا لم تفكر بالتأكيد هي سعيدة الآن، لربما... لربما... اللعنة على الاحتمالية نفسها!

هل تعمد يونس سلك طريق آخر ليعطيني مساحة للتعبير عما أشعر به؟ مَن مدكور التهامي؟ كيف عرف أنني أحب النبيذ؟ لماذا جلسنا بعيدًا عن زملائنا؟ ما الثقة التي جعلت يونس يقول نصًا «**وأنت تعرف جيدًا أن هذه الصفحة انتهت وللأبد**»؟

واصلت التفكير الجنوني، التفكير في كل شيء، عن أمر يونس صديقي الذي لم يتركني يومًا، علاقتي بيونس علاقة أبدية مؤقتة، هو يؤمن بأبديتها وأنا أومن أن الأبدية هراء اخترعه الحمقى من أجل الاستمتاع باللحظات التي تسبق الفراق، نسكن معًا في منزل واحد ـ هذا اتفاقنا بعد وفاة أمه ـ، كان هذا الحدث الأكثر تأثيرًا في حياته، نحن معشر الرجال ننضج ونشيخ فجأة بعد وفاة أمهاتنا، الأم وبالنسبة للرجل العلاقة الأكثر صدقًا والأنثى الوحيدة التي لا يشعر بالخجل منها، وجود الأم في حياة الرجل بمثابة المياه التي تحافظ على ما تبقى من طفولة وبراءة الرجل، التي تحمي من قسوة الحياة وخالبها، لذلك كانت أكثر الأسماء حبًا بالنسبة لي أن أنادي إحداهن بـ أمي، أن أقول لإحداهن أنني أرى فيها صفة من صفات أمي، وكان هذا العائق الكبير الذي لم تفهمه آسيا جيدًا أو لم تقدره، كان الفراق الحل الأمثل ومثاليته كانت تكمن في ألمه وشعوره، الفقد الجميل الذي يمكن لكل شخص أن يتخيل نفسه بطل في القصة الكلاسيكية.

في خلال السنوات الماضية حاولنا العودة من جديدة، كانت محاولات طائشة لاستعادة أجزائنا المفقودة التي تناثرت بعد الفراق، حاولت هي أن تتجاوزني سريعًا بأقسى الطرق الممكنة، اختارت أن يكون يوم ارتباطها وحفل خطوبتها يوم ميلادي، حدث هذا بعد فراقنا

بعدة أشهر، كانت لحظة لا تنسى، ظاهريًا كنت أتعمد إظهار أنني لا أكترث كثيرًا لما يحدث، لكن وفي داخلي ما إن رأيت صورتها بجوار الرجل الذي قررت قضاء حياتها معه لم أشعر إلا بنيران تبتلعني، الالآم وقتها كانت تعبث بقلبي، بأنفاسي، ليس شعورًا بالضيق وحسب بل كان ألعن، أن ترى الشخص الذي بدأت معه طريقك في الحياة، الحلم الأول الذي حلمت به، أول من دعوت الله أن يجمعك به، أن تقف أمام صورة الشخص الذي نشأت معه ـ أقصد الذي عرف معنى الحب معك، لامس قلبه شعور الغيرة ورغبة الامتلاك ـ، لا يمكنني بالضبط وصف ما شعرت به، كان أبغض وألعن ما يمكن وصفه حتى بالصمت، أنت من كافحت لأجل ابتسامته الأولى في الحب، أنت من طمأنت قلبه وخوفه من رحيلك، أنت الشخص الأول في كل شيء، تراه أمام عينك وهو يبتسم، يضحك ويغني، ولا يحق لك الاعتراض، لا يحق لك الغيرة والغضب، فقط كل ما عليك فعله هو التأمل في الصور، يلتهم الحزن قلبك وترتعش أطرافك، وبخيبة شديدة تحاول البحث في عينيه عن الشخص الذي وعدك أن لا يكون إلا لك، بائس محطم، تهون من حزن قلبك وارتجافه، تقول له كذبًا:

«ليس هو ذاك الذي وعدنا أن لا يرحل، ليس هو من وعدنا أن نكون نحن عالمه الوحيد».

تشعر بآلام مختلفة في الرحيل، كل النهايات ليست نهايات ما دام الذي رحل عنا لم يعوض غيابك بشخصٍ آخر، وهنا يكمن ما تبقى من الأمل، سرًا يتشبث قلبك به رغمًا عنك، ولقد كنت في نفسي دائمًا أتشبث بذاك الأمل السري، أقول أمام الناس انتهت علاقتنا وأصبحنا

في طي النسيان، لكنني كنت أومن دائمًا بأنه ما زالت الفرصة سانحة للعودة، نحن نحيا بالأمل مهما بدونا بؤساء فاقدين للأمل غارقين في آلامنا، في داخل كل منا أمل حزين سري، أمل بسيط نتشبث به سرًا كعبادة وعادة سرية، ولقد كنت أتشبث بأمل عودتنا دائمًا سرًا. تتخيل طريقة عودتكما وأنت تسمع كل الأغاني التي تتحدث عن العودة بعد الغياب الطويل، تقرأ الكتب التي تتحدث عن عودة أبطالها الذين افترقوا في بداية الرواية، تتخيل نفسك أحد أبطالها أو تأمل بسذاجة أن تقرأ تلك التي رحلت عنك نفس القصة فتشعر بالحنين لك وتزيل الحاجز الأول في عودتكما لتتجاوز أنت كل الحواجز بعدها، لكن ومع واقعية الأحداث وصدماتها، عن كل الأشياء التي تنهي كل الفرص في العودة، يتمرد عليك الأمل، يتلاشى ذاك السري رويدًا رويدًا، يكفر بك ويقسو عليك ويضربك باليأس حتى تبتعد عنه، وقد كان يوم رأيتها تقف بجوار رجل آخر، تضحك معه وتضع يديها فوق يديه بالطريقة التي اعتادت أن تعانق يدي بها، ليس بوسعي تذكر أشياء أكثر عن تلك الليلة، فلقد انشغلت بعدها بأحداث متتالية كخطوة أخرى نحو التعافي منها، خطوة أخرى للهروب من حصون غرامها العتيق.

من بعدها درست الفلسفة، تعمقت أكثر في علم النفس وأجدت التمثيل حتى أصبحت ذاك الممثل الذي تتهافت عليه شركات الإنتاج كل موسم سينمائي من أجل ربح مضمون، لست وسيمًا بالقدر الذي يجذب النساء لكن لهيئتي معنى وفكرة، وهذا ما أومن به كل الإيمان، أنا صادق، أتقمص كل الأدوار كما لو أنني لست هنا، أقصد أعرف كيف أكون ضعيفًا ومتى أكون قويًا، أستطيع تقمص الأشخاص، فقد

أكون بالنسبة لك شخص تقي من الدرجة الأولى وأستطيع تقمص دور العربيد الذي لا يتذكر أسماء نسائه، المسكين الذي لا يملك حق الدواء لأطفاله والثري الذي يمنع الدواء عن الناس، وما بينهم لا أكون هنا، أنا مجرد دمية حقيرة مزيفة لا قيمة لها، محطمة ومهمشة وفي غاية الضعف.

عبثية الحياة تلك والأفكار المتداخلة في هذه المذكرات التي أكتبها الآن كانت سببًا في كل هذا الشقاء، ولأنني أسمع كثيرًا فلن تكون هذه المذكرات ملك لي وحدي، لن أحكي عني فقط بل سأكتب، سأكتب عن كل ما رأته عيني، لأنني مُمتن للحزن نفسه لكل أولئك البؤساء الذين التقيت بهم ومروا على حياتي. المأساة كانت تكمن في الفكرة نفسها، في الإدراك والوعي والتفكير، رحيل آسيا كان البداية، كانت بداية الممثل المعروف (**داوود الحسيني**)، وأولى فصول مذكراته الخاصة.

رغمًا عني غدوت في نوم عميق، كان العرض الثاني للفيلم في مهرجان مدينة الإسكندرية، وكان ينبغي علينا السفر مبكرًا والمبيت في المدينة الساحلية، سبقني يونس ليعد شقتنا هناك.

في بداية الطريق ومن ضمن مئات الرسائل رن إشعار الهاتف بوجود رسالة حديثة، لم أقرأها ولم أهتم كثيرًا فقد كنت أقود سيارتي، رن مرة أخرى كنت قد وصلت للاستراحة التي تقطع منتصف المسافة بين القاهرة والإسكندرية، اتجهت لطلب القهوة بعد التقاط بعض الصور مع الجمهور، جلست في إحدى الطاولات البعيدة في جولة

بائسة على مواقع السوشيال ميديا، دون أن أكترث كثيرًا للرسائل حتى ظهر إشعار آخر بها.

«أحتاج إلى الحديث معك، وعدتني أن تبقى هنا كلما احتجت إليك».

تأملت الكلمات، لم تؤثر بي كثيرًا، اعتدتُ مثل هذه الكلمات من المعجبات، لكن ما أثارني كان الرقم الذي أُرسلت منه الرسالة عبر (**واتساب**)، أحفظ هذا الرقم عن ظهر قلب، كان رقم آسيا!

تلك اللحظات المنهكة من التفكير كانت أثقل عندي من كل أثقال عمري التي حملتها منذ أيامي الأولى في الحياة، في هذه اللحظة الرد ليس بالسهولة التي كنت أظن، ما بين ماذا لو رددت بقسوة؟ قد تكون حقًا تحتاج لوجودي! هي التي لم تعتد مني القسوة أبدًا، قد تكون حقًا في انتظار كلمة طيبة تتشبث بها في هوانها، هي التي لم تعتد في الحياة إلا على الكلمات الرقيقة الطيبة، أن تترك كل من حولها ـ أولئك الذين يضيئون أناملهم لسعادتها ـ وتقرر الذهاب لرجل ابتعدت عنه ست سنوات كاملة، رجل لربما يقسو عليها، لربما لا يتذكرها من الأساس، الأفكار والأفكار وأقساهم خضوعي التام لفكرة أنني لن أقف مكتوف الأيدي أمام انهيارها، الفكرة وحدها قد تكون سببًا في انهياري أنا.

مر أكثر من خمس دقائق وأنا أفكر في الرد، فبادرت هي بالرد:

ـ يبدو أنني أخطأت حين قررت إرسال هذه الرسالة لك، آسفة.

على الفور كتبت:

ـ كعادتكِ متسرعة!

ردت:

ـ كعادتكَ، لا تطيق فكرة غضبي منك.

الكلمات في هذه اللحظات لها قواعد واعتبارات مختلفة، كنت أجاهد من أجل الثبات في الردود أمام فتاة تعرف جيدًا كيف تخرج الكلمات مني. واصلتْ:

ـ هل ستحضر مهرجان الإسكندرية؟

فاجأتني متابعتها للأحداث الجارية في الوسط الفني، لكنني رددت سريعًا:

ـ بالتأكيد، أنا في الطريق إلى هناك.

بعد عشر دقائق من الصمت أرسلتْ:

ـ حسنًا، غدًا سأنتظرك في الخامسة عصرًا في (مقهى العم ريفولي)، تعرفه جيدًا وتتذكره، لا تتأخر.

صمت في مكاني، الأسئلة تطاردني من كل اتجاه والاحتمالات واردة، بعد ست سنوات من الغياب، بعد كل هذه الأحداث والتغيرات التي طرأت على حياتي، كل أولئك الذين عبروا ومروا على عالمي لم تتغير مكانة هذه الفتاة بداخلي، لم تتغير مشاعري، على العكس شعرت بنبضات قلبي وهي تتصارع من جديد، تلك النبضات التي ظننت أنها أصبحت خرساء وللأبد، لم ينبض قلبي خوفًا وحزنًا وفرحًا، لم ينبض، كان يواصل مهامه في الحياة بصمتٍ تام وسط حرمة الآلام، هو يتألم فقط، لا شيء يهزمه فقد انهزم أشد هزيمة وخسر كل شيء، لم يخف يومًا من أي شيء فأشد ما يخشى قد حدث في غيابها.

كيف يمكن ترهيب طفل ماتت أسرته أمام عينه بدماء باردة؟! لقد كانت آسيا بمثابة الأسرة والأصدقاء والوطن.

وكيف أنسى مقهى العم ريفولي؟! هو مقهى صغير في أحد أحياء الإسكندرية القديمة، كان مكاني المفضل دائمًا، لكنني هجرته بعد نهاية علاقتنا، كنا دائمًا هناك نضحك، نتشاجر، ونحزن، ونمارس كل لحظات جنونا وشغفنا.

كانت ثمة فلسفة في اختيارها للقاهرة لحظة الفراق، لربما لأن الإسكندرية لا تستحق أبدًا أن تشهد لحظات نهايتنا منها دائمًا وأبدًا، ولأنني لم أتحمل شوارع هذه المدينة بذكرياتها قررت التمرد أنا أيضًا وانتقلت بعدها للاستقرار في القاهرة.

استعدتُ شرودي سريعًا بعدما اقتحم أحد المعجبين خلوتي وطلب التصوير معي، تبعه شخص آخر، وفي النهاية استأذنت ثم عدت إلى السيارة في حالة ترقب وسعادة غريبة لم أشعر بها طوال حياتي.

اتصلت بيونس على الهاتف، كان قد وصل بالفعل إلى منزلنا الخاص في الإسكندرية، اعتذرت له عن التأخير وقلت له أنني في الطريق، كنت أريد أن أقطع الوقت ليأتي الغد الآن. كل هذه السنوات مرت دون رغبة مني والآن يصبح الوقت أثقل وأبطأ مما ينبغي.

بسرعة جنونية وسعادة طفل ينتظر عيد الميلاد كنت في حالة نشوة، وصلت بالفعل إلى الإسكندرية بعد مناوشات جنونية في الطريق مع رفقاء الطريق الذين قطعوا معي ملل السفر باللعب بسياراتهم.

كلما عدت إلى المدينة عاد جزء مني، روحي المفقودة، لكن هذه المرة كانت العودة أجمل وأكثر سعادة، فورًا اتجهت إلى المنزل،

كان يونس في حالة غضب بسبب تأخري المعتاد، ما إن فُتح الباب حتى أخذت بيديه وبدأت معه سيمفونية رقص مضحكة، كان يضحك مندهشًا من تصرفاتي التي لم يرها مني قط؛ الحب وحده يعود بالرجل إلى طفولته الأولى، الحب وحده يحول أعتق وأشد الرجال إلى طفلٍ ساذج في أيام طفولته الأولى، الرقص هو التعبير الأسمى عن الحزن والسعادة، الرقص عقيدة أولئك الذين مارسوا الحب والحزن معًا، وقد كان الرقص في هذه اللحظة هو سيد اللحظات وأسمى معاني التعبير عن السعادة.

تعبت فاستلقيتُ على الأريكة وأشعلت سيجارتي، جلس يونس على الكرسي ثم قال:

- إذن؟!

قلت:

- دعتني آسيا لفنجان قهوة عصر الغد.

توقعت أن تتغير ملامحه، يبتسم، أو حتى يضحك، لكن فاجأني ثباته، همهم ثم قال:

- ثم...؟!

- سنعود يا صديقي، أقسم لك سنعود.

نهض من مكانه واتجه للمطبخ:

- حسنًا، لنعد الغداء.

لم أفهم تصرفه، لاحقته باندهاش:

- ثمة شيء تعرفه يا يونس! ثمة شيء تخبئه عني!

وهو يخرج المياه من الثلاجة ويتجه إلى الطاولة قال:

ـ لنكن واقعيين يا داوود، لنعود للواقع، لربما الأمر ليس كذلك!

ضحكتُ ثم قلت ساخرًا:

ـ بعد كل هذه السنوات يا صديقي ما زلتَ تشكك في عودتنا؟!

بهدوءٍ شديد رد:

ـ صدقني، لا أحد أكثر مني يتمنى عودتكما، إنني أعرف جيدًا غرامك ولوعتك بها وكل هذه الأحداث التي تغيرت في حياتك لم تؤثر لحظة على مشاعرك ورغبتك الحقيقة في العودة، لكنني أخشى عليك من آثار الصدمة، هذا كل ما في الأمر.

واصلت سخريتي غير المعتادة في شخصيتي:

ـ حسنًا، لا تقلق لن تتحمل تكاليف زواجنا.

ابتسم ابتسامة لم تعجبني، ثم قال:

ـ أتمنى أن يحدث هذا، أنا متعب جدًا، وغدًا ينتظرنا يوم شاق، لنذهب إلى النوم.

تلصمتُ في مكاني، هدوء يونس أفسد جزءًا من سعادتي، أحيانًا تحتاج ليرقص العالم معك فرحًا دون سبب.

تابعته وهو يتجه إلى الغرفة، لم أكن في حاجة إلى النوم، كنت مستعدًا للاستيقاظ حتى اليوم التالي، راودتني كل الأفكار الممكنة في هذه اللحظات، لم أعر لكلمات يونس اهتمامًا أكثر، نحن المحرومون

من السعادة ما إن تداعبنا حتى ننقض عليها، نحاول اقتناصها بكل الطرق فقط من أجل أن نحيا من جديد.

رأسي في هذه الليلة لم يكن يفكر إلا في العودة، العودة فقط وفيروز في الراديو تغازلني من جديد:

«**راجعين يا هوى على نار الهوى راجعين**».

أردد خلفها وأبتسم وأغني، هذه ليلة العودة بكل تأكيد، سنعود ونتحدث، سأخبرها عن كل ليالي الأسى والحزن والتعب، كم عذبتني الوحدة وكم حاولت تجاوزها بالنساء، لقد حاولت البحث عنها في كل امرأة، كل فتاة كنت أبحث عن شيء بداخلها يشبه آسيا، لقد خنت كل النساء التي عرفتهن عدا الوحيدة التي كنت أخونها معهم.

بهذه البساطة بدأت أستعد لعودتها، والأمر الآن يختلف، لم أعد ذاك الشاب المغمور الفقير، تغيرت ملامحي وطريقتي وأفكاري، لم أعد ذاك البائس، أصبح لدي حلم وهدف وحققت جزءًا كبيرًا منه.

«**لننتظر حتى الصباح**»، ظللت أرددها بيني وبين نفسي، أتعامل معها بهدوءٍ شديد، «**لننتظر يا أنا فالغد ليس ببعيد**»، أنظر إلى السماء أتابع الظلام وهو يسود، الكثير من الوقت يفصلني عن هذا اللقاء، أقف في الشرفة أتابع الظلام أكثر وهو يسود الأجواء ويسيطر عليها، أحاول مراقبة السماء من ناحية الشرق لعل الشمس تخطئ هذه المرة وتظهر في غير ميعادها، ربما هذا من باب العدل، فلقد قضيت ليالٍ أتألم فيها دون أن يسألني أحد عن سبب هذا النظام الكوني الموجع الذي يجعلنا نتعرى ونتألم بعد منتصف الليل، قلت لنفسي هذه الليلة لا تستحق أبدًا

أن نتذكر الأسى والتعب الذي عرفناه وعشناه في ليالي الفقد، هذا ليس الوقت المناسب أبدًا.

المنومات كانت الحل الأمثل لقطع الليل الطويل، البدلة الرمادية أم السوداء؟ لا هي لا تحب ارتدائي للأسود، فلتكن الرمادية ولتسقط طقوس المهرجان، العطر الباريسي المفضل لها دائمًا هي في عالم غرام ولوع بباريس وروما، وليكن الباريسي هذه المرة، لنستعيد ابتسامتنا القديمة، كيف يمكن إخفاء هذه الهالات اللعينة التي تزين وجهي؟! مستحضرات التجميل النسائية! اللعنة، سأنكشف أمامها! لا يهم ولينتهي كل هذا الهراء، لنغط في النوم، فالصباح بعيدٌ جدًا لن يقطعه إلا النوم.

كان شعاع الشمس الذي داعب وجهي كافٍ جدًا لأستيقظ من منامي، ما زال لدينا وقت طويل حتى اللقاء الذي أنتظره بكل شغف، كل منا مشغولٌ في عالمه، يونس قد بدأ اتصالاته مبكرًا بالمنظمين ليطمئن بشكلٍ عام على المهرجان؛ يونس شخص متحمس للعمل، شغوف به لأبعد مدى ويفكر في المستقبل دائمًا، هو يرى أن الإنهاك في العمل أفضل من الإنهاك في التفكير، أخف وطأة من الآلام النفسية، وأقل من قسوة الفراغ. في الثلاثينات لكنه يملك حكمة رجل عاش مئة عام، هذه الحكمة التي تجعله متزنًا دائمًا حتى في تصرفاته الطائشة يعود من جديد لرشده وصوابه، إنه يداعب الطيش ويبتعد عنه في نفس اللحظة، يقترب من الحب ثم يغلق كل الأبواب التي تدفعه لهذا الذي يقول دائمًا عنه:

«إما أن يكون سببًا في شقائك الأبدي، إما أن يكون سببًا سعادتك الطويلة».

استعددت نفسي وبدأت في إعداد الملابس المناسبة للقائي بآسيا، كنت في حالة حيرة بين ملابس داوود الحسيني الشاب الذي وقع في غرامها بفوضاه وملابسه العشوائية وألوانه التي لا علاقة لبعضها ببعض، وبين الممثل بدبلوماسيته، ملامحه الهادئة وملابسه التي على أتم استعداد دائمًا لمواجهة عدسات التصوير، بين أفكار وبطش شاب لم يكن يكترث بالعالم وبين أفكار وتصرفات رجل يعرف جيدًا أن كل تصرفاته تحت المجهر.

التغير الذي حدث كان سببًا كافيًا في خوض صراعات أسئلة لا تنتهي، قطعها يونس بعدما اقتحم غرفتي، أشعل سيجارته وظل يتابعني وأنا أتحرك في أركان الغرفة بحثًا عن إجابة واحدة تنقذني من كل التساؤلات التي تدور في ذهني.

بعد دقائق من الصمت قال يونس:

- إننا لا نعرف ما يخبئه لنا القدر يا داوود، لكن ثمة رسائل واضحة نتجاهلها عمدًا خوفًا من حقيقتها، لأننا لا نريد أن نرى الحقيقة والصورة كاملة، خوفًا من الوحدة، هروبًا من الظلام، أو تجنبًا لفكرة أننا أبطال قصة غرامهم في الحياة. الحب يقودنا للجنون لكنه خير رفيق للكذب والخداع أيضًا، وأشد أنواع الكذب أن تكذب على نفسك، أن تحاول تصديق صورة مشوشة لتبقى جميلة. أنت لا تحتاج لكل هذا المجهود لتبقى جميلًا في عين من تحب، لن يحدد مشاعره

بتحديد ألوان ملابسك، لن يقترب منك لأن ملامحك جميلة أو عطرك المميز، من يحبك يراك بقلبه لا بعينه، والقلب يعشق الروح، والروح تميل دائمًا لمن يراها جميلة وصادقة مهما كان مظهرك الخارجي يا صديقي. لا أريد إفساد يومك وحماسك، لكن صدقًا أخشى عليك من الكذب، من فرط الأمل.

بعد شعوري بالتعري رددت:

ـ أنت لا تفهم الأمر؛ إنني أعرف جيدًا أننا لن نعود مهما حدث، وأعرف تمامًا استحالة الاتفاق على الركض في طريق واحد، هو مجرد لقاء عابر لا أكثر.

همهم وكأنه يعرف أنني أكذب:

ـ إذن لا داعٍ لكل هذا، ارتدِ ملابسك العادية التي تليق باسمك ومكانتك، كن طبيعيًا ممتنًا لما حققته بعد الغياب، كن أنت حتى أمام الشخص الذي أجبرك أن لا تكون أنت.

خرج من الغرفة واتجه لتحضير الإفطار، تركني هنا في غرفتي وسط سيل جديد من الأسئلة التي لا تنتهي.

لم يهزم اليأس أحدًا يومًا، كل الذين تأذوا كان من فرط التشبث بخيط الدخان، ذاك الخيط الذي يثيرك لامتلاكه ثم يختفي فجأة بدلالٍ ونرجسية تهزمك. فتاة مثل آسيا كانت منذ اللحظة الأولى تجيد الدلال أمامي، تقترب للحد الذي يجعلني أظن أنها ملك لي وحدي ثم تبتعد للحد الذي يجعلني أشكك في وجودها من الأساس، إنهن النرجسيات اللاتي يعرفن جيدًا كيف يثِرن رجلًا ثم يبتعدن عنه دون

أن يمس شعرة واحدة منهن. هي اعتادت أن أراها جميلة دائمًا حتى في أسوأ حالاتها المزاجية والنفسية، وتحب هذه النظرة مهما كنت في حالة ضيق وحزن شديد منها، هذا ما لم أستطع يومًا أن أبخل به عليها، يرى الرجل فتاة واحدة رائعة وما بعدها نسخًا مكررة منها لا أكثر، في حياة الرجل فتاة واحدة جميلة والأخريات مجرد بقايا لجمالها المتناثر منها.

أخيرًا اخترت من الخزانة الملابس المناسبة للقائي بها، بغباء وسذاجة رجل نضج مع العالم ولم ينضج معها اخترت الألوان التي تحبها، خرجت من غرفتي ثم جلست على الطاولة أمام يونس الذي لم يعد ينتظرني وبدأ في التهام الطعام وهو يتابع في التلفاز الأحداث السياسية التي تجري حول العالم، كانت أخبار ثورات الربيع العربي هي السائدة في أغلب البرامج التلفزيونية، لم أكن مهتمًا بالسياسة، أو بمعنى أوضح لم أعد أهتم بها، فبعد كل هذه الأحداث المؤسفة من الجنون متابعة أخبار عالم يتحد مع أفكارك وتوجهاتك السياسية وفي لحظة ينقلب عليك ويتهمك إما بالكفر والإلحاد وإما بالخيانة والاتفاق مع منظمات وجماعات تسعى لنشر الفوضى والخراب في بلدتك، القيم والمبادئ في الشرق الأوسط تتلون وتتغير مع تغير الأنظمة والأفكار، الوقوف ضد التيار أيًا كان اختلافك معه قد يدفعك للقتل أو للاعتقال، وفي عالم لا يحب الاستماع إلا لأصوات البنادق والدبابات وصراخ الأمهات وبكاء الأطفال يصبح تجنب المشاركة ولو بإبداء رأيٍ واحد هو الحل الأمثل والأسلم من بطش الأنظمة ومؤيديهم وإعلامهم الفج الذي يجيد المدح والتبرير دائمًا حتى في أشد المواقف التي لا تستدعي سوى إعلان حالة حداد أو الصمت أو معاقبة الجناة الحقيقيين. المؤسف

أيضًا أن الجرائم النفسية التي لم تهتم بها منظمات حقوق الإنسان ولم يهتم بها الإعلاميين ورجال السياسة، ربما كانت أشد أذى من الجرائم والانتهاكات السياسية والعرقية، كانت صدمتي الحقيقية في تقارير بعض مستشفيات الصحة النفسية وعلاج الإدمان التي أوضحت ارتفاع عدد مرضى الاكتئاب من فئة الشباب بعد الأحداث الأخيرة، هذه الإحصائيات والتقارير التي اختصرت معنى أن تتعلق بأمل التغيير ثم يصدمك الواقع بعجزه عن تقبل أفكارك واستيعاب أحلامك، وفي وقتٍ ما كنت أومن كل الإيمان أن الثورات العربية لم تقم إلا لحسن نية شباب أرادوا الحياة بشكل أفضل ومن منا لم يأمل بحياةٍ أفضل من تلك التي تحطمنا وتدفعنا لليأس والتعب.

بعيدًا عن كل هذا تجنبت الحديث مع يونس عما يحدث في الشرق الأوسط الأحزن والأشد ظلمًا وكبتًا للحريات، عاد رأسي مشغولًا بما ينتظرني اليوم، أقصد بما أنتظره.

مر الوقت بين خفاقات قلبي وبطء عقارب الساعة التي كانت تتحرك بهدوء مبالغ فيه، وكأنها تتعمد جلد قلبي بالوقت، كل السيناريوهات تتصارع في رأسي، كاذبًا أتظاهر أنني لا أفكر ولا أكترث للعودة، أعرف ذاك الكبرياء الذي يمنعك من الاعتراف أمام الناس برغبتك في نهاية الفراق والعودة من جديد إلى نقطة اللقاء الأولى، ذاك الكبرياء الذي ربما لا يصدقه إلا الشخص الوحيد الذي تريده أن لا يصدقه، الكبرياء الذي يدفعك للكذب طوال الوقت حتى في أبسط الأشياء، تجاهد من أجل إخفاء حقيقة حنينك واشتياقك، حين تتعثر بذكرى أمام أحد تجاهد من أجل إخفاء نظرات الحنين، حين تسمع اسمه أمامك صدفة

تقاوم من أجل أن لا تبتسم أن لا تبكي، وحين تسمع عنه خبر عابر تخفي حزنك بأنك أصبحت تعرف أخباره وتفاصيل حياته صدفة بعدما كان عالمك الوحيد، تضرب على قلبك بيدك وتهمس سرًا في الزحام **«أرجوك لا تشتاق»**، تعذب قلبك وتعنفه، تقرر أن تكتب شهادة وفاة له وكأنك لم تكتفِ بوفاته بعد الخذلان والفراق.

للحنين فلسفة في غاية التعقيد والحزن، الحنين يعني أنك مستعد للتضحية بكل شيء من أجل العودة، وصمة الحزن في روحك تلك التي تتفاقم بداخلك حتى تبلعك أنت سرًا في الخفاء، السم الذي يتسلل في روحك حتى يفسده تمامًا، المؤسف أنني كنت أعرف جيدًا أن الحنين لها لن يجعلني أخطو خطوة واحدة للأمام مهما تظاهرت أنني أتقدم خطوات كبيرة في حياتي العلمية والعملية، كان هذا قناع هش يتساقط كلما مرت من جديد على حياتي، أنا لا أكذب حين قلت أنها دائمًا نقطة البداية والنهاية، الحياة الهادئة والموت الجميل، كيف لا أحن لفتاة استطاعت أن تمحي كل آثار الحياة التعيسة في عالمي؟!، كيف أرفض شعور الحنين إلى مَن استطاعت أن تراقص أوتار حزني حتى خلعت عنه ثيابه السوداء وجعلته يرتدي الأحمر لون السعادة والحب بعدما كنت لا أستطيع التنفس دون ألم؟! كيف لا أحن لفتاة أعادتني لطفولتي تلك التي التهمها الحزن والوجع؟

كنت أسأل نفسي لماذا دائمًا هي؟! ليست أجملهن، ليست ألطفهن، وثمة نساء أنت تعرف أنهن يحببنك عنها، لماذا دائمًا هي؟ لماذا دائمًا ومهما غدوتَ وعاشرت قلوب النساء يبقى لقلبك عذريته في حبك لها؟ لماذا دائمًا هي؟!

ثم أسخر من سؤالي وأقول لنفسي:

لأنها لم تكن يومًا إلا هي، أقصد أنها لم تحتج أكثر من طبيعتها لأُجن بها، لم تكن صورة مزيفة مثل الأخريات، كانت هي دائمًا بضحكتها الطفولية وطريقتها البريئة في التعبير عن مشاعرها، ففي لحظات سعادتها -وهي تلك التي تجاوزت العشرين- تشعر وكأنها فتاة في العاشرة، ترقص وتبتهج كما لو أنها تريد أن يضحك ويرقص العالم معها، وفي حزنها تعود أكثر طفولة، تعود لغرفتها وتنطوي ثم تبكي كالأطفال ورغم كثرة الذين حولها لم تبكِ يومًا أمام أحد، كانت ترفض إحساس الشفقة من أي شخص، هي تشبه الإسكندرية؛ مهما غدونا وذهبنا لأماكن ربما أكثر فخامة وجمالًا منها يبقى للإسكندرية سحر خاص، كذلك هي، ربما هناك من هنَّ أجمل منها، لكن وبالنسبة لي لم ولن أرى في حياتي أجمل منها، لأن جمالها يسكن القلب قبل العين، تستطيع بابتسامتها محو كل آثار الوجع من قلبي، تمامًا كما يمحِ الموج آثار الأقدام على الشاطئ، لأنها تشبه الأم، مهما التقيت بنساءٍ يبقى الأمان والدفء بين ذراعيها، لأنها وبكل بساطة الفتاة التي لم تتجمل إلا لنفسها، لم تنافق أحدًا، لم تخادع أحدًا، حتى في لحظات غضبها لا تستطيع تحمل طفلًا يبكي أمامها.

أي مجنون هذا الذي يفكر في الارتباط بعد فتاة كانت بمثابة الوطن، والأهل، والأصدقاء، والعالم؟!

يمكنني الارتباط بأي فتاة، لكن كيف يمكنني تعويض ارتباطي بالعالم؟ ولقد كانت هي دائمًا العالم.

ومن بين عالمي الذي انتهى منذ زمن بعيد بطفولته وصدقه وسذاجته وأحلامه الطفولية الطائشة، وعالم آخر يفرض علينا القوة والثبات والتفكير قبل النطق بكلمة واحدة، عالم الدبلوماسية والنضج والمظاهر الخارجية اتجهت إلى مقهى ريفولي.

على غير العادة كانت شوارع الإسكندرية مزدحمة وكأن العالم اتفق على أن يعطل لقائنا المنتظر، بعد الغياب كيف سيكون اللقاء؟

لم أعد أنا ذاك الشاب الذي عرفته وأحبته، لم تعد ابتسامتي التي وقعت في غرامها، أصبحت باردة عادية تقليدية للحد الذي قد يجعلها لن تفرق بينها وبين ملامحي وهي صامتة وثابتة، تغيرت مصطلحات الكلمات ونطقها وحتى طريقة التعبير عن الحب والسعادة، أصبحت أكثر هدوءًا واتزانًا، كنت أتساءل هل سيعجبها هذا التغيير الذي حدث في شخصيتي، في ملابسي، في حياتي؟!

أحاول فك الألغاز، أقول لنفسي:

«ولِمَ لا؟ بالطبع ستحب هذا التغيير، فلو أحبت الشخص الأول بفوضاه وعبثه وتلعثم الكلمات بداخله لما تركته أبدًا»

ثم أبتسم، فأنا أعرف أنها أحبتني بصدق أكثر من تلك السطحية التي أحاول بها تبرير غيابها الطويل الذي حدث فجأة.

وأنت في شوارع الإسكندرية بإمكانك أن تقرأ مئات القصص الغرامية، حيث في كل شارع ذكرى وأثر للعشاق. البحر هو إله الحب الذي يستمع لمئات القصص دون أن ينطق كلمة، قد يتعاطف معك أحيانًا، وقد يقسو عليك، لكنه دائمًا ينتظرك. شارع فؤاد بمعماره الفريد من نوعه، لطالما كان نزهة للعشاق الواهين في الغرام، وحده

هذا الشارع يعرف الكثير عن القصص الغرامية التي لم تكتمل، هنا حيث اللقاء الممزوج بأمنيات البقاء الأبدي، والفراق الذي حدث عمدًا أو فجأة.

كلما اقتربت من (**ريفولي**) شعرت بضربات قلبي وهي تتصارع، اللهفة والاشتياق والكثير من التساؤلات التي لا إجابة لها.

يقطع صمتي صوت الراديو: «**كل دا كان ليه؟**»، وأعيد وأتساءل، متى حدث كل هذا؟، لم نكن مجرد عشاق، كنا معًا في لحظات عربدتنا وإيماننا، قضينا معًا أوقاتًا لا تُنسى من الحزن والحب والسعادة والآلام، لم نكن مجرد عشاق؛ كنا أشبه بمقطوعة موسيقية بين القانون بأوتاره المشدودة والبيانو بألحانه الهادئة العذبة، أردت حقًا أن ينتهي العالم ولنكتفي ببعضنا البعض، تمنيت لو كانت قصتنا هي الوحيدة التي اكتملت حتى النهاية ضد واقع يقص كل أجنحة التحليق نحو السعادة والحرية ويجبرك على الخضوع لقفص الفراق، تمنيت الكثير والكثير، وفي واقعنا ليست للأمنيات حق الظهور والتحقق، نحن هنا في ظلامنا نتخيل فقط الحياة السعيدة ويصدمنا الواقع بحياةٍ لا تناسبنا لكننا مجبرون عليها.

لو كان بإمكاني لأنهيت حياتي بعد فراقنا، نعم حاولت كثيرًا لكنني كنت أفشل، أو أتعمد الفشل لعلها تعود، الأمل الذي لطالما تشبثت به سرًا، أقصد الذي يقتلني سرًا.

وصلت المقهى، ما زال المقهى يحتفظ برونقه وأثاثه الفريد، السقف العالي والجدران المتهالكة ورائحة القهوة الممزوجة بدخان الأريجة، صور لنجيب الريحاني ورشدي أباظة وأم كلثوم وأنور وجدي

وليلى مراد، هناك لوحات قديمة لبيكاسو وفينسنت فان جوخ، صور قديمة لبعض الصيادين والسفن، وفي الركن البعيد وتحت الإضاءة الصفراء الخافتة بيانو متهالك لطالما تمنى العزف عليه أشهر فناني مدينة الإسكندرية.

رغمًا عني اتجهت إلى الطاولة المفضلة لكلينا التي تكشف مساحة كبيرة من بحر الإسكندرية العظيم، هذه الطاولة والتي شهدت على الكثير من تفاصيل علاقتنا، هنا كنا نضحك ونغني وبين الممرات الفاصلة للطاولات كنا نتراقص وكأننا وحدنا في العالم.

لم يستقبلني أحد، لم يكن هناك أحد من الأساس، كان الأمر غريبًا بالنسبة لي، أشعلت سيجارتي منتظرًا مجيء آسيا، كعادتها لن تصل في الميعاد المحدد، وعلى غير العادة أصل أنا في الميعاد المتفق عليه؛ الوحيدة التي لا أستطيع التأخر عليها رغم أن أسباب تأخري مرتبطة بأسباب عملية من الدرجة الأولى، لكنها كانت دائمًا الاستثناء حتى من اضطراباتي النفسية.

لم أتصل بها، كنت أفكر فيما سيحدث، ربما كنت أحتاج لوقتٍ أطول لاستعادة نفسي أو لترتيب أفكاري.

مر الوقت بقسوته، بدأ الزبائن بالتوافد على المكان، كنت أعطي ظهري لهم خوفًا من مقابلات الإعجاب والتصوير التي حتمًا ستفسد مجرى حديثي مع آسيا.

بعد ساعة سحبتُ الكرسي ثم جلست في هدوءٍ تام، التوتر الذي شعرتُ به وقتها لم أشعر به طوال حياتي، لم تنطق كلمة واحدة فقط أرادت النظر لعيني في صمت، في الوقت الذي كنت أتأمل أنا كل

تفاصيلها، كانت ترتدي فستانها الوردي الطويل الذي أحبه عليها دائمًا، ملامحها أصبحت أكثر حدة، لم تعد بتلك البراءة التي كانت تميزها، لكن حتى في حدتها كانت مختلفة، الحدة التي تجعلك تتأملها كما لو أنها إحدى لوحات بيكاسو، ضحكتها هادئة تبتسم فتجبر كل شيء حولها على الابتسام، ما زالت تستطيع الخوض بعينيها في أعماقي، ما زالت تجيد فهم ما لم أستطع النطق به.

ثم ساد بيننا صمت، كلانا يبحث عن شيء في عين الآخر، أنا أبحث عن مفهوم آخر للجمال، أما عنها...

قطعت الصمت بتنهداتها التي بعدها تنطلق منها الكلمات إما الجميلة التي تداوي كل الأوجاع التي حدثت بسبب صمتها، إما أن تطلق عليك رصاصة جديدة في قلبك:

- كيف حالك؟. لستَ على ما يرام، لكنك كعادتك ستقول «**أنا بخير**». لم تتغير، ما زلت تجيد الكذب، وما زلت أضحك من طريقتك المعتادة في خداعي.

ابتسمت لها:

- لكنني بخير.

تعمقت في نظرتها أكثر، كأنها تحب أن تعري وشاح الكذب الذي أرتدي أمامها دائمًا فواصلت:

- كيف حال النساء معك؟ سمعت أنك تفكر في الزواج من إحداهن؟

رددت:

ـ هراء، لقد اعتزلت طرق الهوى بعد غيابك عني، أقصد أن هذا ليس صحيحًا أبدًا.

ابتسمت من جديد ثم قالت:

ـ لم أقل أنك أحببت فتاة أخرى. داوود أنا أعرف جيدًا أنك لن تحب فتاة أخرى كما أحببتني، أعرف أن ثمة عابرات مررن على حياتك لكنهن لم يقتربن من قلبك، حاولت كثيرًا تجاوزي واعتبار ما حدث مجرد علاقة عابرة مرت على حياتك لكنك فشلت وستفشل للأبد، لقلبك ملكة أبدية كما قلت لك «**أنا ملكة قلبك التي لن تترك العرش مهما حدث حتى لو تركت حياتك**».

وهي تتأكد من صدق كلماتها في عيني بدلالها المعتاد واصلت:

ـ أعرف أنني مُلهمتك وفتاتك الأولى، الفتاة التي قدمت لها وأعطيت لها كل شيء. لا أغار من كثرة النساء، إن امرأة مثلي تعرف كيف تستوطن قلبك استيطانًا أبديًا، مهما حاولت التظاهر بالنسيان يا داوود أنت تعرف أنك ستعود جاثيًا على ركبتيك أملًا في العودة، تحبني أنت للحد الذي يجعل هذه الكلمات تملؤك بالحب دون أن تمس كبرياءك، في الوقت نفسه أنت لا تعرف معنى أن أكون مستوعبة لكل هذا ومع ذلك لا نجتمع، لا نقضي حياتنا معًا. لست مغرورة يا داوود ولست متعالية لكنني أحب نظرتك الجميلة عني، أحب تلك النظرة التي لا تتغير مهما تغيرت أنت.

الهزيمة أن تتعرى مشاعرك أمام الشخص الذي تحبه، ثم يبخل عليك بالدفء.

رددتُ بانهزامية شديدة:

- تعرفين أنني أحبك، وأعرف أنكِ لا تحبينني، وما بينهما لا أستطيع انتزاعك من قلبي.

صمتها الطويل الذي يجعلني أفكر وأتوتر أكثر فيما ستنطق، قالت بكبرياء مصطنع:

- أنت لا ترى الصورة الكاملة، لا تصدق أحدًا إلا داوود الحسيني. لقد كنت على وشك الزواج يا داوود، لكنني وفي اللحظات الأخيرة أنهيت كل شيء، سافرت معه إلى باريس، روما، اسطنبول، كندا، لكن لقاءنا معًا والجلوس على أرصفة الإسكندرية كان أجمل عندي من كل هذه الأماكن يا داوود، لقد كنت معك الطفلة التي تمنيت ألا تكبر أبدًا، لقد كنت تلقائية معك، طفلة تملك العالم ويملكها الحب، قضيت أيامًا لا يمكن نسيانها بسهولة؛ كانت الحياة أكثر بساطة معك، لم أحمل همًا، لم أفكر فيما سيحدث مستقبلًا، كنت أقضي كل أيامي معك كما لو أنها الأولى، لولا غباءك لظلت تلك الأيام مستمرة حتى هذه اللحظة. لقد أحببتك يا داوود، أنت رجلي الأول، حلمي الأول، أول من داعب أناملي، أول معنى لأن تنتهي أثقال الدنيا بين ذراعين، أول من عرفت معه معنى الغيرة، حب التملك والرغبة في بقائه طوال الوقت. الأشياء ليست كما تبدو يا داوود؛ المرأة لا تنسى حبها

الأول، المرأة لا تنسى بطلها الأول، ولقد كنت دائمًا بطلي الأوحد، وعدم موافقتي على العودة لا يعني أنني أرفضك، ثمة أشياء لتبقى جميلة علينا تقبُل أن تكون بعيدة، والحب ليس سببًا كافيًا للبقاء يا داوود، بيننا كل الحب الذي أحبه عشاق العالم، وبيننا كل قسوة المنهزمين منه، ولهذا عودتنا مستحيلة، لقد كتب علينا أن نبقى هكذا عالقين بين فراقنا ولقائنا، في سماء لا نهاية لها وأرض لا نراها، كطائر يقتله البرد على قمة (إيفرست)، منهك وأجنحته مقصوصة لا يستطيع الطيران والهروب من هذا الصقيع، وأقدامه متهالكة لن يستطيع تحمل عبء وقسوة الهبوط، يقتله البرد فقط في سلام أو عجز، لا يهم، المهم أنه لن يتحرك، بل سيدفعه الهواء البارد إلى اللا شيء، وهكذا نحن يا داوود، لن نفترق لكننا لن نجتمع أبدًا.

كانت كلماتها أشد من صمتها، هي الكلمات التي تجعلك في حيرة ما بين مواصلة التشبث بالأمل المهترئ وبين وضع حد لكل هذا. قررت أخيرًا الرد عليها، لكن لم تخرج الكلمات من صدري، كانت أصعب من الخروج، تأبى الاعتراف أنني سُحقت، لم أستطع تمالك أعصابي، الواقع والأحلام والحب هناك يسخرون من كل شيء، كاد قلبي ينفجر من قسوة ما أشعر به، حاولت التمالك والسيطرة على نفسي، لكن كلها مهام أمام هذه الكلمات تحتاج لشخص آخر، شخص لا ينام كل يوم على أمل أن يستيقظ وهي نائمة بجواره، شخص لا يتخيل وجودها في وحدته، لا يخلق من ذكرياتها كتفًا يستند إليه، كانت تحتاج لشخصٍ

آخر لا يدعو الله كل يوم أن يجمعه بها، شخص لا يراها أجمل نساء الأرض، لا يحفظ تفاصيل ملامحها، لا يميز نبرات صوتها، لا يكتب عن ضحكاتها المختلفة، لا يتجمل حتى في ملامحها وهي حزينة ومتعبة، شخص لا يتذكرها في انتصاراته، هزائمه وحزنه، ولا يفسد غيابها لحظات سعادته. الثبات أمامها كان يحتاج لشخص لا يحب، أقصد لا يتيَّم بها.

قلت لها بعد صراع طويل مع التفكير:

- نحتاج إلى الوقت، لربما يقوم هو بإصلاح ما أفسدته الحياة..

قالت:

- لربما نحتاج لحياة جديدة، لو قدر لنا الحياة مرة أخرى عندها لن نفترق أبدًا، لن نفترق مهما حدث، ولأن هذا لن يحدث سنبقى هكذا، قصتنا الجميلة لن تكون إلا مجرد نجمة بعيدة نتذكرها ونحِنُّ إليها، لكننا لن نمتلكها أبدًا، للأبد. أردتُ أن نلتقي فقط لأخبرك أنني أشتاق لهذه النجمة مهما كانت بعيدة، أحتاج كل فترة للاطمئنان أنها ما زالت تتذكرني، وما زالت تنتمي لسمائي وعالمي البسيط. واصل نجاحك وحياتك يا داوود؛ إنني أشعر بالفخر كلما سمعت اسمك، أقول سرًا هذا ابني وأبي وصديقي، وأمام الناس أتظاهر أنني لا أعرفك، أو أنك لست الممثل المفضل عندي. واصل نجاحك يا داوود؛ إنني أعرف كم عذبتك الحياة لتصبح هذا الذي وصلت إليه، وليتك تعلم كم يعذبني أن أتجاهلك أمام

الناس وقلبي هنا يحفظ أدق تفاصيلك، لا تعرف شقاء امرأة تكذب طوال الوقت أمام الرجل الوحيد الذي أحبته.

نهضت من مكانها بعد أن ابتسمت بهدوء:

ـ أسعدني لقائي بك، إلى اللقاء.

كما تخرج الروح من الجسد، بجسد ثابت وصراع داخلي يحطمك قبل أن ينتهي كل شيء، خرجت آسيا من المقهى، تابعتها بالنظرات حتى اختفت تمامًا.

لم أكن مستعدًا لمقابلة أي شخص، كنت أريد البكاء، الصراخ، كنت أريد أن أعبر عما أشعر به بأي طريقة ممكنة، الوقت لم يكن يسمح إلا لمواصلة الثبات والاستعداد للحفل المسائي، كنت في حاجة للخروج من المكان والعودة إلى المنزل ومن ثم الانطلاق من هناك، لكن أقدامي كانت أضعف من هذه الرغبة القوية، كانت تريد أن تستريح، تستريح فقط، فلقد أنهكتها الطرق، كل الطرق التي سلكتها مجبرًا عليها من أجل ألا أظهر ضعيفًا، أن لا يشمت بي أحد، والآن لربما حانت لحظة الانهيار، فلقد ركضت في هذه الطرق من أجل العودة لكنني اكتشفت أنني أركض خلف اللا شيء.

قاطعني صوت حليم الذي على ما يبدو أنه قد بدأ منذ لقائنا في الغناء لكنني لم ألاحظ إلا بعد أن خرجت وانتهى اللقاء.

«وسترجع يومًا يا ولدي مهزومًا مكسور الوجدان.. وستعرف بعد رحيل العمر بأنك كنت تطارد خيط دخان.. فحبيبة قلبك ليس لها أرض أو وطن أو عنوان.. ما أصعب أن تهوى امرأة يا ولدي ليس لها عنوان!».

ابتسمتُ، فلقد اتفقت الصدفة والقدر على أن يحطماني بمزيد من الخيبات.

نهضت من مكاني، أغلقت الهاتف وعدت إلى القاهرة، عدت وكلمات حليم لا تفارق أذني، كل الطرق التي لا تؤدي إلى آسيا لا تؤدي إلى روما، كل المدن التي لم تجمعني بها كئيبة، وباريس ما دامت لم تجمعنا فهي لا تعرف الحب. عدت مهزومًا من الإسكندرية، فبعد سنين الكفاح اكتشفت أنني لم أتقدم خطوة واحدة للأمام، وبعد نهاية لقائي بها شعرت بسكرات الفقد الأولى التي شعرت بها قبل ست سنوات، سقط قناع الثبات واعترفت أمام نفسي أنني لم ولن أنسى ما حدث، وأنني كنت متشبثًا بالأمل رغم هزالته.

صعدت إلى المنزل وافترست كل المنومات والمسكنات، حتى الأدوية الممنوعة عليّ تناولتها بإفراط، لم أرحم نفسي، وسقطت في نومٍ عميق وأنا أرجو الله ألا أستيقظ أبدًا.

«أنا هنا بجوارك، إن ضاقت بك الدنيا ولم يتبقَ مكان واحد يتسع لك سأكون في انتظارك، إن شعرتِ بثقل الكلمات في روحك سأكون أول من يفهم تعثر كلماتك، وإن كان البكاء هو الحل فأنا أحب مشاركتك لحظات بكائك وانهيارك. الصمت سلاحك ضد المأساة، ولطالما أحببت أن أشاركك الصمت الطويل، الموسيقى الحزينة هي المفضلة عندي كما هي مفضلة عندك، ولنتبادل الروايات لتكن فرصة رائعة للقاءٍ آخر، أحب الأشياء التي تخجلين مشاركة أحد لها، ألوانك المفضلة، الأفلام التي تنتظرينها، شغفك بالحيوانات، والأماكن التي

تحبين زيارتها هي نفس التي أحب الذهاب إليها بعيدًا عن الناس. قد أبدو لكِ شخصًا سريع الملل، لكنني لا أمل أبدًا سماع تفاصيل يومك، أشعر وقتها أنني أداعب الحظ والجمال، يكفي عندي أن أسمع صوتك مهما كانت غرابة أحاديثك، يكفي أن أشاركك تفاصيل يومك. أحب مزاجيتك، وأعرف أن من الصعب على أحد تقبلها، لكنني مزاجي مثلك، فجأة أشعر وكأنني أملك الحياة بما فيها، وفجأة أشعر وكأنني مدفون في باطن الأرض، سأكون أيضًا خير من يتحمل تلك المزاجية التي تزعجك، أحب دلالك الطفولي وأعشق مناقشتنا العقلانية، ومُتيم بدندنة أغانيك المفضلة، أحب لحظات جنونك وشغفك وأميل أيضًا للجلوس والتأمل في السماء نحو اللا شيء. أنا هنا لأنكِ هنا في قلبي، حتى إن اختلفت الطرق وأصبح لكل منا عالمه الخاص وانقطع الوصل، إن ضاقت بكِ الحياة سأكون دائمًا في انتظارك، عالمي البسيط يتسع لك.»

وفي اللحظة الأخيرة ضغطت على زر الحذف بعد أن كتبتها في مذكراتي واحتفظت بها، ثم قررت ألا أرسلها لـ آسيا.

إنني أعرف جيدًا تلك الرسائل التي تكتبها حبًا وشغفًا، ثم تكتشف أنه ليس بإمكانك إرسالها، لأن الواقع يجبرك على الصمت، أقصد الكبرياء ورفض أنك ورغم الفراق ما زلت تشتاق وتحِن وتنتظر.

كانت المأساة أنني ما زلت أنتظرها، أنتظرها رغم مرور عام آخر على لقائي الأخير بها في مقهى (**ريفولي**).

جلست على مكتبي أفكر فيما يحدث في حياتي، كم هذه الأضواء التي لم تستطع اقتحام قلبي وعتمته، يونس ذاك الذي تحمل ويتحمل

نوبات حزني وجنوني واكتئابي، حياتي العملية التي تتأثر بمزاجيتي واكتئابي، النساء اللوات في حياتي، لقد تجرأت أكثر وأصبحت أمارس الجنس بشكل أسبوعي مع العابرات من حياتي، أنا الذي كنت أخجل من النظر في عيون النساء كيف أصبحت بهذه الجرأة التي تجعلني أمارس الجنس بشكل أسبوعي للهروب من نفق الفقد المظلم؟!

كنت أعرف أنني أركض في أكثر الطرق صعوبة وتعاسة، ليس كل امرأة يمكن نسيانها بامرأة أخرى، لكنني حاولت. شخص مثلي كان يعرف تمامًا أنها ليست الطريقة الصحيحة أبدًا، لكن وأنت على وشك الغرق قد تتحول قطرات المياه المتجمدة إلى طوق نجاتك الوحيد، ولقد تشبثت بكل شيء من أجل النسيان، لكنني اكتشفت أنني كنت أتذكرها وأحِن إليها بعد النهوض من الفراش.

الأحداث في حياتي سريعة، وعقلي يفكر طوال الوقت فيما سيحدث مستقبلًا، أما قلبي فيرفض الفكرة من الأساس. إنه الصراع الأبدي بين القلب والعقل، الحنين والكبرياء، الواقع والخيال، الصبر والانتظار!

ومن بين حبل أفكاري جاء دور الشاعر العظيم (**محمود درويش**) ليكمل الصراع في رأسي وهو يقول:

«انتظرها، تحدث إليها كما يتحدث ناي إلى وترٍ خائف في الكمان، كأنكما شاهدان على ما يعد غدًا لكما.

انتظرها، ولمِّع لها ليلتها خاتم، وانتظرها إلى أن يقول لك الليل: لم يبقَ غيركما في الوجود فخذها إلى موتك المشتهى.»

فأردد بنبرات أسى وحزن:

وما زلت أنتظرها يا درويش، بعد كل هذه السنوات القاسية التي مرت على قلبي، بعد ليالٍ عجاف والأسى ما زلت أنتظرها، أنتظر لحظة عودتها كطفل يجلس على قبر أمه ينتظر عودتها، ما زلت أنتظرها. لقد اكتشفت يا صديقي أنني أجيد الصبر والانتظار رغم أنه يؤلمني، فالآلام التي تسلخ قلبي لا تمنع انتظاري لها، وكأنها الجنة تلك التي تجعلنا نتحمل قسوة الحياة وخالبها.

أنتظرها رغم قسوة أيامي وهشاشتي النفسية، أجلس مكتوف الأيدي لعل القدر يشاء فرصة أخرى للحياة، وكيف لا أنتظرها وهي التي جعلت مني رجلًا يعرف معنى الرجولة والشهامة، علمتني أبجديات الحياة، كنت كطفل أعمى عاد الضوء في عينيه فكانت هي دليله وعالمه، الونس الذي كنت أعيشه في وجودها يهوّن من قسوة الوحدة التي عانيت منها في غيابها، إنها امرأة تعرف كيف تملأ حياتك، تعرف كيف تشاركك أنفاسك، خطواتك، لحظات صمتك وجنونك، تعزف على أوتار حزنك حتى تجعلك تبكي ثم تعانقك بدفئها فتتمنى لو أنك قضيت عمرك تبكي حتى تعانقك طوال عمرك. كم كانت مؤسفة هذه النهاية التي حدثت، والتي ما زلت لا أتقبلها رغم كل شيء.

قاطعني يونس وأنقذني من عالم الذكريات ومأساة الحنين التي تجعلني أغوص أكثر في الحزن:

ـ حان موعد لقائك بمدكور التهامي.

باستنكار سألته:

ـ مدكور التهامي!

رد:

ـ المنتج الذي التقينا به صدفة مرة أخرى قبل شهر وحدد موعدًا لمقابلتك!

استجمعت أفكاري ثم قلت:

ـ نعم، نعم تذكرته، هذا الرجل غريب الأطوار الذي التقينا به في العرض السينمائي قبل عامين!

هز رأسه ثم اتجه لباب الغرفة وهو يسألني:

ـ مستعد للقاء؟

قلت له بثقة يعرفها:

ـ أنا دائمًا مستعد.

مدكور التهامي، لطالما كان يشغل رأسي هذا الرجل رغم أنني لم ألتقِ به سوى دقائق معدودة، لكن اختفاءه الطويل كان سببًا في فضولي أكثر، خصوصًا أنني لم أفي بالعهد وسألت عنه الكثيرين من الوسط الفني وبحثت عنه على مواقع التواصل الاجتماعي لكنني لم أجد أي شيء يذكر عنه، حتى اللقاء الأخير كان في مهرجان الدار البيضاء، التقيت به في ساحة كبار الزوار، كان يتجه للخروج من الأساس، لم يستمر اللقاء أكثر من دقائق، سألني عن حالي بهدوء ثم قال:

ـ لنا لقاء بعد شهر من الآن.

لم يحدد مكان اللقاء، انصرف بهدوء قبل أن أسأله، واستمر هذا الوضع حتى أول أمس بعدما اتصل بي من رقم مجهول بكلماته المحدودة قال:

- ستكون سيارتي في انتظارك بعد غد في الخامسة عصرًا لا تتأخر. وداعًا.

غرابة الموقف كانت حافزًا أكثر للقاء، سألني وقتها يونس عن سبب اللقاء وعدم إخباري به ونحن هناك في الدار البيضاء، لم أكن أملك إجابة صريحة وواضحة، فابتلع كذبتي وانتهى الأمر.

ارتديت ملابسي ثم خرجت من الغرفة، كان يونس يستعد أيضًا للخروج، بلا مبالاة شديدة سألني يونس:

- متى سينتهي الاجتماع؟

قلت وأنا أضع اللمسات الأخيرة على ملابسي:

- لا أعرف، لكنني على أمل أن ينتهي سريعًا.

اقتربت من الباب وهو يلاحقني بكلماته:

- أرجو أن لا تنسى حفل المساء.

هبطت إلى الشارع، كانت السيارة تقف أمام مدخل العقار، سوداء من طراز مرسيدس، زجاج عاتم، في الباب الخلفي ركبت ثم انطلقت السيارة، كان السائق صارم الوجه، سألته عن وجهتنا فرد بكلمات معدودة:

- إلى مكتب السيد مذكور التهامي.

من الطريق الدائري إلى حي التجمع الخامس. الملل والأفكار أهم الأشياء التي ترافقني الطرق الطويلة، لم يستغرق الوقت سوى نصف ساعة حتى وصلنا إلى هناك، (**شارع التسعين**) قصر مذكور التهامي.

وقفت السيارة أمام بوابة القصر، كان هناك شخص آخر ينتظرني، رحب بي بهدوء ثم تبعته ونحن نسلك الحديقة، مساحات خضراء شاسعة، أشجار المانجو، كرسي متحرك وطاولة صغيرة، مسبح كبير، بيانو، وهناك يبدو أنه مقر لفنانٍ بلوحات بسيطة، والهدوء يسيطر على المكان، من الداخل كان المكان أكثر هدوءًا، لا يوجد أكثر من شاشة العرض، صالون قديم، ولوحات معلقة لأشهر فناني الرسم، جدران القصر الداخلية عتيقة، بعض النقوش التي تشبه نقوش الكنائس، الزجاج الملون يعكس ضوء الشمس في تناغم رائع مع مقطوعة أعرفها للملحن (موتسارت)، الهدوء هو السمة المشتركة والرئيسية في المكان.

انصرف الرجل بعدما وصلنا إلى مكتب مذكور التهامي، الأجواء في المكتب لا تختلف كثيرًا عن الهدوء والأصالة اللذان يغلبان على القصر بشكلٍ عام، كان هناك على المكتب يجلس مذكور التهامي، بقميص أسود وربطة عنق فضية وشاربه الكبير نوعًا ما، وبابتسامه هادئة رحب بي الرجل الخمسيني.

ساد صمت طويل قطعه أحد العمال في القصر جاء بطاولة صغيرة عليها زجاجات النبيذ والثلج وبعض الفواكه، صب العامل كأسين لنا دون أن يلتفت له مذكور الذي كان يتصفح حاسوبه الصغير، انصرف العامل وعاد الصمت الطويل بيني وبين مذكور، حتى قطعه سؤاله:

ـ عامان، فترة كافية للبحث عني!

قلت له وأنا أتأمل المكان:

ـ الأمر ليس كذلك؛ ظننت أنه لقاء عابر.

بملامح جامدة رد:

ـ لا توجد في الحياة لقاءات عابرة، كل دقيقة تمر علينا لها حسابات في عالم آخر، عقلك الباطن يسجل كل شيء، حتى الأشياء التي لا تلتَفت إليها بشكلٍ كافٍ تبقى عالقة في ذهنك حتى تستحضرها الصدفة من جديد، ومن هنا يتجدد اللقاء.

لم أعتد مثل هذه الردود، فلقد قضيت وقتًا طويلًا أتعامل مع السطحيين السُذَّج الذين لا يجيدون إلا كلمات النفاق والمجاملة الروتينية المعتادة، لذلك اجتاح صدري شيء من الرهبة فالتزمتُ الصمت.

واصل مذكور الذي كان ينظر إليّ كما لو كان يتأملني:

ـ بالطبع الكثير من الأسئلة تراود ذهنك، أنا أملك كل الإجابات عن ما يدور برأسك، لكن لندع الوقت يجيب عن كل الأسئلة.

قاطعته:

ـ سيد مذكور، لماذا طلبت لقائي؟

رد بهدوء معتاد:

ـ لنتفق على عمل مشترك بيننا.

شعرت بشيء من الاستخفاف والسخافة بوجودي، فدافعت عن نفسي بعدوانية:

ـ لدي عقد مع شركة (**الماسة**) يمكنك التفاوض معهم!

بعد أن شرب الكأس الأول رد:

ـ لكن العمل ليس سينمائيًا، العمل إنساني.

رددت بحزم:

ـ ماذا تقصد بالضبط؟!

أشعل غليونه ثم قال:

ـ إنني أريد كتابة قصة فيلم مختلفة، فيلم لن يذاع في السينمات إلا بعد عمر مديد، أريدك أن تكتب ما يحدث وما سيحدث في حياتك.

رددت:

ـ حياتي! أنا حياتي لا تستحق الكتابة عنها، حياتي هادئة جدًا، لربما تقصد حياتك أنت!

بثقة قال:

ـ أنت جزء مهم في حياتي.

قاطعته:

ـ لقد أسأت الاختيار؛ أنا مجرد ممثل بارع يمكنني تقمص العديد من الشخصيات لكنني لست بكاتب!

نهض من كرسيه متحركًا في أركان الغرفة:

ـ كما قلت لك في البداية أنني أملك كل إجابات الأسئلة التي تدور في رأسك، لكنك تملك الإجابة عن السؤال الوحيد الذي لم أستطع الإجابة عنه، لربما الإجابة عن هذا السؤال قد تكون سببًا في مواصلتي الحياة، أو على الأقل تحملها، ولهذا اخترتك لتكتب أنت قصة الفيلم.

قاطعته وأنا أستعد للنهوض:

ـ ما علاقة كل هذا بالفيلم؟! سيد مدكور، شرفت بلقائك.

وقف أمام الشرفة ثم قال:

ـ لكل شيء دلائل في هذه الحياة، سأعطي لك المقابل الذي تريده، حتى لو كانت آسيا.

تلصمت في مكاني ثم نظرت له:

ـ مَن تقصد بالضبط؟!

دون أن ينظر لي رد:

ـ آسيا، تلك الفتاة التي هجرتك قبل أعوام، إنني أعرف عنك ما لم تعرفه عن نفسك يا داوود. فكر بالأمر، سيكون اللقاء أسبوعيًا، الكتابة فقط حتى نهاية الفيلم، ومن ثَمَّ أعدك بعودة آسيا إليك إن أردت.

كان سؤال عن معرفته بها سخيفًا، فاضطررت للسؤال بطريقة مختلفة:

ـ وما علاقتها بهذا العقد؟!

دون أن يلتفت لي رد:

ـ ما ستكتبه هو أعظم ما أملك في حياتي، من العدل أن يكون المقابل لك بنفس درجة الاعتزاز، ولا أظن أن هناك أعز عندك من آسيا.

شيء من الانهزامية سكنني؛ عدت إلى المقعد ثم قلت له:

ـ سيد مدكور، أنا لا أجيد الكتابة!

عاد هو الآخر إلى المكتب وجلس أمامي ثم قال:

ـ لكنك تجيد الرقص مع الآلام، وهذا ما أحتاجه بالضبط. ثمة عباقرة وأدباء فشلوا في كتابة عمل واحد يلمس النفس

البشرية، وثمة هواة نجحوا في كتابة أعمال صادقة لمجرد معاناتهم الحقيقية مع الحياة، وأنت عانيت كما عانيت من الأفكار الفلسفية والوجودية، التساؤلات الدينية والكونية، ولم تسلم من الحب أيضًا. قلت لك الفيلم لن يذاع ولن يخرج إلى النور، على الأقل لن نعاصر هذه اللحظة، لكنني أحتاج لشخص صادق يعرف عن المعاناة ليكتب قصته؛ لتكتب أصدق عليك أن تتألم وتعاني أكثر، وأنا أعرف كم عانيت وتألمت من الحياة مثلي تمامًا، وهذا ما أحتاجه بالضبط يا داوود.

سادت حالة من الصمت، أفكار جديدة اخترقت عقلي، كان يتجول في أركان الغرفة كما لو أنه لا يراني، يدندن كلمات بلغة لا أفهمها ثم واصل:

- سنجتمع قريبًا، لكن أرجو أن يكون الاتفاق بيننا في غاية السرية، حتى يونس لا يجب أن يعرف شيئًا عما دار ويدور بيننا. بالطبع تسأل الآن عن الضمانات التي تجعلك توافق على هذا الاتفاق! وفّر على نفسك عناء التفكير، أنت لا تملك شيئًا لخسارته، على العكس، أنا الطرف الأضعف، فما ستكتبه سيكون بمثابة المجد الشخصي لك، لا أحتاج أن أخدعك، فقط ثق بي.

ردوده القاطعة كانت تثير بداخلي المزيد من الأسئلة التي لا إجابة لها.

واصل:

ـ بالطبع تسألني متى سنبدأ! لن نحدد وقت للبدء، لندع للقدر حق اختيار الوقت المناسب للقاء كما حدده من قبل. الآن أظن عليك الرحيل حتى لا تتأخر عن الحفل المسائي. بالمناسبة، سأعطي لك ضمانًا كافيًا على صدق كلماتي في هذا المساء، إن وافقت تأكد أن القدر سيجمعنا مرة أخرى، وإن لم توافق لن نلتقي أبدًا. أسعدني لقاؤك.

بعد ثوانٍ خرجت من المكتب، اكتشفت أن الشمس اختفت وحل الظلام ليحكم قبضته على الكون، الأضواء الزرقاء في القصر جميلة ومرعبة في آنٍ واحد، لم يتبعني أحد، الحديقة في الظلام مرعبة، ويقتل الرعب الأضواء البيضاء الخافتة عدا ركن الفنان الذي كان يغلب عليه الضوء الأحمر.

خرجت من بوابة القصر، كانت السيارة التي أتت بي تنتظرني للعودة، رأسي كان أثقل من أن تحمله أكتافي، أسندتُ رأسي المثقل بالأفكار ثم غدوت في تفكير عميق، أفكر فيما سيحدث، في يونس الذي بدأ يتغير معي تدريجيًا، مدكور التهامي بغموضه وإصراره أنني الشخص المناسب، ثم ما علاقة آسيا بكل هذا؟!

السؤال الذي جعله يتابعني ويتابع أخباري لمدة عامين، أسئلة! الأسئلة في رأسي لا تتوقف ولا تهدأ.

أعادني للواقع صوت السائق:

ـ حمدًا لله على سلامتك سيدي.

نزلتُ من السيارة، أخرجت هاتفي المحمول مندهشًا أن يونس لم يتصل بي حتى الآن، لكنني اكتشفت أنني لم أفتحه أصلًا! ما إن أعدتُ تشغيله حتى اتصل بي يونس:

ـ أنا في انتظارك، لا تتأخر.

سريعًا ارتديت ملابسي ثم اتجهت إلى الحفل المقام بإحدى البواخر على شاطئ النيل في حي الزمالك.

فور لقائي بيونس قال:

ـ وجهك أصفر يغلب عليه التعب، ماذا حدث؟!

قلت له وأنا أقابل الجميع بابتسامتي المعتادة:

ـ هذا ليس المكان المناسب للحديث عما حدث، لنستمتع بالحفل.

هنا الحفل المعتاد الترويجي لشخص ما، مثل هذه الحفلات هي عبارة عن فرض سيطرة وتباهي من منتج ثري أمام أغلب فناني ومنتجي الأفلام السينمائية، ولطالما كنت في هذه الحفلات شخصًا منبوذًا، لا أستطيع المجاملة، لا أجيد كلمات النفاق، لا أعرف كيف أمدح ثراء شخص، لكنها الرسميات اللعينة التي تجعلني مجبرًا على الحضور.

في مثل هذه البواخر أنا صديق للعمال، للراقصات، عمال المشروبات الكحولية، والمسؤولين عن تنظيم الباخرة؛ مع هؤلاء أشعر براحة أكثر في حديثي معهم، لا ينبهرون بنا، لا يلهثون خلفنا، لا ينتظرون منا سوى قضاء الوقت المحدد ومن ثَم الرحيل حتى يعودوا هم لأسرهم وحياتهم العادية التي لا تعرف سوى الالتزامات والديوان ومعصرة الحياة القاسية التي تجبرهم على الابتسام طوال الوقت

في وجوهنا من أجل الحفاظ على مصدر رزقهم الوحيد. يتحملون سخافاتنا، لا يتحملونها فقط من أجل المال، أقصد من أجل الاستمرار في تلك المعصرة التي تسلب منهم حتى حق التعبير عن الضيق أمامنا ولو بالصمت.

وقت الرقص، كانت فرصة رائعة للهروب والابتعاد عن الضجيج والصخب، خصوصًا بعدما رافق يونس إحدى الممثلات للرقصة الأشهر (**التانجو**).

اتجهت إلى البار، استقبلني عامل البار بابتسامةٍ باردة ومرسومة اعتاد عليها:

ـ لا يعجبك الحفل، أليس كذاك؟!

رد بنفس الابتسامة التي لا تتغير:

ـ أتمنى أن تقضوا ليلة رائعة معنا.

سألته:

ـ وأنت، كيف تكون ليلتك معنا؟

وهو يخرج زجاجة نبيذ من الزجاجات المرصوصة خلفه:

ـ هنا نحن نشبه الزجاجات التي أمامك، نقف طوال الوقت من أجل إرضاء السادة الضيوف، هذه مهنتنا، نحن هنا من أجلكم فقط.

أشعلت سيجارتي ثم تركته يواصل عمله.

كان الصخب لا يطاق، مثل هذه الحفلات تدفعني للجنون؛ خرجت من الصالة واتجهت إلى الشرفة الخارجية لربما أجد الهدوء الذي أبحث عنه. رأسي لا يستطع التفكير إلا فيما حدث اليوم،

الأفكار تتصارع؛ تمنيت لو أنني أستطيع خلع رأسي من جسدي. لم ينهكني الإفراط في الكحوليات، لم تفسدني المنومات والمسكنات، التفكير وحده، التفكير المتواصل يؤثر على نفسيتك، على مزاجيتك وعلى جسدك، يفقدك الرغبة في الحياة بشكلٍ عام. إن أضرار التفكير ألعن وأسوأ من أضرار التدخين والكحوليات.

الصداع يتملّك مني، لا أستطيع الهروب مني، إنني مجبر على تحمل نفسي في صمتٍ وهدوءٍ تام دون أن يشعر بي أحد. كنت مشغولًا بأفكاري وأنا أتأمل مشهد النيل البديع، دائمًا أتمنى لو كان بإمكاني القفز من مكاني والغرق في أعماقه لتنتهي المأساة.

فجأة سمعت صوتًا حولي، ظننت أنها خطوات أحد المدعوين للحفل، سريعًا استعدت شرودي مستعدًا لأحاديثهم التافهة، لكن ابتعد الصوت وظل يبتعد رويدًا رويدًا متجهًا إلى الصالة، لاحقت الصوت وكانت الصدمة...

آسيا! نعم هي آسيا!

بفستانها الوردي الذي أحبه، خفتها في المشي وشعرها الأسود المسدل على ظهرها كفرس يستعد لخوض السباق!

لم أتمالك نفسي، حاولت اللحاق بها، كانت تتجه إلى بوابة الخروج، ودون أن أكترث لأي شخص تابعتها، كانت تمشي بخطوات سريعة، واصلت ملاحقتي لها وكلما اقتربتُ منها ابتعدتْ أكثر، كأنني أسد يطارد فريسته، ولطالما كانت هي الدواء والوجبة الدسمة لقلبي. ظللت أتابعها في طرق الزمالك المظلمة، حتى وقف يونس أمامي بسيارته..

بنبرة غضب:

- تعال!

ركبت مسرعًا:

- آسيا هنا يا يونس، الحق بها، لقد اتجهت إلى الشارع الموازي، الحق بها.

واجهني يونس بصمتٍ وبرود لم يكن مناسبًا للموقف نفسه:

- ليست هنا؛ آسيا لم ولن تأتي إلى هنا من الأساس.

بغضب وعصبية ضربت نافذة السيارة:

- قلت لك الحق بها، انطلق!

أدار المحرك ثم اتجه إلى الشارع الموازي، ظللت أبحث عنها وسط الظلام:

- كانت هنا، أقسم لك لقد رأيتها!.

ظللنا نبحث في الشارع، لم نترك أي طريق إلا وبحثنا على أرصفته.

- كانت هنا يا يونس، لقد رأيتها وتبعتها، أقسم لك!.

أوقف يونس المحرك وبغضب رد:

- قلت لك لن تأتي، هي ليست في القاهرة، لا الوقت، لا المكان، ثم هي لا تحب هذا العالم من الأساس، لم تأتي، أنت مرهق هذا كل ما في الأمر.

صرخت بوجهه:

- لا تعاملني كالمجانين، قلت لك رأيتها وتبعتها حتى جئت أنت وأفسدت كل شيء!.

أدار المحرك من جديد ثم انطلق بسرعةٍ جنونية، يكسر الإشارات، يمر بين السيارات بعشوائية، يدخن بشراسة ويواصل ضرب تارة القيادة.

- يونس، أنا لست مختلًا، لا أعاني من اضطرابٍ نفسي، أقسم لقد رأيتها، صحيح أنني أراها كل يوم في خيالي، أتحدث معها، أخبرها بالأشياء التي تزعجني، وأسمع صوتها وهي تحاول مداواة تلك الأشياء التي تحزنني، لكن أقسم لك هذه المرة لقد رأيتها، لقد رأيتها، أنا لا أكذب!.

لم يرد يونس، وواصل القيادة حتى وصلنا إلى المنزل، لم ينطق كلمة واحدة، دخل غرفته مباشرةً دون أن يكترث لأمري، كان في حالة غضب واستياء لم أرَها من قبل، ربما كان هذا أفضل، فلقد كنت بحاجة إلى الجلوس وحدي.

يوم آخر من أيامي التي لا تُنسى. الغموض الذي يحوم حول مدكور، هذا الرجل بهيئته وطريقته وثقته التي تكاد مُؤَكَدة أنني سأوافق على طلبه، ظهور آسيا في هذا الوقت! لم تكن تخيلات هذه المرة، لقد كانت أمامي، لقد رأيتها!.

الحل في المنومات دائمًا!

وقبل أن ألتهمها دخل يونس حاملًا معه مشروب الشوكولاتة الذي أحبه، جلس على سريري ثم ابتسم بعدما قدم لي المشروب:

- أعتذر لك عن غضبي، أنت تعلم جيدًا أنني لا أتمنى في حياتي أكثر من أراك بخير.

رددت:

- المهم أن تصدقني، لقد رأيتها!

وفي هدوءٍ تام قال:

- داوود، أنت مرهق جدًا، تحتاج لقسط من الراحة.

تنهدت:

- أنت لا تصدقني إذن، أليس كذلك؟!

قال:

- لن أسألك عن لقائك بالمنتج السينمائي، ما حدث اليوم في طي النسيان. لقد بلغتُ اعتذارنا عن حضور أي مؤتمر وحفل في الفترة القادمة، أنت تحتاج إلى الراحة وهذا كل شيء.

شيء من المبالغة ظهر في كلمات يونس فسألته:

- أي راحةٍ تقصد؟!

رد بهدوء:

- لماذا لا نلجأ إلى طبيبٍ نفسي؟! أغلب المشاهير والسياسيين كان لديهم طبيب نفسي خاص بهم لمشقة وصعوبة الحياة معهم، ما بالك بأحداث حياتك الخاصة! بالمناسبة، لقد سألت عن مدكور التهامي وعرفت أنه بالفعل طبيب نفسي، ولحسن الحظ هو مدير أحد المستشفيات الكبرى لعلاج الإدمان والحالات النفسية...

قاطعته:

- أتراني مجنونًا؟!

قال:

- أنت تعلم جيدًا أن المرض النفسي لا يختلف عن المرض العضوي، أنت متعب ومضطرب وتحتاج لحلٍ جذري، أظن أن هذا حل مناسب لك...

قاطعته بغضب:

ـ هذا الأمر مرفوض تمامًا.

ثار في وجهي:

ـ أنت تحتاج لهذا، تحتاج للحفاظ على اسمك، مستقبلك، حياتك وعقلك، تحتاج للحفاظ على نفسك.

رددت:

ـ قلت لك أنني أعرف تمامًا ما يحدث، صدقني أنا لا أعاني من الاكتئاب، لا أعاني من تخيل وتوهم أشخاص...

قاطعني:

ـ أنت لا تعرف شيئًا، أنت لا تعرف إلا إرهاق نفسك وتعذيبها بالحنين لأشياء لن تعود أبدًا، لن تعود مهما حدث!

كانت كلماته قاسية، الحقيقة التي لم أتقبلها أبدًا، شعرت بالضعف والحسرة، لكن كانت الكلمات في صدري أكبر من الصمت فاجتاحتني نوبة بكاء، كنت أبكي بلا رحمة.

لا أتذكر ما حدث بالضبط لكنني غدوت رغمًا عني في نوم عميق.

استيقظت تائهًا تمامًا كما لو أنني نمت مئة عام، عقلي لا يدرك الوقت، أحاول جاهدًا معرفة هل استيقظت في المساء أم أنني في الصباح، كل الألوان حولي مشوشة، الأبيض لا يختلف عن الأسود، والوردي يميل أكثر للرمادي، الألوان متشابهة، الجدران باهتة، أشعر بتجاعيد أقدامي وكأنها لرجلٍ في السبعين، وجهي ثقيل جدًا، أتنفس بصعوبة بالغة، ملامحي جامدة وثابتة وكأنني تمثال من الصلصال،

رأسي ثقيل على أكتافي، حالة من الجمود تسكنني، قلبي بارد لا أشعر بضرباته.

الأنين والآلام رفاهية ونزهة حين يصل قلبك إلى التجمد، وأشعر وكأن قلبي متجمد تمامًا، لا أتنفس حتى الهواء الذي أستنشقه، لا أشعر به، أنا في حالة من الجمود لا أشعر بشيء!.

اعتدلت وحاولت الانتباه، لم تكن غرفتي، كنت في غرفة يغلب عليها النظام حد البرودة، مثل هذه الغرف المزعجة التي تشبه القبر، حيث لا يمكن تمييز شيء، لا أسمع الأصوات فهي هادئة بطريقة مزعجة، الهدوء الذي يسمح لنفسك أكثر بالحديث معها، حاولت النهوض من سريري لعلي أكتشف وضعي ومكاني، وما إن نهضت حتى دخل يونس.

بابتسامةٍ هادئة قال:

ـ نهارك سعيد يا صديقي!

قلت في غضب:

ـ إذن، لقد فعلت ما أردت! أنا الآن مريض في عيادةٍ نفسية!

جلس أمامي ثم قال:

ـ لا يا صديقي، أنت لست في عيادة نفسية بالمعنى الحرفي للكلمة، أنت في مستشفى واحد من أهم وأشهر الأطباء النفسيين في مصر، هو يعرفك جيدًا ويعرف مكانتك ووضعك الاجتماعي. اضطررتُ لوضع بعض العقاقير في مشروب الشوكولاتة المفضل لديك ثم استدعيت بعض مساعدي الطبيب لنقلك إلى هنا.

أعطاني سيجارة وواصل:

ـ أعرف أن هذه الطريقة مزعجة ولا تناسبك، لكنني أحبك ولن أتحمل أن أراك تسقط بهذه الطريقة دون أن أُحرك ساكنًا، أنت تحتاج إلى الراحة فقط. ثم عن الطبيب سيكون الأمر سرًا بينكما، فقط ساعدنا لنتجاوز معًا هذه الفترة.

رددت:

ـ يا يونس، الأمر لا يستدعي كل هذا، أنا مرهق فقط...

قاطعني:

ـ صدقني، أنت تحتاج إلى هذا الطبيب، تحتاج إلى شخصٍ يتابعك عن كثب ويراقبك ويعطيك الأدوية والإرشادات الكافية لتتعافى سريعًا من هذا الاضطراب؛ الأمر لا يتوقف على إيمانك بأنك رأيت آسيا في الحفل، ثمة أشياء تحدث منذ فترة أنت لا تتذكرها. هون على نفسك، لنعتبر أنفسنا في رحلة خارج مصر، ستعجبك الأجواء خارج هذه الغرفة، غريبة لكنها مميزة.

تنهدت:

ـ وماذا عن المؤتمرات والحفلات والتعاقدات التي تنتظرنا؟!

وهو يستعد للخروج من الغرفة قال:

ـ اعتذرت للجميع عن حضورها. الأهم أن تعود بخير فقط، سأذهب لإنهاء بعض الأعمال المعلقة وسأعود لاحقًا. بعد دقائق ستبدأ أولى جلساتك مع الطبيب، ساعدنا يا داوود، ساعدنا لكي نعود لحياتنا الطبيعية في أسرع وقت.

قبّلَ رأسي ثم خرج من الغرفة.

كنت أريد الخروج من هذه الغرفة الباردة، لكن شعور الإرهاق الذي لحق بي كان أقوى من رغبتي، فجلست في سريري أنتظر أولى جلساتي النفسية.

مر الوقت.. ساعة.. ساعتان.. لا شيء أكثر من التحديق في جدران الغرفة والانتظار فقط. غلب عليَّ النوم.

استيقظت مفزوعًا بعدما سمعت صوت أحدهم في الغرفة، كان هناك شخص يجلس على الكرسي أمام سريري، الضوء الخافت لم يساعدني في تمييز وجهه...

ـ من أنت؟

رد بصوتٍ مألوفٍ لي:

ـ مدير المستشفى.

قلت:

ـ لا أستطيع رؤيتك في هذا الظلام!

تحرك من مكانه، ثم عاد الضوء...

ـ يمكنك رؤيتي الآن!

فركت عيني، كانت في غاية الإرهاق أو ربما لا تستوعب ما رأته:

ـ مدكور التهامي!

رد وهو يبتسم:

ـ ألم أقل لك أننا سنلتقي قريبًا!

ضحكت بسخرية:

- والآن بعدما كنت أمامك الصديق الذي تنتظره أن يكتب عما يدور حوله تحولتُ إلى مريضٍ نفسيّ أعاني من تخيل أشخاص!

قاطعني:

- دعك من تلك النظرة السطحية، أعرف أنك لا تثق بأحد بسهولة، لكن فلنحاول معًا، وتأكد فور رحيلك سنمحي من ذاكرتنا فترة وجودك هنا. لن نبدأ اليوم؛ الآن قد حان وقت نومك، سنبدأ من الغد، اتفقنا؟

أطفأ الأنوار ثم خرج وهو يقول:

- لن يزعجك أحد، فقط نَم وغدًا سنبدأ.

أن يعاملك العالم على أنك مريض نفسي فتصدق معاملة العالم وتسخر من نفسك ومن اضطرابها، الحزن الذي يدفعنا للضحك والسخرية من أنفسنا ومصائبنا أشد لعنة من الحزن الذي يدفعنا للبكاء، على الأقل في البكاء نحن نمارس طقوس حزننا، نتحسر ونتألم ونصرخ، أما الضحك فهذا يعني عجزنا، عجزنا حتى عن مقاومة هذه التعاسة التي استولت علينا رغمًا عنا؛ الضحك في الحزن أشد قسوة من البكاء.

ظللت في مكاني حتى الرابعة فجرًا، وفجأة سمعت صوتًا مميزًا خارج الغرفة، صوت فتاة تدندن أغنية لا أعرفها، تقترب خطواتها من الغرفة، تحرك المقبض، ثم دخلت الفتاة صاحبة الصوت المميز، لم يكن صوتها فقط هو المميز، كانت ملامحها جميلة، الجمال الذي يغلب عليه الحدة والهدوء في نفس الوقت، جسدها ممشوق وفاتن

أشبه بغزال في ربيع عمره، ترتدي فستانًا أسود طويل، وشعرها بني أقرب للأحمر، كانت أشبه بفتيات هوليوود. بهدوءٍ تام جلست على الكرسي، واصلت الغناء وهي تنظر لي:

ـ أزعجك غنائي؟!

رددت وأنا أعتدل في جلستي:

ـ أحب هذا النوع من الإزعاج.

نظرت باستغراب ثم واصلت:

ـ لم يخبرني يونس أنك تجيد كلمات المغازلة! على أي حال اسمي (**جيسي**) وأنا ممرضتك الخاصة، أنا معجبة بتمثيلك جدًا ومن دواعي سروري أن أكون ممرضتك الخاصة.

خرجت جيسي لتبدأ علاقتنا القوية بعدها، وبدأ كل شيء معها هنا في (**مستشفى زايد للأمراض النفسية وعلاج الإدمان**).

فجأة سمعت صوت أحدهم يقترب من الباب، استعدت شرودي بعد رحلة طويلة في عالم الذكريات، كان الزائر هو دكتور (**مدكور التهامي**) سألني:

ـ كيف حالك يا داوود؟!

رددت:

ـ أنا بخير.

جلس على سريري، ثم سألني عما كنت أفعله، رددت:

ـ كنت أتذكر الأيام الأخيرة قبل مجيئي إلى هنا، لا أحد يتوقع كل هذه الأحداث التي حدثت لي قديمًا، والآن أصبحت أمام قضية قتل، حياة غريبة!

قال دون أن يكترث لردي:

ـ بالطبع أنت تعرف ما يحدث هذه الأيام في المستشفى، إنني لا أحتاج منك إلا كتابة كل شيء يدور حولك، تراه أو حتى لا تراه.

رددت:

ـ كنت أُفكر في كيفية حضوري للتحقيقات، أحتاج لهذا!

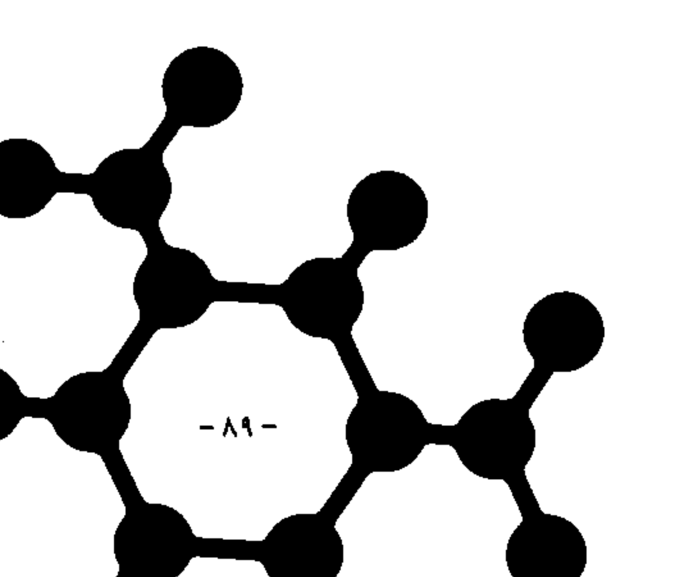
قال:

ـ فكرت في هذا، وبالفعل وضعت كاميرا صغيرة يمكنك متابعة كل شيء بالصوت والصورة، فقط كل ما عليك هو تدوين ما يحدث بأدق أدق التفاصيل.

أعطاني هاتفًا صغيرًا وهو يقول:

ـ من هنا سيمكنك متابعة التحقيقات، لا تجعل أحدًا يلاحظ أنك تستمع لهذه التحقيقات أو تراها، كل ما عليك هو الكتابة، الكتابة فقط. والآن عليَّ الذهاب، وجودي في غرفتك قد يستدرج اسمك للشبهات. بالمناسبة، لن تأتي جيسي هذا المساء، اعتني بنفسك، وغدًا سيبدأ كل شيء.

الفصل الثاني





«سوف يجد المرء نفسه في بعض الأحيان ثقيلًا كالكتلة، وقلقًا في الوقت نفسه، قلقًا كحيوانٍ داخل غابة.»

فرانز كافكا.

استيقظتُ في السابعة صباحًا على حالةٍ من الفوضى، كانت أصوات الأقدام تصعد وتهبط السلالم، يقطعها أصوات رجال الأمن الداخلي:

ـ التزموا الهدوء!

خرجت من الغرفة لاستكشاف ما يحدث، كانت هناك حملة تفتيش على المرضى والعنابر، مما أدى إلى نشوب التحام قاسٍ بين الطرفين، ولأن رجال الأمن لا يفرقون بين المريض والمُمرض استخدم أحدهم العنف وهنا بدأت حالة الهياج في العنابر ليتدخل الأمن لإنقاذ الموقف.

طلبوا منا الخروج من العنابر والغرف والاصطفاف في الحديقة، لم يعصِ أحد الأوامر، خصوصًا بعد أن هدد أحد رجال الأمن الجميع باستخدام العنف والقوة المفرطة لفرض السيطرة والهدوء.

خبأتُ الهاتف في السروال الداخلي وخرجت معهم، كانت (سارة) هناك تقف على المسرح وترقص وكأن ما يحدث لا يخصها من الأساس، وبالنظر كنت أتابع (خالد) الذي كان يجلس هناك في أحد أركان الحديقة يدخن بشراسة ويرسم، ويرسم...

(مدكور) هناك، يقف في الشرفة برفقة شخص ما يتابعان التفتيش والمرضى في الحديقة، وبعد ثوانٍ أُغلقت الشرفة واتجها إلى الداخل، في نفس اللحظة ابتعدتُ عن الضجيج وفتحتُ الهاتف لأعرف ما يحدث في الغرفة...

تحرك المحقق ناحية المكتب:

ـ سيد مدكور، أنت بالطبع تتفهم موقفنا لفرض الأمن على المستشفى!

ـ سيد ناصر، أُقدر تمامًا دورك ومهامك كمُحقق ومسؤول عن القضية، لكنني أرفض تلك الطريقة، المرضى النفسيين لا يحتاجون للقبضة الأمنية لفرض السيطرة عليهم، نحن هنا نتعامل مع أخطر وأضعف النفوس البشرية، ومع ذلك لم يحدث أن استخدمنا العنف ضد أحد!

رد ناصر بحزم:

ـ إياك أن تنسى أن هناك قضية جنائية حدثت في مشفاك، وأنت بكل الحالات متهم، ولنختصر الوقت ونبدأ...

تنهد مدكور الذي كان يغلب عليه علامات التعب، جلس على الكرسي:

ـ لنبدأ.

ـ لقد علمنا أنك كنت الصديق المقرب للضحية!

ـ نعم، لقد كنت طبيبها الخاص قبل أن تأتي إلى هنا، لست صديقًا بالمعنى الحرفي، لكنني كنت قريبًا منها قبل إدمانها، لكن لم تستمر علاقتنا طويلًا، خصوصًا بعد انفصالها عن

زوجها بعد أن اكتشفتْ خيانته لها فرفضتْ زوجتي استمرار العلاقة بيننا حتى لو كانت مجرد حالة من ضمن عشرات الحالات التي أشرف عليها..

- زوجتك ونائبتك بالمستشفى، أليس كذلك؟!

- نعم.

صمت ناصر لثواني ثم سأله:

- لكن بعض الأقاويل تؤكد أن (ليلى) لم تكن مجرد حالة، بل تطورت علاقتكما خصوصًا في أيامها الأخيرة!

قال مدكور وهو على وشك الصياح:

- أرفض هذا الأسلوب وتلك التهم الخبيثة التي تندرج تحت بند التحقيق!

فتح المحقق حقيبته ثم أخرج منها صورة:

- وهل كل الحالات يسمحون لك بالتصوير معهم بهذه الوضعية الجنسية؟!

أمسك مدكور الصورة، كانت بالفعل صورته مع ليلى على فراش وسرير واحد:

- هذه الصورة قديمة. نعم لقد تطورت علاقتنا وطلبتها للزواج، لكن عائلتها رفضت الفكرة بحجة أنني لا أناسبها، كان هذا قبل سنواتٍ طويلة، كنت في منتصف مشواري العلمي، ولهذا رفضت العائلة أن تزوجها من شخصٍ مثلي، وبعد رفضهم لم تنتهِ علاقتنا واستمرت لأكثر من عام حتى تأكدنا أن زواجنا أمر مستحيل فانتهينا، حتى تزوجت هي برجل أعمال

معروف، وانتهى الوصل. بدأت حياتي منعطفًا آخر، سافرت إلى أمريكا ومن ثم عدت إلى مصر وافتتحتُ هذا المشفى، وقررتُ الزواج بعد أن اطمأننتُ على مستقبلي المهني، لكنني كنت أتابع أخبارها كأيّ متابع، صحيح أنني لم أتوقف عن حبها، لكنني توقفت عن مطاردتها، حتى قرأتُ خبر بيعها شركات مستحضرات التجميل...

قاطعه ناصر:

- ومن هنا عاد الوصل بينكما من جديد!

واصل مدكور:

- ليس كذلك بالضبط، لكنني تفاجأتُ بعد فترة باتصالها بي، دعتني إلى العشاء في منزلها، كانت في أمَسِّ الحاجة لي، لم تكن الفتاة التي عرفتها، ولم تكن أبدًا تلك الفاتنة التي تتهافت عليها الكاميرات؛ وجهها شاحب وباهت، شفتاها خشنة وثقيلة، وعيناها مرهقتين، كانت لا تقوى على الحركة، أتذكر يومها قالت: **«إنني منهكة تمامًا يا مدكور، منهكة وأشعر بالعجز من كل شيء حولي، لقد أضعتُ عمري في إرضاء الجميع ولم أسعَ يومًا لإرضائي حتى أصبحت دمية ملك للناس ولم أشعر بامتلاكي لنفسي ولو ليومٍ واحد، أفكر في التخلص من حياتي بأي طريقة ممكنة، لم أعد أُطيق وجودي هنا، حتى أنفاسي صارت تزعجني وتثير غضبي وتدفعني أكثر للخلاص مني، أنا لا أتقبل وجهي، لا أتقبل رائحة جسدي، لا أُطيق النظر في المرآة، إنني أهرب مني**

دائمًا، أهرب بالهيروين والكوكايين، وأحتاج لوجودك معي.»

واصل مدكور بنبرة حزينة:

ـ لم أستطع الحفاظ على سياق العلاقة بيننا، وبالفعل توطدتْ علاقتنا واقتربتُ منها أكثر في محاولة لإبعاد هذه الفكرة عنها واستعادة رغبتها بالحياة؛ من باب العدل في الحياة أن يشعر المرء ولو لمرةٍ واحدة أن هناك من يهتم ويكترث لأمره، وقد كانت ليلى دائمًا أكثر من أستطيع الاكتراث والاهتمام لأمره.

وهو يعبث بالأوراق المرصوصة على المكتب قال المحقق:

ـ وليستمر القرب بينكما قررتَ إيداعها في المستشفى الخاص بك ليكن كل شيء في إطار رسميّ وشرعيّ؛ ظاهريًا هي مجرد مريضة وحالة من ضمن الحالات التي تشرف عليها، وفي الباطن حبيبتك التي تمارس معها كل أشكال الحب!

قاطعه مدكور مرة أخرى:

ـ قلت لك الأمور ليست هكذا، لقد كانت تعاني حقًا وأردتُ أن أكون بجانبها مهما كلفني الأمر!

تنهد مدكور ثم قال:

ـ هنا كانت مشكلتها الأبدية، هنا تكمن المعاناة نفسها؛ إن الناس يظنون أن الرفاهية، النجاح، الشهرة، كلها أشياء مضادة للمعاناة، لكن لم يفكر أحد يومًا أن تلك الأشياء قد تكون سبب المعاناة الأساسية! لطالما كانت تشعر بالغربة،

بأنها لا تنتمي لهذا العالم من الأساس، تعيش حياتها في قصرٍ بعيدٍ عن الناس، لكنها كانت تتمنى غرفة واحدة بين عائلتها، أن تشعر بإنسانيتها في دفء أسرة يحبونها ويهتمون بأشيائها العادية البسيطة، الكثير حولها لكنها أرادت شخصًا واحدًا يكتفي بها وتكتفي به، أن تكون بطلة في حياة أحدهم، أرادت أن تكون مهمة في حياة شخص للحد الذي يجعلها تتراجع في اللحظات الأخيرة عن رغبتها في العزلة، أن تجد ذاك الذي يقلب الدنيا رأسًا على عقب لمجرد أنها تشعر بالحزن أو الضيق، أن يقطع مسافات ومسافات من أجل قضاء ساعة معها، أن تتكئ على أحدهم ويتكئ عليها، أرادت أن تكون مختلفة ومهمة للحد الذي يبحث عنها أحد إن قررت الغياب، شخص واحد فقط كان يكفي ليلاحظ غيابها، ليسألها عن سبب ندبات الحزن وهالات السهر، يستطيع تمييز صوتها ما بين أنها بخير وما بين أنها تدَّعي القوة، كان يكفي فقط أن تجد من يفكر في إسعادها ولو صدفة، مَن يسرق ساعة وسط انشغاله ليطمئن عليها، أن تكون هي الأهم والخيار الوحيد في حياة شخص، ذلك الذي يعاملها باحترام وحب وتقدير، ذاك الذي لا يتخذ أي قرار مصيري إلا بعد سؤالها، ولا تتخذ أي قرار مصيري إلا بعد سؤاله؛ في عالم مليءٍ بالعلاقات العابرة السطحية أرادت أن تكون مهمة جِدًا ومؤثرة في حياة أحد. في عالم

(الكومبارس) والزيف أرادت أن تكون البطلة والحقيقة الوحيدة في قصة أحد.

تحرك مدكور ناحية المكتب، أخرج ملفًا من مجموعة ملفات مرصوصة على رف المكتبة:

ـ سيدي المحقق، يؤسفني أنك لن تنجح في عملك هذه المرة، وأن الوقت لن يسمح لك بمعرفة القاتل، وقد تكون الحالة نفسها انتحرت، أنت هنا لتعرف القاتل فقط ومن ثم إعدامه أو الحكم عليه بالسجن المؤبد، أنت هنا لتنهِ عملك بالطريقة التي اعتدتَ عليها دائمًا بحيّلك التقليدية، لكن هنا في هذا المستشفى تلك الحيَل وحتى العنف لا يجنيان ثمارهما، أنت تتعامل مع مرضى نفسيين لهم عالم يختلف تمامًا عن عالمنا، لهم أسبابهم وتفاصيلهم الخاصة، لربما لن تزعجهم محاولات الضغط عليهم ولن يكترثوا كثيرًا لنظراتك الحادة. أنت تحقق مع شخصيات أُصيبوا بالاكتئاب لربما لهذه الأسباب من الأساس، هؤلاء المرضى لا يكترثون لا ينتظرون بشغف معرفة القاتل، لا يهتمون من الأساس بالضحية، لا يتذكرونها وحتى إن كانت صديقتهم، فهذا ليس فقدانهم الوحيد. صدقني قد يكون القاتل نفسه لا يعرف أنه المتهم، لا يتذكر جريمته، صدقني قد يأتي ويعترف لك بلا سبب، وقد تكتشف أن أحدهم اعترف على نفسه وهو يحكي قصته مع الضحية، ستفشل فشلًا ذريعًا إن استخدمت حيلك العادية في التحقيق مع الجميع هنا، لربما عليك أن

تنسى قليلًا كونك محقق وتسمع التفاصيل وكأنك طبيب نفسي، أعطِ لهؤلاء الأمان فقط وسيتحدثون معك عن كل شيء، حتى لو كانت ضريبة الأمان الاعتراف على أنفسهم، أغلب هؤلاء افتقدوا لشعور الأمان في الحياة.

ظهرت علامات الغضب على المحقق وتعالت نبرة صوته:

ـ الرأي العام في حالة ترقب وانتظار، وأنت تطلب مني أن أنسى دوري في القضية، وأستمع لأولئك المجانين والمدمنين!

لم يتحرك مذكور من مكانه، رد بهدوءٍ شديد:

ـ إذن ستبقى عالقًا في هذه الحلقة المفرغة إلى الأبد وستضع القضية في أدراج المكتب وينتهي كل شيء معها دون معرفة الحقيقة. أنا مستعد لاستمرار التحقيق معي، لكن لن تكتمل القضية بهذه البساطة، طريقتك في استجواب الممرضات والمرضى لن تفي بالغرض، صدقًا لا أستطيع مساعدتك. فكر في الأمر، لربما بهذه القضية تحقق مرادك في الترقية أو حتى تكتشف عالمًا آخر لا تعرفه يساعدك على العيش بعقلٍ أكثر نضجًا مما أنت عليه.

جمع ناصر أوراقه في غضب:

ـ نحن يحكمنا القانون يا دكتور!

ـ القانون لم يمنع تكرار حوادث القتل والانتحار، الذي يجرؤ على قتل نفس بشرية والذي يجرؤ على خطو خطوة واحدة ناحية الانتحار كلاهما فقد الأمل والإيمان بالحياة نفسها، هل تتوقع أن مثل هؤلاء يكترثون لقوانينكم ودساتيركم؟!

إنهم فقدوا الإيمان بكل شيء حولهم ورغمًا عنهم، لربما لو جلستَ معهم وبدأت بالاستماع لهم لاختلف الوضع!

ارتدى ناصر معطفه وهو يخرج من المكتب:

ـ لنواصل غدًا.

رد مدكور وهو يشعل غليونه:

ـ فكر في الأمر.

خرج ناصر ومعه قوات الأمن وخلفه كان رجال الإعلام ينتظرون تصريحًا واحدًا عن القضية.

عاد الهدوء مرة أخرى إلى الحديقة، وبدأ المرضى بالعودة إلى غرفهم الخاصة، كان خالد يتابع الأجواء من بعيد بينما كانت سارة تواصل الرقص ولا تبالي بما يحدث حولها.

تحركتُ مع المرضى حتى وصلنا إلى المبنى، وهنا تفرقنا ما بين الغرف الخاصة والعنابر العمومية، كنت أتابع خالد وهو يتحرك معهم في ترقب، وكأنه يبحث عن شخصٍ ما وسط الزحام، وقف لثواني بعدما اكتشف أنني أتابعه بالنظرات، ثم اتجه إلى غرفته.

كنت أحتاج لمراجعة الجلسة الأولى من التحقيق في مكانٍ آمن بعيدًا عن رجال الأمن المتنكرين في زي الممرضين، ما إن دخلت الغرفة حتى وجدت ظرفًا صغيرًا على سريري ـ لستُ معتادًا على استقبال مثل هذه الأظرف ـ وصورة حديثة لـ (**ليلى العدوي**)، كانت ملامحها في الصورة غريبة ومختلفة عن صورها العادية التقليدية، كانت تبتسم ابتسامةً باردة وكأنها تريد أن تخبر العالم أن شيء ما يحدث لها، لم

تضع أيًا من مستحضرات التجميل على وجهها، كانت عادية وباردة وباهتة. تأملتُ الصورة ثم بدأت في قراءة الورقة:

«كنتُ أعرف أنها ليست الطريقة الصحيحة، كنت أعرف أنني أضعف من مواجهة العالم، لكنني لم أتمنَ أن تمر الأحداث والمعارك بتلك الطريقة المؤسفة، لقد عانيت في حياتي أشد معاناة، لكنني لا أنكر أنني قضيت لحظات لا تنسى من الحب، السعادة، والانتقام أيضًا، لا أعرف بالضبط إلامَ أنتقم ومِن مَن! لكنني لا أُنكر أنني وفي اللحظات الأخيرة شعرتُ بلذة الانتقام؛ نحن في النهاية بشر، خلقنا من طين من لحمٍ ودم، مزيج بين الخير والشر، الأبيض والأسود، نحب الأفعال الطيبة لكن لا مانع من لحظات النشوة بالأفعال السيئة، هذه فطرتنا الإنسانية، لكنني لا أُنكر أنني لم أتمنَ يومًا هذه النشوة، أردتُ أن أعيش حياةً طبيعية سالمة، حياة أبسط من كل هذه التعقيدات والصراعات، لكنني اكتشفتُ أن لكل شيءٍ ضريبة، ولقد كانت روحي وقلبي أثمن ضريبة للحياة. أنا لا أكذب، لقد تألمت وتعذبت أكثر مما يظن الجميع.»

تسمرتُ؛ لم تكن الرسالة واضحة، أعرف مثل تلك الرسائل الغامضة التي تدفعنا للفضول، لكنني لم أكن فضوليًا تجاه صاحب الرسالة قدر فضولي في تفاصيل القضية نفسها. ظللتُ أبحث في أركان الغرفة لعلي أجد دليلًا واحدًا عن الشخص الذي اقتحم الغرفة وترك المظروف على السرير.

فجأة، سمعت صوت خطواتٍ تقترب من الغرفة، سريعًا وضعت المظروف والصورة أسفل الوسادة ثم تظاهرت بأنني على وشك النوم. فُتح الباب وكما توقعت كانت (**جيسي**).

ـ ليست من عادتك النوم في هذا التوقيت!

رددت وأنا أعتدل في جلستي:

ـ لقد كان يومًا شاقًا للغاية.

ضحكت جيسي ساخرة:

ـ أعانكِ الله يا (**ميسون**)، لن تنعم بليلة الخميس اليوم، مدكور في غاية الإنهاك والتعب.

وهي ترتب الغرفة واصلت:

ـ ماذا لو كانت ليلى مجرد امرأة عادية؟ هل كانت ستحدث كل هذه الضجة؟! بالطبع لا، لأن في بلدتنا قيمة الدماء تحتسب بالقيمة الاجتماعية للشخص نفسه؛ في بلدتنا نعلن الحداد على وفاة ممثل أو رجل سياسة أو لاعب كرة قدم، لكن يمر علينا خبر استشهاد جندي يدافع عن أرضه أو عالِم أفاد الإنسانية مرورًا عابرًا لا أحد يكترث لأمرهم، فقصص الكفاح دائمًا مرتبطة بأصحاب المناصب والنفوذ، لكن لم يذكر أحد شقاء أرملة واجهت الحياة بأطفالها في غرفةٍ واحدة معرضة للإزالة أو الهدم، لم يذكر أحد عن رجل يعمل أكثر من عشرين ساعة في اليوم من أجل توفير أبسط احتياجات أسرته اليومية، لم يكترث أحد كثيرًا لشابٍ يعمل من أجل زواج أخواته أو توفير علاج لوالدته المريضة. يتحدثون عن

الأمل والصبر لكنهم لا يعرفون عن الأطفال الذين يُرغمون على النوم مبكرًا حتى لا يقتلهم الجوع بعد منتصف الليل، لا يعرفون عن الغارمات اللاتي حُرمن من عائلاتهن لديونٍ بسيطة قد لا تعتبر مصروف وجبة غداءٍ لكلب حراسة في أحد قصور رجال السياسة أو الفنانين. يحتشدون من أجل التقاط صورة في جنازة وعزاء شخصية عامة، ويسدون آذانهم عن سماع صرخات أهالي الشهداء والضحايا لأنهم فقراء، فقراء فقط.

قاطعتها ساخرًا:

- جيسي ممرضة شيوعية! تتحدث عن العدل والثورة والسياسة!

ضحكت:

- لا، لست شيوعية، أنا فقط أعرف كثيرًا عن الفقر، لقد تأذيت منه يا داوود، أنا ابنه الفقر، ابنه البيوت المتهالكة، الشوارع الممتلئة بقُطاع الطُرق، الصيد الثمين للمتحرشين في أتوبيسات النقل العام، أنا ابنة انتظارٍ طويل في طابور للقمة العيش، وأنا الطفلة التي ارتدت فستانًا واحدًا طوال العام، أنا من تعرف جيدًا عن الوجبة الواحدة طوال اليوم، أنا الفتاة التي لم تدفع مصاريفها المدرسية ولجأتْ للالتماس والتسول من أجل قبولها، أنا الأضواء الخافتة المسروقة من عواميد الإنارة العامة، أنا التي تعرف عن انتظار الحمامات العمومية، صدقني أنا الفقر يا داوود...

فاطعتها في محاولة بائسة لإثارة ضحكتها:

- والآن أصبحتِ بهذا الجمال وهذا الجسد الممشوق، وممرضة بأكبر مستشفى للصحة النفسية في مصر.

ابتسمتْ بنرجسية:

- وهذا الجسد الذي يعجبكَ هو الضريبة التي دفعتها من أجل ما أملكه الآن.

سادت حالة من الصمت، بدأ الحزن يسيطر على جيسي وكأنها استعادتْ جزءًا من ذكرياتها الحزينة:

- كل يوم يموت آلاف الأشخاص من الفقر والجوع لكن العالم لا يكترث إلا لـ (**ليلى العدوي**).

كانت كلمات جيسي بالنسبة لي مزعجة، لا أحب الشماتة أو النظر إلى الموت بتلك النظرة، لكنها بالتأكيد لديها أسبابها الخاصة في رأيها ووجهة نظرها.

استأذنتْ جيسي وخرجت بعدما أعطتني الأدوية والمنومات، وتأكدتُ منها أن مدكور قد خرج من المستشفى ولن يعود اليوم، ورغمًا عني سقطتُ في نوم عميق.

مقهى قديم، أثاث متهالك، وجدران يغلب عليها الشقوق، العناكب تفرض سيطرتها بخيوطها المتينة على أركان السقف، فتاة هناك تجلس على الطاولة أمامي، غارقة في الكتابة، لا أستطيع تمييز ملامحها، ترتدي فستانًا أسود طويل، شعرها الأسود يجعلها أشبه بلوحة في متحف (**اللوفر**)، وتكتب، وتكتب، لكنها تبدو حزينة ووحيدة، لا أحد غيرنا في المقهى، أتابعها من بعيد. فجأة توقفت عن الكتابة،

نهضت وتركت الورقة ثم خرجت من الباب بسرعة جنونية وكأنها تطارد شيئًا ما، دفعني الفضول لمعرفة ما كتبته؛ اقتربتُ وأمسكتُ الورقة الممزقة:

«لا أحد يعرف ما أعاني منه، ولا أستطيع شرح ما يحدث بداخلي، وهذا يؤلمني».

ما إن انتهيت من قراءة العبارة حتى سمعتُ صوت صراخ كاد أن يصيب أذناي بالصمم...

نهضت مفزوعًا من منامي وفي أذني صوت صراخ الفتاة الذي سمعته في كابوسي، الفتاة الوحيدة التي كانت تجلس في المقهى، رسالتها الغامضة، المقهى القديم، الأفكار التي لا تهدأ في رأسي...

انتبهت لعقارب الساعة التي كانت تشير إلى الخامسة صباحًا، الأيام المملة تبدأ مبكرًا، أشعلت سيجارتي ووقفتُ في الشرفة أتأمل الحديقة التي شهدت على وفاة ليلى، ومن يدري لربما تكون وفاة ليلى هي البداية!.

بعد دقائق وصلتني رسالة على الهاتف من مدكور التهامي:

«تابع ما يحدث في الغرفة.»

سريعًا فتحت البرنامج الخاص بالمراقبة، ضوء خافت في الغرفة، ومدكور هناك على مكتبه يجلس وهو يتصفح بعض الملفات، أمامه ناصر في حالة صمتٍ وتركيز.

قطع مدكور صمت ناصر:

- قرار منع نشر تفاصيل القضية، قرار صائب يا ناصر.

رد ناصر في قلق:

ـ لكنه يزيد الضغط علينا، الآن نحن في سباقٍ مع الوقت، أرجو أن تنتهي سريعًا.

وهو يتصفح:

ـ ثِق بي. الآن سنبدأ مع (**سارة خطاب**) الصديقة المقربة لـليلى، كل ما عليك هو الصمت فقط.

هز ناصر رأسه إشارة للموافقة.

صدقًا كنت مندهشًا من قدرة مذكور على جذب كل الأطراف حوله، بعدما كان هو المتهم الأول فجأة أصبح المساعد الأول في التحقيقات لمعرفة الحقيقة، بهذه البساطة وبهذا الخبث والدهاء.

فجأة انقطع الإرسال، وبعد دقائق عاد الإرسال تلقائيًا إلى غرفة سارة، من وضعية الصورة عرفت أن الكاميرات الموضوعة مخفية بطريقة ما لا يمكن لأحد كشفها بسهولة، لم أكن أعرف أن الغرف الخاصة بنا مراقبة، أو ربما تعمد مذكور وضع الكاميرا في غرفة سارة وكأنه كان متأكدًا من أن ناصر لن يعترض على أي شيء.

الغرفة مثل أغلب غرف المرضى هنا، كل الرفاهيات المتاحة في هذه الغرفة، حيث الثلاجة، الشرفة، الحمام، التلفاز، والمكتبة.

كانت سارة تجلس على سريرها حتى دخل مذكور وناصر من الباب. انفعلت سارة:

ـ حسنًا، لست مستعدة الآن للتحدث مع أحد.

رد مذكور في هدوء:

ـ لن أطيل عليكِ.

نهضت ثم نظرت إلى مدكور دون أن تكترث لأمر ناصر:

- حسنًا، قلت لك أنني لستَ في حاجة إلى العلاج، أنا لستُ مريضة وأنت تعرف هذا جيدًا.

لم يتحرك مدكور خطوة نحوها، كان يتابعها وهي منفعلة:

- أنت تواصل مهامك القذرة من أجل المال، لمصالحك المشتركة مع خطاب، لهذا أودعتني هنا، أنت حقير مثلهم يا مدكور.

لم يرد مدكور عليها، كان في غاية الهدوء، جلس على الكرسي ثم قال وهو يعبث بملابسها الملقاة على الأرض:

- والحقارة هي ما دفعتكِ لارتكاب جرائم لا تغتفر في سبيل البقاء والحفاظ على حلمك!

صرخت في وجهه:

- كانت جرائمي تجاه نفسي، كنت أستحق أن أحيا بأحلامي بعدما تعمدوا إيذائي.

ابتسم مدكور:

- تجاه نفسكِ! أنتِ الوحيدة التي تؤمنين بهذا المبرر لارتكاب المزيد من الجرائم الشنيعة، حتى اتهامك بقتل ليلى العدوي صديقتكِ المقربة.

ردت بغضب

- لم أقتل ليلى، أنا لا أطيق تحمل مشهد ذبح دجاجة!

رد مدكور:

ـ هذا هراء، أنتِ هنا لسلوكك العدواني وتعاطيكِ المخدرات، واتهامكِ بالقتل أمر وارد جدًا.

اقتربت منه وأمسكت بياقة قميصه:

ـ أنت تعرف أنني هنا ضريبة الحلم؛ منذ طفولتي وأنا أحلم، أشاهد الأفلام وأتخيل نفسي أحد أبطال هذه الأفلام، أسمع الأغاني فأدندن في غرفتي وأتخيل الجماهير أمامي وهي ترقص وتبتهج مع الموسيقى الصاخبة، أحببت ارتداء الملابس الخفيفة حيث عروض رقص البالية، كنت أحب طريقتهن في الحركة، إنهن يداعبن الحرية، يشبهن الفراشات، لقد كنت طفلة مصابة بالحلم، لكن في هذا الواقع البائس الناس يجيدون قص أجنحة الفتيات خوفًا من التحليق في السماء وفقدان السيطرة عليهن. كانت طفولتي غريبة وبائسة في أسرة متشددة دينيًا، لم يكن هناك مجال لأحلام تجلب لهم العار كما يقولون عن أحلامي، حتى الكلمة نفسها لم أستوعبها إلا بعد عمرٍ طويل، لكنني كنت أسمعها في كل مرة أتحدث مع أمي كانت تلك كلمتها الأخيرة دائمًا في الحديث عن أحلامي. أما أبي فقد كان إمام مسجد الحي الذي نسكن فيه، رجل طيب السمعة وودود، يحترم الجميع ويبادلونه نفس الاحترام والتقدير، لم تكن لدي علاقة قوية معه، كان حاد الطباع وكأنني وصمة عاره الوحيدة بين أولاده، في بعض الأحيان كنت أسمعه يقول **«كنت أتمنى أن أعيش في عصر وأد الفتيات، لوأدتك وقتها وانتهى الأمر»**. الأمور

والخلافات التي كانت تحدث بيننا كانت أبسط من ردوده التي كانت تُظهر مدى كرهه الشديد لي، طفلة لم تستوعب سر هذا السخط، عقلها لا يفهمها معنى العار والوأد والعهر، لكنني كنت أشعر بالإهانة من تلك الكلمات القاسية التي لا أفهم معناها بالكامل، لكن بدا الأمر خطيرًا حين تحولت للتأديب في المرحلة الإعدادية لمجرد أنني غضبتُ من فتاةٍ فرغمًا عني قلت لها «**أنتِ عاهرة!**»، كانت الكلمة قاسية على مسامعهن، وقتها انقضَّتْ عليَّ وكادت تلتهمني بأسنانها، بينما كنت في حالة دهشة من ردود الأفعال حولي، ومن تأييد صديقاتي لرد فعل الفتاة. جلست مع الأخصائية الاجتماعية في المدرسة لتسألني عن سبب الخلافات وقسوة الرد على الفتاة، لكنني كنت في حاجة للحديث عن الكلمة نفسها، لم أنكر ما قلته لكن على الأقل كان من حقي معرفة معنى الكلمة التي أسمعها دائمًا في المنزل ولم يغضب أحد لي، فقلت لها: «**أنا لا أفهم بالضبط معنى الكلمة، أنا أسمعها بشكلٍ يومي في منزلنا، أسمعها كلما كان مزاج أبي سيئًا، أو كلما رآني أجلس أمام التلفاز، أو حين اكتشف أنني أُدندن كلمات الأغاني سرًا، حتى عندما قررت الوقوف في الشرفة كان رد فعله في غاية القسوة، لم أظن أن الكلمة بهذا السوء الذي استدعى كل ما حدث، سمعتهم يقولون تشبيهات غريبة عن معنى الكلمة (عاهرة) تعني أنني أبيع جسدي للرجال! أنا لا أنظر إلى الرجال من الأساس، أمي تجبرني**

على ارتداء ملابسي الطويلة الواسعة أمام أخوتي. لا أبرر ذنبي لكنني في الوقت نفسه لا أفهمه؛ أظن أنني كموسى حين اختار الجمرة عن التمرة وعوقِب بثقل في لسانه على اختيارٍ لم يعرفه من الأساس.»

فتحت سارة الثلاجة:

ـ أعرف أنك لن تأكل معي، أنت لا تختلف كثيرًا عنهم يا مذكور. لنرى ما لديّ: قطع جبن، بيض، نصف دجاج...

أكملتُ:

ـ اللعنة! وهكذا كان عقابي، قاطعني الجميع بعد هذا اليوم، تجنبوني تمامًا بلا سبب، كما عوقبتُ في مدرستي بالفصل لمدة أسبوعين؛ في نظر صديقاتي والمدرسين أنا فتاة سليطة اللسان، وفي نظر عائلتي أنا عاهرة وفاشلة، وفي نظر نفسي أنا لا أعرف ما يحدث وسبب كل هذا، لكنني مدانة على أشياء لم أرتكبها. القضية كانت في سؤالين: أولًا، لو كان لفظ (**عاهرة**) في غاية السوء والقبح، لماذا ناداني أبي به في هذا العمر حتى ظننت أنه يمدحني؟! والسؤال الثاني، لماذا نعاقب على أشياء لم نقترفها؟!

اتجهتُ بالنظر نحو الشرفة وهي تأكل قطعة الدجاج الأخيرة:

ـ حين تنظر إلى البشر أجمعين ترى أنهم معاقبون منذ بداية خلقهم على أفعال لم يرتكبوها، يصارعون من أجل مصير مجهول لا يملكون أي إثباتٍ على وجوده، يتسلقون على أكتاف بعضهم كالقردة للوصول إلى غايتهم القذرة سواء في

السلطة، المال أو الجنس، هذا ما يحدث في العالم ضريبة لوجودهم في تلك الحياة الدنيئة، ولكنني لم أفهم معنى هذا إلا بعد أن وصفوني بالعاهرة في طفولتي. مرت تلك الفترة عليَّ بأصعب مما يمكن، خصوصًا بعدما بدأت تظهر علامات الأنوثة على جسدي، نصحتني أمي بالتقرب أكثر إلى الله، حولت نظام دراستي إلى النظام المنزلي حتى لا أخرج إلى هذا العالم الذي أرى نفسي فيه فتاة سيئة سليطة اللسان، ولأحافظ على أبي من سوء عهره الوحيد في الحياة، اقتربت أكثر إلى الله، هذا الذي يحبه أبي كثيرًا، ولطالما كان يتحدث عنه كثيرًا وعن فضله علينا، كان يقول دائمًا: «**رزقني الله بالصحة، العلم، المال، والأولاد**». كنت أنتظر في كل مرة أن يقول (**ورزقني بسارة**)، لكنه لم يفعل أبدًا، كنت منبوذة بلا سبب واضح، كان حديثه معي عن الله دائمًا يثير خوفي، كنت أسمعه يتحدث عن النعيم الذي ينتظر الناس، ويحدثني عن عذاب القبر، الثعبان الأقرع، الأسياخ التي تمتد من العنق حتى أصابع القدمين، يحدثني عن الظلام وأهوال الجحيم، كانت تلك المشاهد تلاحقني في منامي فأستيقظ مفزوعة باكية، اقتربتُ من الله ليس بدافع الحب إنما بدافع الخوف.

اتجهتْ سارة إلى الموقد الصغير، أعدَّتْ القهوة لنفسها ثم وقفت أمام مكتبتها، احتست رشفة من فنجان القهوة ثم واصلت:

ـ ونحن البشر حين يشتد علينا الخوف نتمرد رغمًا عنا حتى على أنفسنا، ولطالما راودتني لحظات التمرد على الله، فلطالما كان بالنسبة لي ينتظر السيئين القبيحين مثلي، يعد لهم أشد أنواع العذاب وحُفر من النيران التي تلتهم أجسادنا إلى ما لا نهاية، لكنني كنت أتعثر صدفة برسائلٍ أخرى في كتابه كانت تُطمئن قلبي: «وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي». طمأنينته لمريم أم المسيح والتي كان ينتظرها الموت: «فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي». كانت الحيرة تجتاح رأسي، هل الله جميل كما أقرأ عنه في كتابه المقدس، أم أنه خلقنا لنُعذَب فقط، ليعذب الفتيات، ليعتبرهن من نسل إبليس؟! لطالما قرأت في رسائل الله أنه لم يأمر إلا بتكريم النساء، كيف كان يراني أبي عارًا على حياته بينما كان يقول الله: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيم» وهذا يعني أن الله اعتبر الأنثى بُشرى وسعادة في الحياة. كان يحدثني عن العاهرات والساقطات واللاتي يبعن أجسادهن والجحيم الذي ينتظرهن، وكنت أقرأ في كتاب الله: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا». حين أراد الله أن يخلق الونس والاستقرار النفسي لآدم خلق له

حواء، كان يعرف أن الملل والتعب والوحدة ستقتل آدم حتى في الجنة، كان يعلم تمامًا قدر الشقاء والتعب الذي ينتظر آدم في الجنة فما كُسر مِن أَضلعه ليخلق حواء كُسر معه قسوة الأيام الأولى في الأرض. لم يترك الله عائشة حينما اجتمع أهل السوء عليها بل وعدهم بعذاب شديد حين قال لهم: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ». الكثير والكثير من الرسائل التي جملت وعززت من مكانة المرأة، الكثير من الرسائل التي تحث الرجال على معاملة النساء بلطف ومودة ورفق، بدأ قلبي يرتجف حبًا لله، بعدما كنت أسمع الأذان وأرتجف خوفًا من الجحيم، أصبحت أنتظر مناداته لي في الصلاة، أحببتُ الله وكرهت ذاك الذي حدثني أبي عنه، كفرتُ بإله أبي المرعب القاسي وأحببتُ الذي كتب هذا الكلام.

أغلقتْ سارة الكتاب ثم قالت:

ـ ومع الأسف لم يكن هذا كافيًا للناس.

أزاحت الوشاح الذي كان يغطي نصف شعرها، اختلستْ سيجارة من علبة مدكور، ظلت تعبث بها بين أناملها ثم واصلت:

ـ وبسبب كلمة أبي التي تداولها أينما ذهب ـ أقصد عن رأيه المتشدد ـ ورغم أنني انعزلت عن الناس، وأصبح الخروج من غرفتي حدثًا غريبًا والخروج إلى الشارع حدث نادر، رغم أنني قررتُ الاعتكاف والعزلة والتعبد والتقرب إلى الله

أكثر، لكنني كنت أتفاجأ في المرات النادرة التي أخرج فيها إلى الشارع أسمع الأصوات حولي يتهامسون: «**هذه الفتاة العاهرة ابنة الإمام!**»، كنت أُكذب أذناي لكن كانت ثمة نظرات بغيضة تلاحقني، لقد قرروا أن عزلتي واختفائي عنهم كان لتجنب الفضيحة والعار! لم أجرؤ وقتها على الحديث مع أحد عما يحدث، بلا سبب ولدتُ طفلة عاهرة لكوني فتاة فقط. لم أتحدث مع أمي أو أختي، اقتربتُ من الله أكثر، كنت أبكي وأتوسل إليه لعله يسمع وينقذني. ومع تزايد الهمسات البغيضة سمع أبي شابًا يتهامس مع صديقه عن أنه في علاقة مع ابنة إمام المسجد، لاحظ الشباب وجود أبي فاختفوا عن النظر، وقتها صعد أبي إلى المنزل وأيقظني بالسوط -أو كما يقولون (**الكرباج**)-، هذا ما حدث بالضبط: كنت نائمة حتى سمعتُ صوت أمي تصرخ، وفجأة اقتحم أبي الغرفة ودون مقدمات انهال على جسدي بالضرب، كان يجلد جسدي بالمعنى الحرفي للكلمة، ربط ذراعي وقدمي في السرير وواصل الجلد بعدما مزّق ثيابي، كان يردد: «**جلبتي لنا العار، جلبتي لنا العار يا عاهرة**». روحي كانت تتصاعد، الدم يثور في مسام جلدي فينفجر من كل مكان، لم يحاول أي من أخوتي الدفاع عني، وقفوا وبكل نخاسة يشاهدون جسدي العاري أمامهم وأبي يواصل جلدي، ويسبني بأفظع وأبشع الكلمات: «**جلبتي لنا العار كما توقعتُ، أنتِ عار علينا**». استمر أبي في جلدي واستمرت

حالتي من التوهة وفقداني للوعي. وبعد ثلاثة أيام استيقظت وأنا متعبة، اللعنة على كل شيء جعلني على قيد الحياة مرة أخرى، استيقظتُ فتاةً أُخرى، من اللحظات الأولى أقسمتُ أن أكون فتاة أخرى، كنت أريد التهام الجميع، افتراسهم، قتلهم جميعًا، كنت أشعر بالخوف والقلق والقوة في لحظةٍ واحدة، استيقظت فلم أجد إلا الأخ الأصغر لأبي، كان يصغره بعشرة أعوام، صحبني لمنزله وبعدها علمت بأن أبي قرر قطع علاقته بي والتوقف عن مساعدتي في مواصلة تعليمي، ثم التبرؤ مني؛ تكفَّل عمي بمصاريفي الخاصة، لا أُنكر لقد كان بمثابة الأب بالنسبة لي، كان يعيش مع زوجته وابنته الوحيدة، كانت معاملته اللطيفة معي تعذب ضميري لأنني وفي نفسي كنت أتمنى قتله، ليس هو وحده بل كل من لهم علاقة بأبي، كان يعاملني بلُطف لأنه يعرف تمامًا قسوة أبي وغلاظة وجفاء قلبه. بعد أن تجاوزت مرحلة الثانوية العامة قررت الاتجاه إلى سوق العمل، رفض عمي هذه الفكرة لكن إصراري ورغبتي في إنهاء رحلتي الدراسية كانت أكبر وأقوى من رفضه، بعد محاولات عديدة وافق ووعدني بتوفير فرصة عمل في أقرب وقت ممكن. عملتُ لفترةٍ قصيرة في أستوديو تصوير يعتبر من أكبر مراكز التصوير في مصر نظرًا لشهرته الواسعة في الأوساط الفنية، في البداية كنت مساعدة للمصور، ومع الوقت تعلمت التصوير، توطدت علاقاتي مع الزبائن وبدأت في التدرج حتى أصبحت المسؤولة عن

الأستوديو، انتقلت حياتي إلى منعطفٍ آخر، لا أفكر إلا في العمل وإرضاء عمي وزوجته اللذان ساعداني كثيرًا على تجاوز هذه المرحلة الهامة في حياتي خصوصًا بعد انقطاع الوصل بيني وبين أهلي. في الحقيقة أنا أكذب، لقد أوهمت نفسي أنني تجاوزتها بالفعل لكن هذا لم يحدث، لقد قطعتُ على نفسي أشواطًا كبيرة في القوة بينما كنت أستحق أن أنحني قليلًا، أميل وأسقط، لكنني لم أفعل، ظللت قوية لأطول فترة ممكنة، خبأتُ مشاعر الاحتياج لأبٍ وأُم في هذه المرحلة الصعبة من حياتي. فجأة ظهر في حياتي شخص يُدعى (**عمّار المنسي**) مخرج شاب معروف، كان لطيفًا في البداية ـ كل الناس في بداياتهم لطفاء لا تتوقع منهم الأذى أبدًا ـ حاول بشتّى الطرق الاقتراب مني لكنني كنت دائمًا أضع الحواجز بيني وبين نفسي ليبتعد عني، كنت أخشى اقترابه مني حتى لا يتأذى من حياتي المفخخة، لا أنكر أنني كنت أريد أن يقترب لينقذني من وحل وحدتي واكتئابي، لكنني كنت أتراجع دائمًا. بدأ يزاحم أحلامي في الحياة، يتبادل معي الروايات، يسألني عن اهتماماتي في الموسيقى، الأماكن التي أحلم بزياراتها، اقترب مني حد معرفة تلك الدعوات التي دعوتها سرًا إلى الله، كان الوضع معقدًا، أستمتع وهو يحاول الاقتراب مني وأستمتع وأنا أهرب منه، ويؤذيني في نفس اللحظة الرقص بتلك الطريقة المؤلمة. بطريقةٍ أو بأخرى بدأ يومي يرتبط به بشكلٍ كبير، كنت أريده دائمًا هنا

بجواري، لكنني أخشى عليه من الأذى، لم يكن بمقدوري إلا الاستسلام لهذه اللعبة من الكر والفر، الوقوف في المنتصف بين الزواج والصداقة، لا أنكر لقد أحبني الكثير، كنت أعرف أنني جاذبة للحب والإعجاب، لكن هذا كان يجذب أحلامي معه أيضًا، الحب الشمولي ذو الخطوط العنكبوتية المتشابكة، فكلما هربت منه تعثرت في خيطٍ من خيوطه فعدتُ له مستسلمة بكل إرادتي. تطورت علاقتنا بشكلٍ كبير، كان تطورها مذهل ومرعب في نفس الوقت، استمرت علاقتنا عامين، خلالهما بدأت في تطوير ذاتي وحياتي العملية، كنت فتاة حالمة وكأي فتاة لم يؤمن بها أهلها آمنت بوجوده في حياتي، بدأنا معًا في تحقيق أحلامنا وودَّعتُ حياتي القديمة وأصبحت أقوى أكثر من أي وقت مضى، ظل هذا الوصل بيننا، التلاعب بين الكلمة والأخرى، نستمتع ونتألم ونقترب ونبتعد، حالة من النشوة والرغبة والحب، لكنني كنت لا أثق فيما سيحدث مستقبلًا، كنت أعرف أن حتمًا سننتهي. لست امرأةً سوداوية ولا يمكن اعتبار تفسيري للأمر مذهل، لكنني كنت تعيسة الحظ دائمًا مع الحياة، هي لم تحبني وأنا أتقبل أنها لا تناسبني، كنت أعرف أننا سنفترق مهما أقسم على البقاء ومهما حاولتُ إثبات عكس ذلك، في كل مرة ألتقي به كنت أتمنى لو كان بإمكاني معانقته عناقًا طويلًا يُشبع رغبتي في البقاء معه لأطول فترةٍ ممكنة، في كل مرة كنت أنتظره حتى يرحل أولًا لأتابعه بالنظرات، كنت

أودعه في كل مرة خوفًا من أن لا أراه مرةً أخرى، لم يبخل عليّ بمشاعر الطمأنينة والحب، لكنه لن يفهم أنني ولدتُ بقلبٍ محطم، تنزلق الأمنيات من بين يدي وتضيع أحلامي في الفضاء رغمًا عني. في الكثير من الوقت كان يعاتبني على مخاوفي، كان هذا يعذبني أكثر لأنني أعرف أنه يستحق الطمأنينة والحب، تمنيتُ لو وقع في غرام فتاة أخرى، فتاة لا تعرف الخذلان، لم تبكِ يومًا من الظلم والفقد، لم تتعثر في بداية حياتها هذا التعثر الذي جعلها أشبه بامرأة في الستين من العمر، كان لا يصدق أنني لوحة جميلة، لا يصدق أن هذا الجمال الذي أنا مرغمة ومجبرة عليه وادعائي القوة ليس لأنني قوية، وأن ثباتي ومواصلة الحياة أمر حتمي علينا، كان لا يفهم أنني ورغم رغبتي في الحب والود لكنني أريد أن أستريح قليلًا، أرتاح من المعركة التي علقتُ بها من طفولتي لإثبات أنني لستُ بهذا السوء الذي اعتقد الناس عني، أن حاجتي في الحياة لم تعد أكثر من كرسي متحرك وموسيقى هادئة وربما رواية أو كتاب صغير يسرقني بتفاصيله وعباراته، كان لا يفهم أنني أخشى الأيام الحزينة ولا أثق في الأيام السعيدة التي حتمًا ستحتاج إلى التعب من أجل الفوز بها، لم أستطع إخباره أنني حتى لا أقوى على السعي وراء الأشياء الممكنة التي أمامي، وأنني منهكة تمامًا من كل شيء حولي، أردت الراحة وهذه المرة لم تكن الراحة في الحب، كانت رغبتي في أن تتوقف الحياة نفسها عن العمل، أن تكف

الأرض عن الدوران، وينتهي الوقت ويختل مقياس العمر، كنت أشعر بيأسٍ لا يطاق، في كل قُبلة لقاء تنهيدة فراق، في كل وردة جميلة شوكة تؤلمها، والفراشات الملونة تخفي حقيقتها الرمادية الباهتة، هو لم يصدق أنني في هذا العمر لا أومن بالزمن نفسه، هو لم يصدق أنني فقدت القدرة على مواصلة الحياة بشكلٍ طبيعي، كان يستحق امرأة أفضل مني، كان يستحق أن يبدأ حياته مع فتاة لم تتألم من قبل وتعلمتْ الحياة من النصائح والكتب، ولا يستحق فتاة تعلمتها من التجارب والمواقف القاسية، كنت أقول له دائمًا: أنت مُمتن لوجودي في حياتك، ليس لأنني فتاة جميلة أو مختلفة، لكن امتنانك الوحيد أنني ابتعدتُ عنك لتنضج، لتعرف أن الحب ليس سببًا كافيًا للزواج، ليست كل الأمنيات التي نريدها بقوة نفوز بها، وأن الأشياء ليست دائمًا كما تبدو، وأننا نفرط أحيانًا في الأشياء التي نحبها ونريدها من قسوة التعب. كان امتنانه الوحيد الذي لم يدركه أنني علمته أن الحياة في غاية القسوة والتعاسة والحزن. في النهاية لم يتحمل هذه الفلسفة في الحب، ما كان يؤذيني أنه اعتبرني امرأة ترفض الحب، ولم يفهم أنني امرأة لم تتمنَ في حياتها أكثر من الحب، لقد أردتُ الحب في كل شيء وكل خطوة في حياتي، أردتُ أن يحبني أهلي وأصدقائي، كل الأشياء حولي أردت أن تحبني وتعاملني بلطف، لكن كان لكل شيء ضريبة ينبغي عليّ دفعها، والشيء الوحيد الذي نجوت به في الحياة هو

الصمت، إنني أستقبل كل شيء بصمتٍ تام كما لو أنني لا أكترث له بينما هو في الحقيقة يغلي قلبي ويعذبه، إنني أجيد التعبير عن الحب بالصمت، تجرعت الصمت في الخذلان، في الصدمات، في الخيبات، وكم يطالبنا الحب بمجهودٍ نفسي وذهني لنسمح له بالمرور على قلوبنا!. كان يقول دائمًا أنني لو أحببته لما نظرت إلى الحياة بتلك النظرة، أن الحب يقتحم القلوب رغمًا عنا. هذه القاعدة استثنائية على أية حال، الحب يساعدنا على النهوض لكنه لا ينهض بنا، ما دمنا لم ننهض من الداخل فستكون محاولاته تعيسة ومؤلمة، إن الحب نفسه لا يقوى على اقتحام قلبٍ مُهتَرِئ ومُهشَّم تمامًا، قلب يخشى البقاء وحيدًا ويخشى الزحام، يريد أن يتوقف ويأمل كل يوم في شغف يعيد له الحياة نفسها، وكان قلبي طفل مزعج تضربه الحياة بالصدمات فيضرب جسدي الهزيل المتهالك من الركض في الطرق المجهولة التي دهستنا بنهايتها التعيسة.

توقفت للحظة بعد أن ابتسمت ابتسامة فقدِ محطمة الآمال، داعبت خصلات شعرها:

- لم أسمح لتلك الحال أن تستمر طويلًا، واصلتُ حياتي بقوة، لم أترك فرصةً للحزن يسيطر على أحلامي، وواصلت الحياة سرًا بأنني مهزومة في الأهل وأضعف من مواجهة الحب، واصلت القوة بينما كان قلبي يتآكل بعدما أفقدني أبي الثقة في كل الرجال، تطورتُ بسرعة أكبر في مجال التصوير، بدأت

بالتفكير الفعلي في الاستقلال عن الحياة مع عمي وعائلته، كنت أعمل طوال الوقت من أجل الحرية، أفكر طوال الوقت في كيف أحقق أحلامي مهما كلفني الأمر. بالفعل قدمتُ استقالتي وأسستُ مكانًا خاصًا بي، ولشهرتي الواسعة في مجال التصوير بدأتُ بتكوين مجموعة من المصورين وبدأنا بتغطية المحافل والمؤتمرات والمهرجانات المحلية. ودَّعتُ عمي وعائلته وأصبحتُ أملك منزلًا خاصًا بي. للمرة الأولى أنا حرة! أرتدي ما يحلو لي، أغني، أرقص، أضحك، أنام وقتما أريد وأستيقظ وقتما أشاء، حياة لطالما أردتُها وحُرمت منها، ظننت أنها مستحيلة لكنها تحققت، وكنتُ أعقل من الاستمتاع بهذه الفترة، قضيت ثلاث سنوات لا أفكر إلا في مواصلة التقدم. عاد الحلم القديم يداعبني، وبالفعل انضممتُ لأحد المراكز التي تُعلم رقصة الباليه، لكنني ووسط كل تلك النجاحات شعرت بالفقد، الونس الذي افتقدته كثيرًا في حياتي، وتدريجيًا عادت علاقتي بـعمّار الذي أصبح من أهم المخرجين في مصر، بدأنا نتشارك حياتنا بطريقةٍ أكثر نضجًا، لم أقطع علاقتي بعَمّي فلم أنسَ أنه أنقذني من المجهول الذي كان ينتظرني بعدما تبرأ أبي وأمي وأخوتي مني، حافظتُ على الوصل قدر المستطاع، تطورت أكثر في مجال الرقص وتضاعفت ثورتي المالية، اتجهت لمجال التمثيل وعروض الرقص العالمية، تغيرت حياتي بشكلٍ كام، التغيير الذي لطالما حلمتُ به. وبعد فترة

طويلة طلبني عمار للزواج، اتفقنا على كل شيء، طلبتُ عمي على الهاتف وبالصدفة أقسم أنه كان سيطلبني اليوم ويدعوني على العشاء في منزله، وافقتُ على الفور، وبالفعل ذهبت إلى المنزل الذي احتضنني وكان سببًا في كل الأحداث العظيمة التي حدثت لي بعد طفولتي القاسية، رحبوا بي ترحيبًا حارًا، لم يتغير المنزل كثيرًا، كل شيء كما هو أو ربما أحببت أن أراه هكذا لأحتفظ بآخر ما تبقى من طفولتي. في تلك الليلة كان عمي صامتًا بطريقة مريبة، لم أفهم هذا السر، كنت أتحدث مع زوجته وابنته عما يدور في الحياة بشكلٍ عام، بينما كان يجلس هو في حالة صمت وترقب، وأصرت زوجته على المبيت معهم، في الحقيقة لم أُمانع فلقد كنت أنتظر الفرصة المناسبة للتحدث مع عمي عن عمار، وبعد أن ذهب الجميع للنوم، خرجت إلى الشرفة حتى لحق بي عمي الذي لاحظ أنني لن أنام تلك الليلة، وقف بجواري ثم قال: **«أنا فخور بكِ يا سارة»**.

رددتُ وأنا أُقبل كتفية:

ـ **«لولاك ما حدث كل هذا، أنا مدينة لك بحياتي»**.

ابتسم ثم قال:

ـ **«لربما حان الوقت لرد هذا الدين!»**.

قلت ببراءة:

ـ **«كيف أستطيع فعل هذا؟!»**.

فاجأني بالرد:

- «والدكِ ينتظر عودتك».

باستنكار يغلب عليه السخرية:

- «أنا الآن أمامه!».

لم تتغير ملامحه الجادة:

- «لا، أقصد والدكِ الحقيقي، أخي يشتاق لرؤيتك».

رددتُ:

- «منذ متى يحب إمام مسجدنا رؤية العاهرات؟!»

نظر إليّ بقسوةٍ ثم قال:

- «لم أُربي وأحافظ على عاهرة يا سارة!».

تنهدتُ:

- «أبي، أنت تعرف أن هذا اللقاء مستحيل، لن أوافق؛ إنني ما زلتُ أتذكر كل أفعاله القاسية معي، لم ولن أحتاج إليه!».

قال بهدوء:

- «هو يحتاج إليكِ».

قلتُ بسخرية:

- «سمعتُ أنه أصبح مُقدمًا في أحد البرامج الدينية، هل يحتاج لمادة جديدة في تشويه ووصف النساء بالعاهرات والساقطات؟!».

رد بجدية:

- «الأمر أكبر من اعتقادك».

قاطعته:

- «على أية حال أريد الحديث معك عن أمرٍ هام، عمار المنسي المخرج المعروف يريد الزواج مني وأنا أراه مناسبًا، أنت تعرفه جيدًا»

رد:

- «لنُفكر في لقائك بوالدكِ أولًا!»

بدأتُ أستشيط غضبًا:

- «عمي، أنت تعرف مكانتك في قلبي وتعرف مدى احترامي وامتناني الكبير لك، لكن هذا الرجل الذي تعتبره أبي تسبب في كل المأساة التي حدثت لي، أنت لا تفهم، أنا لا أثق في أي رجل، أنت لا تعرف كم كافحت من أجل أن أُثبت لنفسي وله بغروره وكبريائه أنني لست عاهرة وأن بإمكاني أن أنجح وأحقق ما أريد، كل تلك السنوات لم يسأل عني، كل تلك السنوات لم يجرؤ أي من أخوتي على الاتصال بي، هذا الرجل وغد...»

هنا صفعني على وجهي، كانت المرة الأولى التي يصفعني، تذكرت أبي وقسوته، تذكرت الأحداث التي مررتُ بها. خرجتُ من الشرفة باكية، ارتديت ملابسي ثم نزلت مرة أخرى إلى الشارع وعدتُ إلى منزلي دون أن أُودعه. قبل هذا اليوم ظننت أنني قوية، لكن ما إن عدت إلى المنزل حتى سقطت من فرطت الآلام، لقد سقطت وجعًا وضعفًا على نفسي، كنت أشعر بالشفقة عليها ومنها، لقد ظننتُ أنني حقًا قوية لكن أنت تكتشف حقيقة ادعائك للقوة بعد أن تنهار مرة أخرى، كنت في حاجة لعناقٍ طويل لأنني وللمرة الأولى أستطيع أن أقول أنني

وحيدة، أستطيع الاعتراف أنني أضعف مما أظن، وأنني قضيتُ سنواتٍ في ادعاء قوة كاذبة.

صمتت سارة لثواني، أشعلت سيجارة أخرى ثم واصلت:

- مرت الأيام سريعًا، وبعد إصرار عمار على الزواج أخيرًا وافقت وقبلت الزواج منه، لم يكن زواجًا رسميًا، قررنا أن نتزوج (عُرفي) مؤقتًا حتى تهدأ الأجواء مرة أخرى. في نفسي كانت رغبتي في الانتقام تتزايد وتكبر، كنت أواصل نجاحي من أجل إعداد قوة أكبر للفتك بأبي وأمي وأخوتي. مر عامين على زواجي من عمار، أستطيع أن أقول أن الحب لم يكن دافعًا كافيًا لمواصلة الحياة، لكنه على الأقل يطمئنك بأنك لن تحارب وحدك، لن تخوض صراعًا وحدك، ولن تنهزم وحدك، كان هذا الشعور وحده يكفيني في الحياة، شعرت بالحب والامتنان لهذا الرجل الذي ساعدني كثيرًا على تجاوز أيامي الصعبة، كان يشاطرني الحزن والسعادة، كان بمثابة الأب الذي حرمت منه والأخ الذي تبرأ مني وصديقي الوفي المخلص دائمًا، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، انحدرت حياة عمار العملية، وسلسلة فشل في أعماله السينمائية جعلت المنتجين يبتعدون عنه، تراجع غريب حدث في حياته العملية، ضربته نوبة اكتئاب قاسية حتى عرض عليّ الطلاق خوفًا من تأثري بهذا التعثر المفاجئ، ولا أنكر أنني فكرت كثيرًا في الأمر، لكنني لم أحب في حياتي إلا هذا الرجل فكيف أتخلى عن رجلٍ لم يتركني للحظة

في ظلامي وتعاستي؟! كنت أكره العالم وأحب هذا الرجل الذي دعمني وساعدني كثيرًا؛ اقترحت عليه أن يعمل معي، في بداية الأمر رفض الفكرة، لكن بعد إصراري المستمر كان عليه الموافقة لاستمرار الحياة. بدأ عمار بالعمل معي، وثقت به وأعطيته كل شيء، توسعنا في مجال التصوير أكثر، أصبحنا نملك أكثر من شركة في مجال الإعلانات، كان عمار يحمل العمل على عاتقه، أصبح المسؤول عن أغلب المهام والتعاقدات، لكن وبلا سبب وبعد عام واحد تغير سلوك عمار تدريجيًا، بدا عنيفًا سريع الغضب، بدأت أتابع الجداول المالية واكتشفت أن ثمة مصاريف وخسائر مجهولة في القضية، لم أشك في سرقته لي فهو ليس من هذا النوع أبدًا، لكنني كنت أتابع سلوكه الغريب، وأخيرًا اكتشفت أنه أدمن الهيروين، واجهته بالأمر لكنه أنكر وواصل إنكاره، وبعد فترة من المراقبة أوقعت به وهو يتعاطى المادة السامة، انفعل ثم انهال عليَّ بالضرب حتى أفقدني الوعي تمامًا كما فعل أبي، كان يضربني بقسوةٍ غريبة لم أرها منه في حياتي. وبعد أن استيقظت تفاجأتُ بوجودي في أحد المستشفيات الخاصة، كنت أشعر بثقلٍ في بطني، حتى أخبرتني الطبيبة أنني فقدت الجنين! سألتها باستنكار:

ـ «أي جنين تقصدين؟!»

قالت وهي تحاول مواساتي:

- «لقد كنتِ في الشهر الثالث من الحمل، لكنكِ فقدتِ الجنين بعدما اعتدى عليكِ اللص الذي حاول سرقة شقتك»

قلت لها:

- «أي لص؟! أنا لا أفهم شيئًا!»

ردت:

- «هذا ما أخبرنا به زوجكِ الأستاذ عمار».

كدتُ أُجَن! لم أنتظر الوقت المسموح للخروج، طلبت عمار على الهاتف لكنه كان مغلقًا، فعدتُ إلى المنزل لكن لم يفتح لي أحد، وإلى الشركة وهناك رفض الأمن دخولي بحجة أن الشركة لم تعد ملكًا لي. كنت أقود السيارة بسرعةٍ جنونية، وكأنني أبحث عن ابني الضائع، كل شركاتي لم تعد ملكًا لي، حتى الأستوديو لم يعد باسمي، لم أفهم ما حدث، كنت في حالة سخط وغضب، لم أفهم أكثر من أنني تائهة. كان يومًا ملعونًا، لم أكن أملك إلا منزل عمي الذي قررت هجرانه قبل أعوام، عدتُ إلى هناك محطمة تمامًا، واستقبلني عمي استقبالًا باردًا وله كل الحق، سألته عن عمار فأقسم أنه لا يعرف عنه شيئًا، وبعد يومين من البحث الجنوني عن عمار تواصلت مع المستشار القانوني للشركة ودعوته إلى منزل عمي وبالفعل حضر في الموعد المحدد. سألته عما حدث وهنا كانت المفاجأة حين قال:

- «قبل أسبوعين اتصل بي عمار وطلب إجراءات نقل ملكية الشركات لشخصه ولأنه كان يملك توكيلًا مثبتًا يحق له البيع والشراء لم أمانعه، وبالفعل بدأنا في الإجراءات وتم كل

شيء، بعدها علمتُ أنكِ تعرضتِ للاعتداء من لص حاول اقتحام وسرقة المنزل، وأنكِ قررتِ بيع الشركات إلى شخصية ما معروفة، فأنهينا كل الأعمال والميزانيات الخاصة، وبعدها علمت بأن الشركات قد بيعت لشخصٍ ما معروف وذو ثقل في الوسط الإعلامي، لكن العقود كان باسم شخصٍ آخر مجهول. أنهيتُ آخر ما تبقى من أعمالي مع عمار بعدما قدم لي مكافأة كبيرة جرَّاء العمل الكبير الذي أنجزنا في أيامٍ معدودة، وبعدها علمت أنه قد غادر البلاد لكن قبل أن يغادرَ اشترى أحد القنوات الدينية ثم أهداها إلى داعية إسلامي معروف لكنني لا أتذكر اسمه...«

قاطعته بغضب:

ـ «إلى خطاب الشامي! صحيح هو خطاب الشامي!»

رد المستشار القانوني:

ـ «نعم، على ما أتذكر هو والدكِ، أليس كذلك؟!»

صرختُ في وجهه وانقضضتُ عليه، كنت أريد أن أشرب من دمائه، هؤلاء العصابة القذرة. أنقذه من بين يدي عمي، كنت أصرخ، أحطم كل شيء حولي، أضرب الأرض بقدمي ورأسي في الحائط، كنت في حالة جنون، وبعدها فقدت الوعي مرة أخرى.

تنهدت سارة ثم واصلت:

ـ بعد أن استيقظت يا مدكور، تفاجأتُ بوجودي في منزلي القديم، نعم منزل عائلتي القديم، خرجت من الغرفة منهكة تمامًا أحاول فهم ما يحدث، لم يكن أحد في المنزل، الأبواب

مغلقة والنوافذ مغطاة بأسلاكٍ حديدية عتيقة. جلست على الأرض وانهرتُ تمامًا، في يومٍ واحد انقلبت حياتي رأسًا على عقب، كنت أبكي وأبكي حتى أيقظتني أقدام أبي وهي تهز رأسي. كانت لحظة لا تنسى، اللقاء الأول بعد أعوام كثيرة، بعد كل تلك الأحداث الآن أنا أمام الشخص الذي أجاد إيذائي بكل طرق الأذى الممكنة، النقطة الفاصلة في حياتي. أسندتُ ظهري إلى الحائط، كان يقف أمامي بهيبته وطول قامته وملابسه الدينية التقليدية:

- **«طال انتظار هذه اللحظة!»**
- «لم أتمنها أبدًا، كنت أحمل هَم لقائي بك يوم العرض أمام الله»

ركلني بقدمه:

- **«لم تغِب نظرتي عنكِ منذ لحظاتك الأولى في الحياة، كنت أعرف أن العار سيلاحقني أينما ذهبتِ»**

قلت له في غضب:

- **«أنت مدعي، أنت تدعي الإيمان والتقوى بينما في عقلك وقلبك قبح وسواد العالم، سرقت تعبي وأحلامي والآن تحدثني عن العار! أنت العار»**

ابتسم ثم قال بسخرية:

- **«لو أردتُ قتلك الآن لفعلت، لكن الموت رفاهية لا تستحقينها. بالمناسبة عمار شاب رائع، لكنه لا يقدر الأشياء**

الثمينة التي معه، لم تطُل المفاوضات معه، كان سهلًا، وافق على التنازل عن كل شيء سريعًا...»

همهم ثم واصل:

- «**حتى وضع الهيروين في طعامكِ كانت نقطة فاصلة وطال الحوار بيننا حول تلك الخطوة، لكن في النهاية الأموال تحكم كل شيء، كذلك الطبيب الذي كتب في تقريرك الطبي أنكِ مدمنة هيروين وأن الحادث لم يكن بالضبط اعتداء من لص، بل كان أثناء شِجار مع عمار زوجكِ الذي حاول منعكِ من تناول جرعة إضافية خوفًا على الجنين، لكنك سقطتِ على الأرض ومعه حدث الإجهاض، مع الأسف..»**

صرخت في وجهه:

- «**أنت تكذب! أنت تكذب!**»

واصل بسخريته القذرة:

- «**المعذرة! عمار رجل مسالم جدًا، لقد وافق على طلاقكِ سريعًا بعد أن استقر في تركيا وتزوج من امرأة تعرفينها، الجميع يعرفها. صحيح أن الزواج قد حدث سرًا، لكن في المقابل أحبَّ العمل هناك في إحدى شركاتي الخاصة. أُحب هذا النوع من الرجال»**

- أصابتني نوبة جنون، فقدتُ الوعي حتى استيقظتُ هنا يا مدكور في مستشفى الأمراض النفسية وعلاج الإدمان، لقد اشترى كل شيء حتى ذمتك...

قاطعها مدكور:

ـ هراء! بعد التحليلات والكشف على دمك أنتِ بالفعل مدمنة للهيروين!

ضحكت:

ـ والآن، متهمة بقتل ليلى العدوي! صديقتي الوحيدة هنا! الوحيدة التي استوعبتني وتقبلتني كما أنا! الوحيدة التي عرفت أسراري وقصتي كاملة عندما أتتُ إلى هنا، وكانت تؤمن أنني مظلومة. في أيامها الأخيرة تغيرت بعض الشيء، تجنبت الحديث معي رويدًا رويدًا، لم أتحمل هذا الوضع وسألتها لكنها كانت تائهة، كانت تائهة وتهرب مني.

في صباح اليوم المشؤوم التقيتُ بها في المسرح وكنا نجلس وحدنا، كانت نبرتها وملامحها غريبة ومتوترة وكأن شخص ما يراقبها، اقتربت مني ثم قالت:

ـ «أنا آسفة، آسفة لكل ما حدث».

سألتها عما تعتذر، فردت:

ـ **«أحتاج لحديثٍ طويلٍ معكِ؛ غدًا سأنتظركِ لتناول الإفطار في غرفتي»**

خرجتْ من المسرح ولا أعرف أين ذهبت، كنت أفكر في طريقتها الغريبة وحديثها معي. انتظرتُ مرور تلك الليلة بفارغ الصبر، وفي الرابعة صباحًا استيقظت مثل الجميع على صوت ارتطام قوي بالأرض، لم أستوعب ما حدث لكنني تأكدتُ بعد أن رأيتها غارقة في دمائها. لقد انتحرت! ربما! ربما قُتلت! كل الاحتمالات واردة، لكن أنا آخر

مَن يكون في دائرة الاتهام، أنا أكثر المتضررين من هذا الحادث، لقد كنتُ أنتظر حديثًا طويلًا معها، لكن شيء ما تلك المرة كان مختلفًا عن ذي قبل، كيف أقتلها؟!

تنهد ناصر وأشار إلى مدكور بأنه اكتفى.

واصلت سارة:

ـ هذه هي الحقيقة يا مدكور، قلتُ لك أنت لا تختلف عنهم، أنت مثلهم تمامًا وربما أسوأ منهم، لكن لن يصدقني أحد.

رد مدكور:

ـ وقت لطيف يا سارة، شكرًا لك.

خرج الاثنان من الغرفة ثم انقطع البث وانتهى كل شيء.

صب لنفسه كأس الفودكا ثم قال:

ـ سارة خطاب مسكينة، فتاة قررت الحياة أن تؤذيها بكل الطرق الممكنة يا داوود، أنا لا أستبعد أبدًا أن تكون قاتلة، كل ما حدث معها يجبرها على الانتقام من أي شخص، الضغط والصدمات يولِّدان مثل تلك الأفعال، لكنني في الوقت نفسه أخشى أن تكون صادقة في روايتها عن والدها وزوجها عمار؛ للأسف نحن ملتزمون بالأوراق الرسمية.

بعد لحظات قلت:

ـ أُشفق عليها، فتاة ولدتْ في تلك البيئة القاسية الحادة، ومع ذلك لم تستسلم للهزيمة الأولى، بل واصلت الحياة وكأنها لم تنهزم، رغم حاجتها للحب لم تغرق كانت تعرف كم سيؤذيها الحب وكم ستؤذي به الآخرين، فعادتْ وانعزلتْ

عنه رغم احتياجها لمَن يشاركها وحشة الطريق ويقطع وحدتها، تأقلمتْ على حياة جديدة بعيدة كل البعد عن حياة الطفولة التي لم تتهنَّ بها يومًا. واصلتْ الحلم حتى عاد الحب ليداعبها من جديد، وحين يكون الفارس مُصِرًا على الحرب ينتصر. الحب للشجعاء، ولقد كان بطل حبها هذه المرة رجلًا شجاعًا لم يتركها وحدها، لكن سرعان ما تحولت النفس البشرية وسرعان ما تقلبتْ القلوب، تحول الشجاع لوغدٍ ودنيء، ذئب يلهث خلف المال والمنصب، كالقردة تتسلق فوق أكتاف الآخرين، لكن هذه المرة كان تسلقه على قلبها، روحها وحياتها. ثم أب أشبه بالشيطان، بل أشد خبثًا ودهاءً منه، طفولة ضائعة في اتهامٍ بعارٍ لم تعرفه، ومرحلة مراهقة تائهة مغتربة عن العالم، وشباب استهلك خلف أحلام في السراب، والآن مُتهمة بقضية قتل!. لستُ المُحقق، لكنني لا أُصدق أن فتاة مثل سارة تستطيع حقًا القتل وسفك الدماء.

ابتسم مدكور:

- الآن، لنستعد لتحقيق خالد زيدان، هذا الرجل بالنسبة لي حالة خاصة جدًا، أنت تعرفه، أليس كذلك؟!

رددتُ:

- نعم، التقيتُ به صدفة في إحدى السهرات، لقد كان رجلًا حادًا وعنيفًا وسليط اللسان، شعرتُ وقتها أنه مصاب بجنون العظمة، انفجر نجمَه في سماء الفن ثم اختفى مرة واحدة،

لم أعرف سبب هذا الاختفاء المفاجئ، ولم يسمح لي الوقت بمعرفة حقيقة اختفائه، حتى تفاجأتُ بوجوده هنا.

أشعل مذكور غليونه من جديد ثم قال:

ـ الأمر بدا صدفة، لكن في الفترة الأخيرة جاءتنا الكثير من الحالات من مختلف الأوساط السياسية والفنية وحتى الدينية، خالد زيدان كان رجلًا يختلف عن الكثير، حاد، قاسي، وعنيف، لكن كل هذه الصفات السيئة كانت تتعارض مع كونه رجل مبدع من الدرجة الأولى، كانت رسوماته تعكس وجهًا آخرًا في شخصيته على عكس الصورة التي تظهر أمامنا، شيء في رسوماته كانت يغلب عليه الصفاء والطفولة. ما حدث في حياة هذا الرجل صدمة، حاولتُ الاقتراب منه لكنه مصاب بـ (**البارا نويا**)، وهذا جعله لا يثق في أي شخص بسهولة، هو لا يثق في أي شخص من الأساس، يرى دائمًا كل من حوله يريدون قتله والانتقام منه، ثلاجته دائمًا ممتلئة بأفخم المأكولات والمشروبات وبلا سبب لا يقترب منها يتأملها فقط، رغم أنه في العقد الرابع إلا أنك تشعر وكأنك تتحدث مع رجلٍ في السبعين.

أخرج مذكور صندوقًا من خزانته:

ـ هذه لوحات خالد زيدان الأخيرة، تأملها جيدًا! أُنظر إلى اللوحات! رغم اختلاف أفكارها وألوانها لكن هناك دائمًا شيء واحد يجمع بينها.

صمت مذكور متأملًا اللوحات؛ كانت اللوحات رغم سوداوية ألوانها لكن كلّ منها تحمل معنى مختلف عن الأخرى، وبالنهاية يجمع بينهم شيء واحد، الغموض!

استوقفتني إحدى اللوحات، كانت لرجلٍ ضخم يندفع نحو طفل يختبئ خلف شجرة، اندفاع الرجل لم يكن عاديًا، وكأنه يركض للنيل منه، بينما كانت ملامح الطفل يغلب عليها الفرح والسعادة، وفي يديه دمُية متهالكة، كانت الدمية هي العامل المشترك بين كل لوحات خالد زيدان.

بعد لحظات قال مذكور بهدوء:

- لقد أحببتُ ليلى حبًا أسطوريًا يا داوود، إنني وحتى الآن لا أستوعب أبدًا فكرة أنها لم تعد على قيد الحياة، لم أُعبر بعد عن حزني وانهياري الكامل بعدما رأيتها غارقة في دمائها، تلك التي كنت أتمنى أن أراها تتزين بالأبيض في حفل زفافنا. أنا في وضع صعب، أي محاولة لإظهار ضعفي وحزني الكبير على وفاة ليلى تعني أننا بالفعل كنا في علاقة غير مشروعة! الأفكار تكاد تبتلعني، أنا أحتاج لبقائك معي، أحتاج للتعلم منك.

سألته ساخرًا:

- وماذا تريد أن تتعلم مني؟! لا أستطيع إفادتك في أي شيء!

رد:

- أن أبتلع الفقد.

رددتُ:

ـ نحن لا نبتلع الفقد، نحن نتأقلم عليه، ندرك أن هذا الشعور سيبقى ملازمًا لنا لفترةٍ طويلة، خصوصًا حين نقطع كل خطوط الأمل في العودة، هنا فقدْ نُجبر على التأقلم عليه. بعد كل محاولاتنا لعودة الوصل والود ثمّة أشياء أقوى وأكبر من رغبتنا؛ أنت لا تريد تعلم كيف تبتلع الفقد، أنت تحتاج لتعلم اليأس، هذه ليست خدمة جليلة كما تعتقد، على العكس، ما دمتَ تعاني فأنت بخير، ما دمتَ تصرخ، تبكي، تكتب العبارات الحزينة في مذكراتك الخاصة، تؤثر كلمات الأغاني في قلبك وتتهاوى بين ألحان الموسيقى فأنت ما زلتَ بخير. الكارثةِ حين يضيق بك العالم فلا تجد شيئًا يُشبهك، لا شيء يثير إعجابك، لا شيء يدفعك لمواصلة يومك ومهامك الدائمة. كانت تقول جدتي حين تحزن لا تصمت، اقرأ رواية أو كتاب، شاهد فيلمك المفضل، غنِّ أو أضحك، تعمق في البكاء أو اصرخ بكل ما أوتيت من حزن، اذهب لمكان تجد راحتك هناك، تحدث مع شخصٍ تحبه ولو عن أمور تافهة، ما دمت تجيد التعبير عما بداخلك فأنت ما زلتَ بخير، الكارثة الحقيقية حين تفقد القدرة على البكاء، الكلمات، الصراخ، حين يصبح العالم غريبًا عنك في كل شيء، حتى عن نفسك.

واصلتُ:

ـ أنا أريد مساعدتك يا مدكور، لكن لنفكر الآن في أمر خالد، متى سيبدأ التحقيق معه؟

- في العاشرة من صباح الغد، أتمنى أن يمر الأمر بسلام؛ خالد شخص عدواني جدًا، لا يطيق الضغط ولا يتحمل الكلمات الباردة، الكاميرات موضوعه في غرفته الثانية (معرضه الخاص).

سألته:

- يمكننا الذهاب إلى هناك؟

بعد ثوانٍ من التفكير رد:

- لكن الآن عليك الخروج أولًا منعًا للتساؤلات، وسأتبعك إلى هناك، وإياك أن يراك أحد! المعرض في ركن الفنون الجميلة.

أعطاني المفتاح ثم خرجت متجهًا إلى ركن الفنون الجميلة في المستشفى.

وصلتُ إلى المبنى، كانت جدرانه ملونة بطريقة عشوائية، أسفل كل لوحة اسم لفنانٍ ما مَرَّ من هنا. لم أفكر يومًا في دخول هذا المبنى الغريب الفوضوي.

دخلت المكان، كان عبارة عن غرفٍ متباعدة عن بعضها البعض، على كل باب لوحة معدنية أو كتابة خطية تشير لصاحب الغرفة، الكثير من الأسماء التي أعرفها من محترفي وفناني الرسم، ظللت أبحث عن غرفة خالد زيدان حتى وجدتها في آخر الممر. على أطراف أصابعي دخلت الغرفة، كانت أشبه بالكهف؛ على الجدران رسومات لبيوت قديمة، الإضاءة خافتة صفراء، أدوات تصوير، لوحات ملقاة على الأرض وألوان وأقلام.

واصلتُ اكتشاف المعرض حتى وصلتُ إلى ركنٍ به لوحات معلقة على الجدران بطريقةٍ منظمة، ظللتُ أتأمل اللوحات حتى جاء مدكور، لم يقطع تركيزي بل وقف بجواري في صمت تام. قرأتُ العبارة الأولى أسفل اللوحة: (**هُنا حيث الميلاد**)!.

كانت اللوحة عبارة عن كرسيين أمام بحر عظيم وقت الغروب، طيف الشمس يعكس على الوردة التي تقطع نصف الطاولة الصغيرة والدمية بجوارها!

قال مدكور:

ـ لا أحد باللوحة!

رددت:

ـ الدمُية مرة أخرى!

انتقلتُ إلى اللوحة الثانية، كانت أشبه بتجُمع وازدحام حول شخص ما وطفل صغير يمسك بيديه الدمية مختبئًا خلف شجارة ضخمة، وكُتب أسفلها: (**هُنا حيث التَعَثر**).

قلت:

ـ يبدو أنه مغرم بالدمى!

ضحك مدكور:

ـ ربما!

ما إن اقتربنا من اللوحة الثالثة حتى سمعنا صوت خطوات يقترب من الباب، اضطررنا سريعًا للخروج من الغرفة من الباب الخلفي.

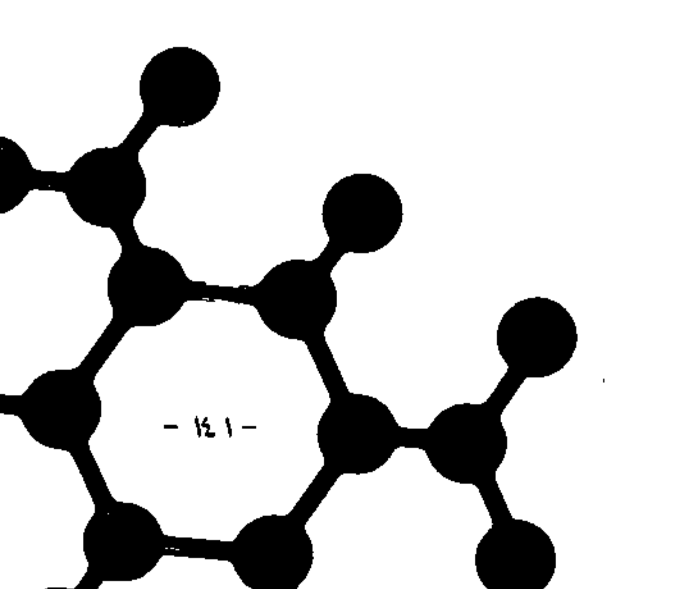
انطلق مدكور إلى البوابة الرئيسية وهو يقول على عَجَل:

ـ عُد إلى الغرفة ولا تخرج منها أبدًا .

ما إن عدتُ إلى الغرفة حتى أرسل لي مدكور رسالة عبر الهاتف:

«سيكون بإمكانك متابعة اللقاء عن كثب، اختبئ في أحد أركان المعرض لتشاهدنا، وحاول أن لا تنكشف. أخبرتُ جيسي أن توقظك في الثامنة صباحًا، ما عليك إلا الذهاب إلى المعرض مبكرًا قبل التحقيق، اختبئ وإياك أن يراك أحد، ولا تنسَ أن تدون وتكتب كل شيء».

الفصل الثالث





«أشعر أنني لستُ على ما يرام، وأنني كل ليلة أنام نومًا سيئًا أسوأ من نومي الليلة التي سبقتها.»

فرانز كافكا.

«آسيا!

لا! هذه أوهام بكل تأكيد.

لماذا ترتدين فستانكِ الأسود؟! أحب هذا اللون!

أنتِ فاتنة كعاداتك، أنتِ دائمًا جميلة!

هل رأيتِ ما حدث معي؟ أعرف أنكِ تشعرين بي.

شعركِ الأسود يثيرني! من المؤسف أنني لا أستطيع تقبيله.

هل تفتقدين النوم بين ذارعيّ؟! أنا أفتقد رأسك الصغير على صدري.

هذه الأيام صعبة، الصعوبة لا تكمن في الأحداث، تعرفين أنني اعتدتُ الخيبات والهزائم، تعرفين أن لديّ قلب مُستهلك، محطم تمامًا، وعقل لا يهدأ ولا يصمت. المؤسف في هذه الأيام أنكِ لستِ هنا، أنكِ لستِ معي.

آسيا، يقولون أنني مصاب بكِ، يقولون أنكِ وهمٌ وخيال لا حقيقة، مثل تلك الأشياء تزعجني وتثير غضبي، أنتِ هنا أمامي الآن، أنتِ هنا في قلبي وللأبد. ألا يكفي أن أشعر بكِ؟ لماذا أحتاج لظهوركِ معي أمام الناس؟! ألا يكفي أنني أراك وقتما أحتاجكِ؟

آسيا!

لماذا تبتعدين؟ لماذا أنتِ دائمًا صامتة!

لماذا لم تتحدثي معي ولو لمرةٍ واحدة؟!

إنني أفتقد رائحة جسدكِ، صوتكِ، تنهداتكِ وضحكتكِ العالية، أفتقدكِ يا آسيا.»

ـ داوود! داوود!

أيقظني صوت جيسي.

سألتني:

ـ أكان حلمًا أم أنها نوبة تخيلات جديدة؟

ابتسمتُ لها:

ـ كان حدثًا جميلًا، يكفي أنني رأيتها.

ضحكت جيسي وهي تعطيني الدواء:

ـ لم أركَ بعد لقائك مع مدكور! على أيةِ حال لقد كان يومًا مليئًا بالأحداث، لن يسعني الوقت لأخبركَ بها. أردتُ أن أقول لك أن مدكور بلَّغني أن أوقظك!

سألتها:

ـ كم الساعة؟

ردتْ وهي تخرج من الغرفة:

ـ الثامنة صباحًا.

صمتُ لثواني وغدوتُ في أفكاري...

الأيام التي تنتهي بلقائي مع آسيا تنتهي أسرع مما أتخيل، ما إن أراها حتى يمر اليوم مرورًا لحظيًا في لمح البصر، وكأنها تأتي لتزيح عبء وثقل الأيام.

نهضت من سريري، واستعديتُ للذهاب إلى المعرض، كانت الصعوبة في أن أتجه إلى هناك دون أن يراني أحد؛ خرجتُ بهدوءٍ تام، لم يكن أحد في الحديقة، ربما إجراءات أمنية!

وصلتُ المبنى ثم سريعًا دخلت معرض خالد زيدان، كان الاختباء مهمة شاقة، لكن وراء الصناديق يمكن إيجاد مكانًا مناسبًا للاختباء، بالفعل وجدتُ ضالتي، وبدأتُ في التأهب والانتظار.

بعد دقائق دخل مذكور برفقة ناصر إلى المعرض وجلسا في الركن الخارجي، كنت أسمع صوت ناصر الذي غلب عليه الإرهاق:

- أتمنى إنهاء التحقيق سريعًا. بالمناسبة، لقد حققتُ مع زيدان قبل خمسة أعوام في قضية رسوماتٍ مسيئة إلى بعض الشخصيات العامة، أتمنى أن لا يتذكرني.

رد مذكور بثقة:

- لن يتذكرك.

مر الوقت بصمتٍ تام حتى دخل خالد زيدان متجهًا مباشرة إلى المعرض دون أن يكترث لوجود مذكور وناصر، جلس على أحد الكراسي ثم بدأ بسخرية:

- انتهى التحقيق مع سارة خطاب والآن حان وقت التحقيق معي! مسكين ناصر؛ مجبر على سماع قصص كل المتهمين حتى التي لا تفيد من أجل معرفة القاتل.

تلعثم ناصر ثم قال:

ـ أعرف أنك شخص ذكي.

قاطعه:

ـ حسنًا، لو سألتني سأقول لك أن هذه ليست الطريقة الصحيحة، لكنني سأشارك في الأمر كنوع من التسلية، ومدكور يعرف جيدًا أنني لستُ القاتل.

رد مدكور:

ـ لكن بعض تصرفاتك تزيد الاتهامات حولك!

تنهد خالد ثم قال:

ـ لأنني أنقل الوعي في اللوحة. السؤال الأهم هو (**مَن يصنع كل الأحداث التي دفعتنا إلى الوعي والإدراك؟!**). ولدت في منزلٍ لا يعرف للاستقرار طريق، البداية كانت دائمًا تكمن في الأهل، أبي ذاك الذي أحَلَّ لنفسه كل نساء العالم ولم يعامل أمي باللطف الذي تستحقه، أبي الذي كان أبًا للجميع ويبخل عليّ بلمسة أُبوة واحدة. بدأ الأمر غريبًا؛ في البداية كنت أذهب إلى المدرسة في طفولتي أرى معاملة الآباء لأبنائهم ثم أتساءل سرًا: مَن قرر أن لا أكون مثلهم؟!. كنت أقضي أيامًا من اليُتم في الوقت الذي كان أبي كان بجواري حَي يرزق، تمنيتُ أن يموت أبي! هل تفهم ما أقصده؟! أن يتمنى طفل وفاة والده وهو نائم بجواره فقط لأصبح على حق! كان وجوده الغائب أشد قسوة من الغياب نفسه...

قاطعه مدكور:

ـ أنت تكره الآباء، وهذا سبب عدم رغبتك في الزواج!

رددت بسخرية:

ـ أخشى أن أكون زوجًا خائنًا وأبًا قاس الطباع؛ لقد كنتُ موهومًا بأبي في البداية، أراه رجلًا عظيمًا، يعمل طوال الوقت من أجل توفير احتياجاتنا المنزلية، يعامل أمي بلُطف ويعاملني بدلال ومودة، كلما خرجتُ معه إلى الشارع أرى الناس يحبونه ويعاملونه باحترام وحُب، كان صديقًا للجميع، لا يحمل ذرة كُره أو نفاق لأي شخص، أب تشعر بالفخر لمجرد أنه أباك، كنت أقول لأمي دائمًا أتمنى أن أكون مثل أبي، إنني أراه شخصًا عظيمًا، أنتظره كل يوم أمام باب المنزل، أستقبله بعناقٍ طويل وقُبلة، يوم إجازته كان يومًا خاصًا بالنسبة لي، أستيقظ مبكرًا، أُحضر له الجريدة، أُعد الإفطار مع أمي، أتأمله، أحببتُ أبي حبًا عظيمًا، فلقد كان بمثابة القدوة والمثل الأعلى بالنسبة لي.
حتى جاء اليوم الملعون، يوم قررت أمي المبيت عند أقاربنا في بلدةٍ قريبة من بلدتنا، ولانشغالي بامتحانات الصف الرابع بالمرحلة الابتدائية تركتني مع أبي، في هذا اليوم خرجتُ من الامتحان مبكرًا، لم يكن هناك من ينتظرني كالعادة، عدت إلى المنزل، وما إن عدتُ حتى سمعتُ صوتًا في غرفة أبي، هرولت إلى الغرفة فلقد كنت أفتقد أمي، لكن كانت صدمتي حين رأيتُ أبي وبين ذراعيه امرأة تتأوّه! لم أفهم وقتها لماذا

تتألم! لكنني كنتُ أراها عارية تمامًا. ما إن رآني أبي حتى نهض واختبأتْ المرأة، لم أسلم من أذى أبي يومها؛ بكبرياء طفلٍ يُحب أمه قلتُ: «**سأُخبر أُمي بكل شيء**». انقض نحوي وصفعني على وجهي صفعات متعددة وهو يتلفظ بألفاظ لا أذكر منها إلا «**سأقتلك**»، كان يواصل ضربي بقسوة وعنف، أمسك بحزامه الجلدي الخشن وبدأ ينهال عليَّ بكل قوة، حتى شعرتُ بالدماء وهي تدفق من جسدي الصغير، طفل مثلي وقتها أدرك معنى الجَلد! بل واصل أبشع أنواع التهديد، فوضع سكينًا على النار ثم أخرجها وبدأ يحركها على أنحاء جسدي، كنتُ أشم رائحة جلدي وهو يحترق، أسمع صوت النار وهي تلتهم جلدي الضعيف، كان يجلس على بطني وينظر في عينيّ وهو يتلذذ بعذابي، يلعنني ويسبني بأفظع الألفاظ وأبشعها، كنتُ أُمَزَّق وأُعَذَّب وأصرخ حتى اختفى صوتي تمامًا، الصمت فقط.. الصمت. المضحك أنه عندما عادت أمي وأفزعها هول جسدي وآثار التعذيب برر أبي فعلته بأنه وجد علبة سجائر في غرفتي، لكن لم تُصدق أمي كلماته، كان الأمر أكبر من هذا، كانت تنظر إليّ أمي منتظرة أن أدافع عن نفسي، لكن كانت نظرات أبي هي الأخرى أشد قسوة، كان يتوعد لي بتكرار ما حدث بتلك النظرات الحادة، لم أرد، بل عدتُ إلى غرفتي باكيًا، لم يسمح لي أحد بالدفاع عن نفسي. قضيت أيامًا أستيقظ من نومي بثياب مُبتلة من قسوة ما أرى في منامي، من قسوة الكوابيس أنا

لم أنم طوال حياتي بعد تلك الليلة! طفل مثلي كيف يتحمل كل هذه الآلام والظلم دون أن يبدي أي اعتراض؟! حتى أمي التي كنت أحبها تغيرت مكانتها في قلبي رغمًا عني؛ ليس أسوأ من شعور الظلم، أن تشعر أنك لا تستطيع الدفاع عن نفسك، لأنك لا تملك الكلمات المناسبة أو لا تملك الحث على الكلام. كانت أمي مولعة بأبي للحد الذي يجعلها تُكذب عينيها حين تراه يُلاطف غيرها من النساء، هذا الولع الذي ظلمني. ظلت نظرات أبي تتابعني أينما ذهبت، حتى في غيابه لم أتعافَ منه، كان كالشبح، لا تراه لكنك تشعر به حولك في كل مكان. بسبب ما حدث فقدت الثقة في الجميع، كنت أشعر وكأنني منبوذ من الكُل، لا أصدقاء لي، لا أقارب، أنا الطالب المجتهد الذي يُطيع ويسمع أوامر والديه أينما ذهب، والديه اللذان كانا سببًا في تعاسته الأولى. حاولتُ تجاوز هذه الرغبة اللعينة التي كانت تدفعني لتخيل مشهد قتله، حاولتُ التجاوز بكل الطرق الممكنة حتى ليلة امتحان الثانوية العامة، كنا على طاولة العشاء حتى قال أبي:

- **«غدًا بداية امتحانات الثانوية، أنت تعرف حلمنا، أليس كذلك؟!»**

رددت:

- **«سأفعل كل ما في وسعي».**

رد أبي بغضب:

- «**وأقصى أقصى ما في وسعك، هذه المسألة غير قابلة للتفاوض، لن أسمح لأحد أن يقول ابن زيدان العلايلي فشل في الثانوية العامة! إن لم تحقق حلمنا فلا تعود إلى المنزل...**»

قاطعته أمي:

- «**الأمر أبسط من هذا، أنا أثق في خالد**».

هممتُ:

- «**أنا لا أثق بأي شخص**».

- مرت تلك الفترة في غاية القسوة، كنت أحاول جاهدًا كتابة إجابة نموذجية، كنت أعرف أنني لن التحق بكلية الهندسة مهما حدث، لكنني كنت أحاول، ليس رغبةً مني، بل خوفًا من أبي الذي ظل كل تلك السنوات يتابعني بنظراته، وكلما سمحت الفرصة يذكرني باليوم الملعون. ما زلتُ أتذكر جيدًا تفاصيل الليلة الأخيرة قبل ظهور نتيجة الثانوية العامة، بعد أن انتهينا من العشاء، وقبل أن أغدو في النوم طرقت أمي باب غرفتي، جلست على سريري، وكما أحب وكما هي تعودتْ داعبت بأناملها خصلات شعري قائلة:

- «**غدًا يوم مهم لنا يا خالد، لا يهم ما سيحدث، الأهم أن تتأكد وتكن على يقين من أنني أحبك، أحبك جدًا أكثر من أي شيء في حياتي. لا يهمني أي شيء، فالأمر أكبر من درجاتٍ تُحدد مستقبلك، لا تجعل هذا كل همك، اجتهد يا بني وافعل كل ما في وسعك ودع الأمر بيد الله، وتأكد**

أنني بذلت أقصى ما في وسعي لأوَفر لك كل سبل الراحة والهدوء، تأكد أنني تحملتُ ما لم تدركه ولن تستوعبه ولن تفهمه الآن، ليس من أجل تحقيق حلمنا في الالتحاق بإحدى كليات القمة، لكن لأوَفر لك استقرارًا أسريًا كانت ضريبته أكبر مما تتخيل. كن بخيرٍ يا بني دائمًا، ولأجلي كن بخير».

- عانقتني عناقًا طويلًا، كانت ترتجف وتتنهد بصعوبة...
- «**أمي! ماذا حدث؟**»

ردتْ:

- «لا شيء، أريدك أن تكون بخيرٍ فقط، كن بخير، أنا فخورة بك وأعرف أنك أكبر وأقوى من الجميع، ابني الذي لا يقهر. تأكد أنني أراك ومنذ طفولتك بطلًا في قصتك، كن دائمًا أنت البطل، لا تقبل أن تعيش حياتك مجني عليه أو بدورٍ فرعي، كن أنت البطل لأنك تستحق أن تكون بطلًا يا خالد. الآن نَم ولا تفكر بشيء، فغدًا ينتظرك يوم شاق. أُحبك، ابني الذي لا يقهر، أنا أُحبك.«
- كانت كلمات غريبة لم أفهمها ولم أستوعبها. قَبَّلتْ رأسي ثم خرجت، لم أفكر كثيرًا في كلماتها وغدوت في نومٍ عميق منتظرًا ظهور درجات تحدد مستقبلي. ظهرت نتيجةُ الامتحانات وسط أجواء ترقُب أشد ما يقال عنها أنها فرصة مناسبة لانتقام أبي مني، الانتقام الذي ينتظره، والذي لا أعرف سببه، فقط هو يكرهني لأنني أعرف حقيقته. حصلت

على ٧٥٪، نسبة تجعل أبي ينتقم مني مرة أخرى، أتذكر يومها ظلت أمي تتصل بي كثيرًا، لم يتصل بي أبي مرة واحدة، كأنه كان يتوعد في صمتٍ وهدوء. جلستُ على شاطئ مدينتنا، ربما كانت تلك المرة الأولى التي أفكر فيها بالانتحار، كنتُ مستعدًا لتقبل أي شيء في سبيل أن لا أقع فريسة مرة أخرى لأبي. بدأ الظلام يسيطر على المكان والوقت تأخر، أبي ينتظر وأمي بلا شك يرتجف قلبها خوفًا عليّ، وما بين العودة إلى المنزل والخضوع لقسوة أبي وذله، وما بين البقاء في الشارع وانتظار مصيري من سرقة، اعتداء، أو حياة مشردة مع المتسولين.

- تعرف يا مدكور! حين شعرتُ بالوحدة لم أجد ضالتي إلا في الشارع؛ أحيانًا تكون شوارعنا أكثر طمأنينة من منازلنا، جدران الشارع أحيانًا تكون أكثر استماعًا لنا من أولئك الذين من المفترض أن يكون دورهم الاستماع لنا؛ حين تشعر بالخيبة تجد الشارع أول من يحتويك، حين تشعر بالغربة لن تجد ضالتك إلا في الأزقة، في العبارات المكتوبة على جدرانها، حين يغلب عليك التعب تجد الأرصفة وحدها متكأً لجسدك الهذيل ورأسك المثقل بالأفكار وقلبك المحطم. إنني أعرف جيدًا معنى أن تكون تائهًا للحد الذي يجعلك تمشي في الشارع بلا هدف، بلا طريق، لا تبحث عن شيء، لا تنتظر أحدًا، لا أحد ينتظرك، أنت فقط في طريقك نحو اللا شيء تترك لنفسك حرية المشي للهروب من

سجنكَ الخاص في صدرك، للفراغ وللصراعات اليومية التي لا تنتهي. حين ضاق العالم لم أجد إلا الشارع يتسع لي، ولم أشعر بنفسي إلا بعدما سمعتُ صوت أحد عمال القطار يُربت على كتفي وهو يقول: «**استيقظ يا بني، وصلنا القاهرة!**».

تنهد خالد، ثم عاد لصمته وكأنه يستعيد ذهنه من عالم الذكريات.

لم يسمح مدكور باستمرار حالة الصمت، فسأله:

ـ هل تود الاستمرار بالحديث؟

لم يرد خالد، فواصل مدكور وهو يبتسم:

ـ نحن صُنع مواقف الطفولة، البحث وراء الحقيقة يكمن في الكواليس خلف ما يراه المشاهدون، بين الكلمة والأخرى. لقد مررتَ بموقف جعلك تؤمن أنك ستكون رجلًا خائنًا لمجرد أن أباك سلك وخضع لهذه الفطرة الدنيئة، إيمانك وأنت قد تجاوزتَ الأربعين عامًا من الأساس مبني على حدث ما في طفولتك جعلك تؤمن بهذه الفكرة حتى الآن، لربما هذا ليس صحيحًا!

قاطعه:

ـ لا أحب تلك الطريقة في الردود!

واصل وكأنه يواسي نفسه:

ـ أُشفق على نفسي، قدرتي على تذكر أدق التفاصيل، كلما حاولت التجاوز تعثرتُ بذكرياتٍ أخرى تجعل النسيان فكرة مستحيلة، كيف لهذا الرأس الصغير أن يتحمل كل هذا الكم من الذكريات التي لا تنتهي، ذكريات لم يعد لها أثر، لم يعد

لها وجود إلا في ذاكرتي. كنت أصغر من تحمل كل هذا الظلم دون أن يدافع عني أو يصدقني أحد، كنت أصغر من فهم معنى الخيانة والكذب، وطفل مثلي لم يكن يستحق أن يشعر بالظلم ويفهم معنى أن ينام وهو يحلم بالانتقام في الوقت الذي كان من المفترض أن يكون حلمه الوحيد الحصول على لعبةٍ جديدة! إنني لا أتبرأ مما حدث بعد طفولتي، لكن أقسم رغم أن عمري لم يتجاوز تسعة أعوام وقتها لكن كنت أشعر أنني في الستين من العمر! انتهت طفولتي في طفولتي، وهنا تكمن المشكلة، أنني لم أقضِ مرحلة الطفولة من الأساس، خرجتُ من بين ذراعيّ أمي إلى ذراعيّ القسوة والظلم على العالم، والعالم لا يرحم من تضطره الحياة لمواجهته.

سأله ناصر في ملل:

- وبعد أن وصلت إلى القاهرة ماذا حدث لك؟
- أنت تستدرجني إلى الغضب!

رد مدكور:

- الغضب صفة أساسية من صفات الإنسان، لكن لا يهم، ماذا حدث؟

بشعور العجز أكمل ما حدث:

- كان الوقت متأخرًا، لم أستوعب أنني هنا وللمرة الأولى، بعيدًا عن أهلي، بعيدًا عن مدينتي، في بلدةٍ جديدة لا أحد يعرفني ولا أعرف أحدًا، هذا الشعور لم يبتعد عني يومًا؛

كنتُ أشعر بالوحدة والغربة حتى وأنا في منزلي، لكن هذه المرة أنا بعيدٌ تمامًا عنهم. كنا في منتصف الليل، والقاهرة بعد منتصف الليل جميلة ومفزعة، وشاب مراهق مثلي لا يعرف أين يتجه، والمال خير رفيق وصديق في هذا المأزق، وبعد وقتٍ طويلٍ من البحث عن فندقٍ يناسب أموالي البسيطة مكثتُ بأحد الفنادق القذرة في رمسيس، يومين وحدي أجلس على سريرٍ متهالك وسط البراغيث والحشرات الصغيرة، أفكر في خطوتي التي اتخذتها دون أي تخطيط مُسبق، قررت فجأة الابتعاد عن مدينتي خوفًا من جحيم أبي الذي ينتظرني في الإسكندرية. في اليوم الثالث شعرت بالقلق على أمي، إنه ذاك القلق الذي يضرب قلبك فجأة بلا سببٍ واضح! أعدتُ تشغيل الهاتف من جديد وتفاجأتُ بأن أمي لم تتصل بي خلال الثلاثة أيام الماضية، كذلك أبي! بدأ القلق يراودني أكثر، اتصلتُ بها فلم ترد، ترددتُ كثيرًا قبل أن أتصل بأبي لكنني فعلت لأطمئن عليها رغم قسوة ما ينتظرني من توبيخ وسبٍ ولعن، لكن لم يرد على مكالمتي أيضًا! كنت في حيرة من أمري، هل أستمر بالبقاء بعيدًا عنهم أم أعود لأطمئن عليها بنفسي؟! وبالأخير قررتُ العودة إلى الإسكندرية. أعرف معنى أن تصمم على قرار ما في حياتك ثم تشعر بالقلق على أحدهم فتعود عن قرارك، والأم أقوى درع وحماية للرجل من العالم، لكنه أضعف من أضعف نقاط ضعفه أيضًا. في الشارع كانت نظرات الناس تلاحقني،

لا أحد يبتسم لي، يهمهمون في سخطٍ شديد، نظراتهم عدائية ومريبة! شيء ما قد حدث في غيابي لا أعرفه، لكن يبدو أنني المسؤول عنه! من الشارع إلى المنزل، طرقتُ الباب ولم يفتح أحد، كانت أمي من عادتها أن تترك مفاتيحها الخاصة تحت عتبة الباب لربما أعود إلى المنزل ولا أجد أحدًا، وبالفعل وجدت مفاتيحها الخاصة في مكانها المعتاد. دخلتُ المنزل، من الصالة إلى المطبخ بلا جدوى، لربما في الشرفة! أمي هل أنتِ هنا؟! لا أحد! إلى غرفتي، فهي تحب النوم في غرفتي حين أغادر المنزل، لم تكن في الغرفة، لكن كانت هناك ورقة على الوسادة، تجاهلتها لأواصل البحث لربما تكون في غرفتها لكن خابت ظنوني، عدت إلى الغرفة وأمسكت الورقة وبدأت في القراءة: «عزيزي خالد، ابني الوحيد العزيز، من حسن الحظ أنني أكتب إليك هذا الخطاب بعد خروج والدك من المنزل، أعرف سعادتك حين أقول لك أن والدك ليس هنا، هذه ليس قضيتنا الآن. أريد أن أقول لك أنني أحبك، وأنني أصدقك دائمًا، أعرف أنك لست شخصًا اجتماعيًا، وأعرف أنك لا تملك أصدقاء، وقسوة معاملة والدك لك أفقدتك الثقة في نفسك وفي من حولك. قرأتُ ما كتبته في مذكراتك عن والدك، ربما لن تغفر لي لكنني لم أصدق رواية والدك الكاذبة في أنه انهال عليك بالضرب المبرح لمشاغَبةٍ في مدرستك أو لأنه وجد علبة سجائر في غرفتك، هو ليس من هؤلاء الآباء الذين يخشون على مستقبل أولادهم، كنت

أعرف منذ اللحظة الأولى أنه يكذب، لكنني تظاهرتُ بعكس ذلك خوفًا من التفكك الأسري الذي لطالما حاولتُ تجنبه. كنت أعرف أن والدك رجل خائن، لم يكتفِ بي، لم يكتفِ بامرأة واحدة أبدًا، لكن اعترافي وتصديقي لروايتك يعني طلبي الطلاق، والطلاق يعني تفكك الأسرة البسيطة التي جاهدتُ من أجل استقرارها، وأنت لن تفهم أبدًا معنى أن تستكمل امرأة حياتها مع رجلٍ خائن وتصدقه وتفضله على ابنها الوحيد خوفًا من هدم هذا الاستقرار التعيس. ما يؤسفني أنني كنت شريكة ولو بالصمت في هذه المعاملة القاسية لك، لم أدافع عنك يومًا، لم أعترض، كنت امرأة كتومة لا تملك إلا الصمت من أجل فكرة سخيفة تدعى (الاستقرار)، وأعترف أنني كنت مخطئة. ما يؤلمني أنني لم أُشعرك يومًا بالحب رغم كل الحب الذي تحمله لي في قلبك، ما يؤلمني أنني لم أستطع التعبير عن مشاعري بالطريقة التي تستحقها، كنت أعاملك بقسوة وحدة أحيانًا خوفًا من أن يلاحظ والدك تعاطفي معك، كان يقول أنه يحاول تربيتك تربية الرجال، لطالما عارضته في تلك التربية القاسية الحادة، لكنه لم يقتنع يومًا. كان يكرهك، نعم يكرهك لأنك تعرف حقيقته، والآباء لا يحبون مصارحة أبنائهم بالحقيقة مهما كانوا صادقين مع أنفسهم. صدقني يا بني أنا أشعر بك، كنتُ في كل ليلة أسمع صوتك وأنت تبكي، لكنني كنتُ أقف على باب غرفتك عاجزة، فلقد كنت أخشى قسوة والدك

وتعنته الشديد معي، كنت أراك وأنت تتحدث مع دميتك عما حدث عن معاملة والدك الجافة لك، كنت أسمع صوتك وأنت تتحدث مع القمر عن الأشياء المزعجة التي تحدث لك كل يوم، لكنني كنت أقف عاجزة عن إنقاذك من تلك الوحدة المؤلمة. أنا أثق أن ثمة من ستأتي يومًا لتشاركك وترافقك أيامك الطويلة، يا بني القوي الذي لن ينهزم أبدًا. اليوم ظهور نتيجة امتحانات الثانوية العامة، وبالصدفة اليوم أيضًا هو ميعاد عملية استئصال الورم الخبيث -السرطان- في رأسي، ذاك المرض المعلون الذي خبأته عنك طوال هذه المدة حتى لا تشعر بالقلق عليَّ، لا يهم ما يخبئه لنا القدر، سواء حققت ما أردتَ والتحقتَ بكلية الهندسة أو لم تلتحق لا يهم، أنا فخورة بك على أي حال. لتغفر لي يا ولدي صمتي الطويل، وتأكد أنني كنت أُمَزَّق كل يوم وأنا أحاول أن أبدو ثابتة وعادية أمامك، ولتدعُ لي كثيرًا. وإن لم تنجح العملية وقدّر الله أن يحرمني منك فتأكد أنني بذلتُ أقصى ما في وسعي لأحافظ عليك وعلى استقرار منزلنا كما قلت لك مسبقًا. اغفر لي يا بني، وتأكد أنني قضيتُ حياتي في سبيل أن تنعم باستقرارٍ عائليّ يساعدك في تحقيق جزء من أحلامك التي ومع كل أسف فُرضتْ عليك. أُمك التي أحبتكَ سرًا.»

ورحلت أمي، بهذا الهدوء وتلك البساطة، الرحيل المفاجئ الذي لم تتخيله يومًا. صحيح لم تكن علاقتنا قوية، لم نتحدث كثيرًا، لم

تكن صديقتي أو أختي الكبرى، كانت أمي فقط، لكن وجودها وحده كان يطمئنني. لم أنطق حرفًا بعد تلك الرسالة، لم أبكِ، ظللتُ صامتًا مُتسمرًا في مكاني، أتنفس بصعوبة، أطرافي تتشنج ولا تقوى على الحركة، ورأسي أثقل من أن تحمله كتفي المتهالكة، لا أعرف بالضبط كم مر الوقت على تلك الصدمة، كنت في حاجة لزيارتها، لوداعها الأخير، فلم أتمالك نفسي إلا وأنا أمام قبرها في مدافن عائلتنا، لم يكن أي من أفراد عائلتنا هناك. إنها لحظة لا تُنسى، أن تقف أمام أقرب شخص لك في الحياة ويمنعك عنه التراب، لا تسمع صوته، لا تستطيع معانقته، فقط أنت هنا تقف أمامه دون أن تلمسه ويلمسك، تتحسس قبره بأناملك المرتعشة، تحاول أن لا تجهش بالبكاء فتسقط الدموع من عينيك رغمًا عنك، تحاول تمالك أعصابك لكنك تنهار حين تتذكر اللحظات التي كان يبتسم لك فيها، اللحظات التي مرت عليك دون أن تعانقه أو تتحدث معه وتشبع أذنيك من صوته وكلماته، تلعن كل لحظة كان أمامك فيها ولم تتأمل ملامحه أو تنتبه لتنهدات حُزنه وهشاشته ونظرات الوداع المتقطعة، تضيق بك الأرض، تشعر بالخوف كما لو أنك في معركة وحدك ضد الجميع، لا أحد يطمئنك، لا أحد يدافع عنك، تحاول السيطرة على نبضات قلبك التي تكاد تخترق صدرك الممتلئ بالبكاء وأنت تقرأ بعض آيات القرآن وشفتاك ترتجف وترتعش، لا تصدق أنك تقرأ وتدعو لمن كان يدعو لك كل يوم، الذكريات التي جمعتكما والآن أصبحت مدفونة بين حبات التراب الممزوج بالفقدان الأبدي الذي لا رجعة منه أبدًا، كنت أبكي والبكاء في تلك اللحظة أشبه بابتسامةٍ على نكتةٍ سخيفة لم تعجبك. الشمس

كانت أضعف من أن تُدفئ جسدي المرتجف الذي كان يرتعش من قسوة ما أشعر به، أنظر حولي فلا أحد سوى أنا وتعاستي وذكريات لا تنتهي، لا صوت أعلى من صوت تنهدات حزني، لا صوت أعلى من ضربات قلبي القاسية.

لم يكن الرحيل يومًا الحل الأنسب لعلاقتنا يا أمي، لم تنبهيني حتى قبل رحيلك، لم تخبريني بما عليّ أن أفعل، كان غيابي لأعاقب لأبي لم يكن لأعاقبكِ أنتِ، كنت أريد أن تكوني بخير دائمًا، كنت أراقبك كل يوم لأطمئن على صحتك دون أن تلاحظي اهتمامي اليومي، الكثير من كلمات الحب لم أنطقها، لم أخبركِ بها، الكثير من المشاعر الصادقة ظلت مكتومة في صدري خوفًا من أن لا تصدقيني أو تسخري منها. لم أنتهِ من حبي لكِ ولم أعبر عن مشاعري لكِ، قبل أن أصرخ أمام العالم أنني لم أحب امرأة مثلما أحببتك يا أمي.

ركعت على ركبتي واجتاحتني نوبة بكاء وأنا أُقبل قبرها: أمي، هيا بنا لنعود إلى منزلنا إنني أفتقدك، لا تحزني لم أحقق حلمكِ لكنني سأحقق كل آمالكِ وأحلامكِ عني، إياكِ أن تتركيني لأبي مرة أخرى، أنتِ تعرفين كم هو قاسي، لننهض يا أمي، إنني أشتاق إلى المنزل، أشتاق لطعامكِ، لا تنسي أنني أحب الكثير من الملح في الطعام، بالمناسبة، المعكرونة بقطع الدجاج رائعة لكنني لا أحب الدجاج يا أمي، لقد حل الشتاء، أعدك لن أنسى معطفي مرة أخرى، صدقيني أنا لا أدخن وبريء من رائحة السجائر التي تشمينها كل يوم في ملابسي، الساعة الآن السابعة مساءً هي بالفعل السابعة ليس كما كنت تدعين كل صباح وتقولين أننا أصبحنا في السابعة وقد تأخرتُ على المدرسة بينما

هي في الحقيقة لم تتجاوز السادسة، لا هي الآن السابعة بالفعل، هيا يا أمي لننهض معًا، أشتاق إليكِ!

كان رحيل أمي الصدمة الثانية التي حلت على حياتي، أقصد الصفعة الثانية التي لن أنساها أبدًا. نهضتُ بثقل العالم، كانت مهمة صعبة فأطرافي لا تريد مغادرة قبرها، لكن بعد محاولات عديدة نهضتُ. من بعيد، ظهر شخصٌ يقترب مني، اللعنة! ظننتُ في البداية أنه أبي، لكن ما إن اقترب حتى تأكدتُ أنه ليس هو، بل كان أحد أقاربنا الذي لم ألتقِ به كثيرًا، وقف أمامي وتأمل ملامحي..

ـ «البقاء لله يا خالد، أنا ابن خال والدك، علي قاسم«

تنهد خالد ثم نهض ووقف أمام اللوحة:

ـ علي قاسم، رجل الأعمال المعروف، من الوهلة الأولى يستطيع التغلب عليك بهيبته وهدوئه، يحسم أي قرارٍ لمصلحته قبل بدء المفاوضات، الرجل المثالي للتفاوض وحسم الأمور الطارئة. بدأت قصتنا في هذا اليوم، بعدما عرض عليَّ العمل معه في إحدى شركاته، لم أتردد في اتخاذ القرار ووافقتُ، كنت في حاجة للهروب من كم المسؤوليات والضغط والصدمات التي تنتظرني. تغيرتْ حياتي تدريجيًا، واقعيًا هدأتْ وتيرة الحياة معي رويدًا رويدًا، انقطع الوصل بيني وبين أبي بعدما قرر ترك المنزل لي واستقرَّ هو في القاهرة. لم نتحدث عن أي شيء، لم نتبادل كلمات الحزن والمواساة والعزاء، كان لكل منا طامته الكبرى. رغم كرهي الشديد لأبي لكنني كنت أعرف أن وفاة أمي خنجر مسموم

وضعه القدر في قلبه؛ الحب يجعلنا أفضل، يحول صفاتنا الشيطانية إلى صفاتٍ طفولية لـم تلوّث ولم تُدنس بصفاتنا التي نكتسبها من الحياة، الحب الكبير في قلبه لم يهزم طبيعته في الخيانة، وكـأي رجل شرقي أدرك قيمة هذا الحب بعد أن افتقده تمامًا؛ نحن معشر الرجال لا ندرك قيمة النساء اللاتي في حياتنا إلا بعد رحيلهن عنا، مهما أقسمنا بأننا ندرك قيمة الحب جيدًا. لم ينجح الحب في تحويل أبي ذاك الوحش الجائع إلى طفلٍ وديع لا يؤذي أحدًا كما يحدث في الأفلام الأجنبية، ولّم تكن أمي الجميلة التي أثرت في الوَحش. كانت أيامي مع علي قاسم مميزة، العمل طوال ساعات النهار، ثم الرسم، الرسم وحده بعد منتصف الليل، أُعبر عن كل ما يحدث بداخلي، عن كل مشاعري السلبية، الحزينة، السخط والفقد. تطورت علاقتي بـعلي قاسم، كان رجلًا مثالي من الدرجة الأولى، حكيم ومتفاهم بشكلٍ كبير، وأكثر ما كان يجذبني لشخصيته هو حبه للفنون بشكلٍ عام. في يوم دعاني إلى فنجان قهوة بمنزله بعد انتهاء العمل، لم أترَدد، وقتها كنت في حاجة لاقتحام عالم هذا الرجل الذي يملك أهم صفتين بالنسبة لي (**الثراء والفن**)، المزيج الأفضل على الإطلاق في الحياة، هكذا ظننتُ أن هذا كل ما يملكه، حتى كان لقائي بـ ابنته (**جميلة**)، اسمها وحده كان أصدق تعبير عنها، لم تكن أجمل فتاة رأيتها، لكنني لم أرَ في حياتي جمالًا بتلك الإثارة والدفء، تتمنى أن تقضي

معك ليلة حب على شواطئ فينيسا وتراها وكأنها ابنتك التي عوضك الله بعد سنين من العقم والجفاء والقسوة، فور أن رأيتها اجتاحتني رغبة في الرسم، في التأمل الطويل في أدق تفاصيل ملامحها، لربما الكتابة عنها أو الغناء وهي تتمايل حافية بين ذراعيك، الرغبة في معانقتها ثم البكاء، الصراخ، أو طبع قبلة على جبينها ثم النوم الطويل بين ذراعيها على أمل أن ينتهي العالم هنا.

توقف خالد فجأة ثم نظر إلى مدكور:

ـ أنت تعرف هذا جيدًا يا مدكور.

نظر ناصر إلى مدكور:

ـ أنت تعرف جميلة؟

ضحك خالد ولم يسمح لمدكور أن يرد:

ـ ومن لم يعرف جميلة؟ أنت تعرفها أيضًا يا ناصر، لكنك لن تتذكرها.

تطورت علاقتي بجميلة خصوصًا بعدما باشرت العمل معنا في الشركة كنائبة لوالدها، هي الفتاة التي يقع في غرامها كل من يراها، ملامحها الهادئة كفيلة بأن تمتص كل لحظات غضبك، سكينة ملامحها وكأنها تملك حُسن العالم، كانت اجتماعية جدًا، هي تلك التي ربما كتب عنها الشاعر فاروق جويدة: «**لو أن إبليس رآكِ لقبّل عينيك ثم اهتدى**». تبادلنا الموسيقى، الصور، أعجبتها لوحاتي، وأعجبتني كل تفاصيلها الخاصة، اختيارها للأشياء، الحيوانات التي أحبها، أسباب غرامها بالأبيض والوردي، ضحكتها التي تختلف بين

الحب، الخجل، الشغف، والسعادة، أحببت اهتمامها الطفولي بالأشياء التي تحبها، تطلق عليهم الأسماء، رأيتها تتحدث مع هاتفها، وفي حقيبتها دُمية لا تفارقها، رأيتها صدفة ومنذ هذا اليوم وقعت في حب الدُمية وصاحبتها. أكثر ما كان يميزها لين قولها، كانت تعانق العالم برقتها وردودها الطيبة، تريد أن تتحدث معها طوال الوقت وأنت تثق أنها لن تجرحك بكلماتها مهما كان حديثها تقليدي وعادي، تعطي رونقًا لكل الأشياء العادية فتتحول إلى سِحر، تعيد الأرض الصماء بستان من الريحان والياسمين. سرًا كنت أراها وهي مشغولة في العمل، فأرسم، أرسم لأجلها، وما أجمل أن تقع موهبتك في حب حبيبتك، كنت أنتظر اللقاء اليومي لأستمتع بالجمال والأنوثة والحب، ارتوى قلبي من الحب كما ارتوت أرض أهل مصر بعد سبع سنواتٍ عجاف. لم أعترف بمشاعري لها، لكنني غيرت كثيرًا من الأشياء لأجلها، توقفت عن شرب النبيذ، اهتممت بملابسي، كانت تزعجها رائحة السجائر فتوقفت عن التدخين، الرجل حين يعشق يتحول بشكلٍ كامل، يتغير تمامًا، هو الحب الذي يجعلك شخصًا آخر. أحببتها سرًا، كانت لقاءاتنا السرية في غاية الجمال، كنا نلتقي على شاطئ مدينتنا حيث الجمال والهدوء والحب، أصدقاء! عشاق! لم يكن تحديد العلاقة أمرًا ضروريًا، كان يكفي أن نكون معًا. كنت واقعيًا، أعرف أن زواجنا أمر مستحيل، لذلك قررت الاحتفاظ بمشاعري لها سرًا، أقصد أن لا أعبر بمشاعري أبدًا لها مهما حدث، لكن الحب ثوري لا يمكن إيقافه، ظهر واعتلى الحب كل صفاتي، وحدث ما لم يحدث معي أبدًا، اكتفيت بها عن العالم. كانت فترة رائعة في كل شيء، اتفقنا أن ألتحق بالجامعة

وأواصل تعليمي مرة أخرى، خطوات رائعة، أردت أن ينتهي العالم في هذه الفترة خوفًا من الصدمات، لكن الحياة لم تكن مثالية أبدًا كما تمنيت وظننت. وفي ليلة من ليالي ديسمبر الملعون، اتصل بي (**علي قاسم**) وبنبرة في غاية الجدية قال:

- «أظن أننا في حاجة للحديث عن بعض الأشياء الهامة، غدًا في العاشرة صباحًا سأنتظرك في (**مقهى عمر الخيام**)».
- طلبتُ جميلة على الهاتف، كان صوتها يرتعش، أخبرتها بما حدث فحاولتْ أن تطمئنني وانتهت المكالمة.

في الصباح كان اللقاء، ظهر (**علي**) في غاية الهدوء، وبعد حالة صمتٍ طويل قال:

- **«خالد، أنا أُومن لك، أقصد كنت أومن بك. لا أملك في حياتي سوى جميلة، ابنتي الوحيدة، ولقد اعتبرتك منذ اللحظة الأولى أخًا كبيرًا لها، آمنتك على منزلي، أموالي، وعائلتي، واعتبرتك فردًا مهمًا منا، لكنك لم تصُن العهد ولا الأمانة».**
- سألته باستغراب:
- **«ماذا حدث؟!»**

بعد صمتٍ جديد أخرج من حقيبته صورة:

- **«هل لديك مبرر لهذه الصورة؟!»**

تلعثمتُ وتاهت الكلمات؛ كانت الصورة تجمعني بجميلة في لحظةٍ رومانسية، إنها واحدة من صورنا الخاصة التي لم ننشرها على مواقع التواصل الاجتماعي وقررنا الاحتفاظ بها. واصل علي:

- «أظن لا يوجد مبرر لخيانة الأمانة؛ من الآن وحسب انتهت علاقتي بك، ولحفظ ماء الوجه قدّم استقالتك من الشركة لأسبابك الخاصة. جميلة لا تعرف عن تفاصيل هذا اللقاء، وأرجو ألّا تعرف أبدًا».

قاطعته:

- «الأمر لا يحتاج إلى كل هذا، أريد الزواج منها!»

وقتها ضحك ضحكة في غاية السخرية ثم قال:

- «الناس لا يقدرون النعم، ويرفعون سقف أحلامهم وطموحاتهم بشكلٍ مبالغٍ فيه. خالد، أنت ابني، لكن لا تنسَ أنني أنقذتك من الفقر والضياع، لا تنسى أنني أنقذتك من الوحل بعدما قرر والدك قطع علاقته بك لأنك ابن فشل في تحقيق حلمه».

شيء من الإهانة لمس قلبي، فثرتُ:

- «أنت تعرف جيدًا أنني شخصٌ مكافح، أستطيع العمل طوال اليوم من أجل حياة أريدها، تعرف أنني شخصٌ مسؤول ومجتهد؛ لا أجد سببًا منطقيًا لرفض طلب زواجي من جميلة، فعن المستوى الاجتماعي أنت مثلي تمامًا، بدأت من الصفر والآن تتعالى بما حققته بعد أكثر من ثلاثين عامًا!»

بهدوئه المعتاد، وبعد أن ارتشف رشفةً من فنجان قهوته قال:

- «لستُ هنا لأُعلمك كيف تتعامل مع شخصٍ في مكانة والدك، لكنك لا تعرف أيضًا الظروف والعقبات التي

واجهتني في شبابي لأصل إلى ما وصلتُ إليه، ثم إنها مسألةٌ أخلاقية!»

رددتُ:

- **«هي تحبني، كيف ستمنع رغبتها في بقائها معي؟!»**

ضحك ثم قال:

- **«المسألة متعلقة بي، هي لا تزال في مرحلة المراهقة لا تدرك المستقبل الذي ينتظرها، لا تدرك الخطط التي رسمتها لها، أنت أيضًا لا تعرف عن كل هذه الأشياء. ثم مَن قال أن الزواج شرطه الحب؟! الحب مرحلة في حياة كل شخص، ملايين القصص العاطفية انتهت بتلك البساطة ولم تتوقف الأرض عن الدوران»**

قلت في غضب:

- **«أنا أيضًا ينتظرني مستقبلٌ مُشرق في الفن!»**

رد ساخرًا:

- **«مشكلة الموهبين أنهم موهومون أكثر؛ إياك أن تظن أنك فنان بارع، أنت هاوٍ ولن تكون إلا مجرد هاوٍ».**

نهضتُ دون أن أستأذن ورحلت.

انتهى اللقاء، وانتهى كل شيء يجمعني بـ علي قاسم. قدمت استقالتي بالفعل، واتصلت بجميلة، ولن أنسى كلماتها أبدًا، كان صوتها يرتعد وهي تبكي وتتلعثم:

- **«خالد، لا تقلق، أنا معك، سنتجاوز ما يحدث وما سيحدث، لا يهم كم سنستغرق من الوقت لنتجاوز هذا التعثر، لكننا**

سنفعل، لا تقلق سأدافع عن بقائنا مهما حدث، إنني أريدك ولن أتنازل عنك بسهولة، لنفعل كل ما في وسعنا للحفاظ علينا، لنعمل، نكافح، ونصلي لأجل البقاء، أحبك.»

ضحك خالد ساخرًا:

ـ عادت الطمأنينة إلى قلبي مرة أخرى، اعترفت جميلة بحبها ومشاعرها في أشد الأوقات خطورة وقلق، في أشد حاجتي للطمأنينة ظهرت هي لتزرع السكينة في قلبي. لم أسمح للقلق أن يسيطر عليّ، وجدتُ عملًا آخر، صحيح كان أقل بكثيرٍ من طبيعة عملي مع علي قاسم، وواصلتُ تعليمي، وبدأتُ تطوير نفسي في مجال الرسم، قررتُ الانتقام من عليّ ومحاربته. مر عام على علاقتي بجميلة التي استمرت سرًا، لكنني قد لاحظت أن جميلة تغيرت، ظهرت عليها ملامح التعب والشقاء، لم تعد بروح الطفلة المعتادة، أصبحت ضحكتها باهتة ومكسورة، أهملت في صحتها ونفسها، كانت لا تخبرني بما يحدث لكنني كنت أرى التغيرات الكبيرة التي تحدث لها، انطفأت جميلة في بداية شبابها. صدقًا فكرت كثيرًا في إنهاء تلك الحرب، والموافقة والخضوع لسلطة والدها والاستسلام للأمر الواقع بدلًا من رؤيتها تنهار يومًا بعد يوم وتتساقط تدريجيًا، فترة من الحيرة بين البقاء معها وأنا أراها تنطفئ من أجلي، وبين الاستمرار معها وأنا أرى كل يوم عقبات جديدة في طريقنا. وذات يوم استيقظتُ على رسالةٍ منها: «**الوضع لا يُحتمل،**

لقد قرر أبي أن أغادر البلاد وأستكمل تعليمي في ميونخ، لم يسمح لي برفاهية الاختيار، وقطع عني كل وسائل الاتصال، لا يمكنني الاستمرار في هذا الوضع أكثر من هذا، لقد استهلكتني طريقته في العقاب مع الأسف. لستُ جبانة، ولم أخن العهد، لكنها الحياة. كن بخير لأجلي، حبيبتك جميلة.»

تحرك خالد ناحية الجراما فون الخاص به ثم أدار الأسطوانة، كانت أغنية لفيروز:

«تذكر شو كنت تقِلّي! مهما يصير انتظريني وضَلّك صَلّي، الله الكبير».

نظر خالد إلى ناصر ثم سأله:

- الحكومة تعاقب المجرمين ومحطمي القوانين، لكن لا يوجد على الأرض من يعاقب على كسر القلب وتحطيم الأحلام والأمنيات.

اتجه إلى اللوحة الثانية، أشعل سيجارته:

- بعد خمس سنوات من الجفاء، وبعد أن انقطع الوصل تمامًا، حققتُ كل ما يمكن تحقيقه من مجدٍ وشهرة ونجاح. سيكون أمرًا مضحكًا بالنسبة لك، لكن صدقًا تلك التي أحببتها كل تلك السنوات حتى بعد فراقنا وخلال خمس سنوات لم أحب كم أحببتها، إنها حافظتْ على قلبي من كل الغيداوات، لم أسمح لأي شخص بالاقتراب من قلبي، لم أدع الفرصة من الأساس، كنت أحافظ على طهارة قلبي وعذريته وفاءً لها.

ثم تفاجأتُ بعودة جميلة إلى مصر، كنت في أحد المعارض وفجأة بدأ الزحام حول فتاة، تبدو نجمة أو شخصية عامة، لم أكترث كثيرًا للزحام وواصلتُ جولتي في المعرض، وأثناء خروجي من إحدى الغرف، تفاجأتُ بها أمامي... «**جميلة!**» للحظات تبادلنا النظرات، حديث طويل بلا معنى، الصمت فقط ومزيج من التساؤلات والرغبة في عناقٍ طويل. اللقاءات العابرّة ليستْ بهذا اللطف الذي وصفه الشعراء، لم أفهم يومًا كيف غنى (**حليم**) وطلب أن يجتمع بحبيبته صدفة! إن في مثل هذه اللقاءات مزيج من لذة الحب ومرارة الفراق؛ إننا نحيا للحظة، نرى الحياة بألوانها الجميلة، الأبيض، الأزرق، الأحمر، والبنفسجي، نتنفس بحُرية كما لو أننا هربنا من خندقٍ في باطن الأرض، نشعر بأطرافنا وهي تبحث عن فرصةٍ للركض والرقص، أصواتنا وكأنها أُعيدت إلى الحياة لتغنٍّ، لتصرخ، لتضحك بصوتٍ عالٍ، إننا نحيا في هذه اللحظة بالحب، وفي نفس اللحظة نشعر بقسوة تجاعيد الحزن على ملامحنا، أقدامنا التي تآكلت من الوقوف في محطات الانتظار، عن قلوبنا التي أفسدتها الآلام ورؤوسنا التي استولى عليها التفكير، نشعر بالعجز والشفقة على أنفسنا. مثل هذه اللقاءات تجعلنا نداعب السماء من فرط السعادة وكأننا ملكنا الأرض وتُوجنا أصحابًا للكون، وفجأة تجعلنا في باطن الأرض، وكأننا خُلقنا لنبقى في ظلامنا الأبدي. كانت صدفة قاسية بكل المقاييس، مرتْ بجواري كقاتل

يمر بجوار ضحيته وهي تنزف للمرة الأخيرة. بحثتُ عنها، والصدمة كانت حين عرفتُ أن هذه الفتاة تشبهها لا أكثر! وأنها لا تدعى جميلة، بل فتاة أخرى! كاد يجن جنوني، لم أستطع الوصول إليها أو اللقاء بها، حاولتُ بشتى الطرق لكن دون جدوى، كنت أتابع أخبارها من بعيد وفي الوقت نفسه أبحث عن أي شخص يجعلني أتواصل معها أو يعرف آخر المستجدات في حياة (**علي قاسم**) خصوصًا بعدما نقل أملاكه إلى إيطاليا. فشلتُ وانتهى بي المطاف إلى اليأس. بدأت رحلتي في عالم الوعي، الإدراك والحقيقة، كنت أتابع الفتاة التي تشبهها وأقسم لك كنت أعرف أنها جميلة، لا يمكن لعقلي أن يتصور أنها تحمل هذا الشبه معها، الملامح الهادئة، نبرات الصوت المختلفة، ضحكاتها، كنت أرسمها طوال الوقت بلا سبب، لم أتحمل هذا الوضع طويلًا، وقررتُ الخضوع والاستسلام للحياة ومجاراتها، كنت شخصًا وحيدًا احتجت لمن يساعدني لتحمل هذه الحياة. لا أُنكر أن بعد سنوات قررتُ أن أستمتع بما وصلتُ إليه، لم أترك فتاة إلا ومارستُ معها الحب، كنت أحاول نسيان ما يحدث بكل الطرق الممكنة، تزوجتُ لأحافظ على ما تبقى مني، ربما خوفًا من استمرارية عبث الشهوة في حياتي والخضوع للأمر الواقع. في النهاية لم أتحمل الحياة وقررتُ العزلة، أقصد بعدما تغيرت أفعالي وأصبحتُ أُشككُ في الجميع، في كل

شيء حولي، وبكامل رغبتي قررتُ بعد استشارة أكثر من طبيب نفسي قضاء ما تبقى من حياتي هنا، في المستشفى.

عاد خالد إلى الكرسي ثم قال بصوت حاد:

ـ هذه القصة وما بعدها لن تفيد في القضية، يبقى السؤال ماذا عن علاقتي بليلى العدوي؟! لم يجمعني بها هنا إلا لقاء واحد، كنت في المعرض مشغولًا بالرسم حتى طرقتْ الباب ودخلت، اعتذرت لي عن اقتحامها لمعرضي، وقفت أمام اللوحات ثم ابتسمت، كانت تبتسم بطريقة طفولية، ثم نظرت إليَّ وطلبت مني أن أرسمها بالمقابل المادي الذي أطلبه، وقتها رفضتُ أي مقابل وطلبت منها أن تأتي كل يوم إلى المعرض ولو لساعة واحدة، رفضتْ العرض بتلقائية وخرجت بعدما وعدتها أن أبدأ في الرسم. هذا كل شيء يخص ليلى العدوي.

ثار ناصر في وجه خالد:

ـ هذه القصة السخيفة التي انتظرتُ ارتباطها بليلى وفي النهاية هذا كل ما يربطك بها!

اقترب خالد من ناصر وهمس:

ـ لو ارتفع صوتك مرة أخرى أعدك ستكون الأخيرة.

نهض مدكور وفرق بينهما قائلًا:

ـ حسنًا، لنكتفِ بهذا القدر!

قاطعه خالد:

ـ مدكور، لستُ أنا القاتل، وأنت تعلم هذا جيدًا.

خرج ناصر من المعرض مندفعًا ولحقه مذكور. وقف خالد أمام اللوحة الأخيرة، تأملها لوقتٍ طويل، ثم قال:

ـ كان بإمكان الحياة أن تكون أقل قسوة علينا، لكنه القدر.

ضحك ساخرًا ثم خرج من المعرض.

خرجتُ من بين الصناديق وعدتُ سريعًا إلى غرفتي، وتابعتُ على الهاتف ما يجري في غرفة مذكور. كان ناصر منفعلًا:

ـ نحن نبحث في الطريق الخطأ.

رد مذكور الذي كان هادئًا:

ـ أرى أننا استفدنا كثيرًا من خالد، ثمة خطوط مقطوعة في القصة، هذا ليس اللقاء الأخير مع زيدان، هو شخصٌ مراوغ ويكذب في كثير من التفاصيل ولم يذكر كثير من الأشياء التي حدثت في حياته.

وهو يستعد للرحيل قال:

ـ أتمنى أن ننتهي سريعًا.

اتجه مذكور إلى المكتبة ثم أخرج ملفًا آخر وبدأ بتفحصه دون أن يكترث لأمر ناصر، ثم رد:

ـ لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام.

قلت لنفسي:

ـ الآن حان دوري للذهاب إلى مذكور والتحدث معه بشأن خالد.

اتجهت إلى غرفته، كان مشغولًا بقراءة الملف، جلستُ أمامه ثم قلت:

- زيدان يكذب، الكثير من الأشياء التي حدثت لهذا الرجل لم يذكرها، أشعر أنه يعرف الكثير عن ليلى العدوي.

ابتسم مدكور:

- لا أحد صادق في قصته، كل منا له أحزانه وأسراره الخاصة التي لا يعرفها أحد، لكن لندع الوقت يخبرنا بكل شيء. الآن علينا التركيز في أمر (**كريم رمزي**) رجل الأعمال المعروف، هذا الرجل له صولات وجولات مع النساء، وكانت علاقته قوية بليلى في أيامها الأخيرة...

قاطعته:

- كانت ليلى الفتاة التي أحببتها يا مدكور، كيف لا تغار عليها؟!

ضحك ثم قال:

- هذا ما يبدو لك، لكن هناك الكثير من الأمور التي لا تعرفها عن ليلى لربما يسمح الوقت بعرضها علينا. على أية حال أظن أننا اقتربنا من النهاية، أنهينا الجزء الأول من التحقيقات، ولم يتبقَ إلا القليل جدًا.

بعد صمتٍ طويلٍ سألته:

- والآن، ماذا عن القادم؟!

وهو يتصفح الملف قال:

ـ رجل الأعمال (**كريم رمزي**)، رجل ناضج في الأربعينيات، ذُكر اسمه في أكثر من قضية شروع في قتل لكن تم إثبات براءته في جميعها، رجل معروف عنه أنه عربيد نساء من الدرجة الأولى، المفضل لدى السياسيين لذكائه الكبير في إنهاء الصفقات الهامة لأعماله، والمفضل لدى النساء لسلطته ونفوذه وأمواله الطائلة. في أيامه الأخيرة قبل إيداعه هنا أعلن إلحاده، وهدد بكشف الكثير من الأسرار الخاصة بشخصياتٍ عامة، تزامنًا مع تدهور حالته الاقتصادية، فذات يوم فقد كل أمواله، ومعها فقد عقله تمامًا. للوهلة الأولى من لقائك به تؤمن أنه شخص طبيعي جدًا،ممكن.فجأة بلا سبب تصيبه حالة من السخط والجنون فيحطم ويكسر كل شيء ويحاول الانتقام من نفسه بشتى الطرق، ربما هو الوحيد الذي نستخدم معه الكهرباء من أجل تهدئته. سيكون التحقيق معه صعب ولا أُنكر أنني أفكر جديًا في الاستعانة بك بشكلٍ مباشر.

قلتُ:

ـ أشعر أن ناصر سيرفض فكرة وجودي!

رد بثقة:

ـ كل ما يفكر به ناصر هو إنهاء التحقيقات في أسرع وقت ممكن .

قاطعتنا جيسي التي طرقت الباب:

ـ لقد وجدوا جثة عمار مقتولًا في منزله هناك في تركيا!

تنهد مذكور:

ـ ربما حان الوقت لإنهاء كل شيء .

سألته جيسي:

ـ أنا لا أفهم! لكنني أشعر بشيءٍ مريب يحدث!.

طلب مذكور من جيسي الخروج ثم قال:

ـ سأطلب من ناصر المجيء الآن وبدء التحقيقات مع كريم رمزي؛ العالم الخارجي يربط كل شيء بالتحقيقات، وهذا الضغط سيكون ضحيته أبرياء.

ردتُ وأنا أتصفح الأخبار على مواقع التواصل الاجتماعي:

ـ أرى أن المسألة أكبر من المرضى، أشعر أن ثمة خطوط تربط المرضى ببعضهم، لا أظن أن القاتل من المرضى!

وهو يرتب أوراقه:

ـ لننتظر قدوم ناصر. الآن عد إلى غرفتك واستعد لمقابلة ناصر، دع الأمور تجري كما أُخطط لها، لا تقلق.

باستسلامٍ عدتُ إلى غرفتي وأنا أُفكر في أمر سارة، كنت أتمنى لو أنني أستطيع معرفة واقع الخبر عليها، لكن الوقت لن يسمح لمثل هذه الأمنيات.

ارتديتُ ملابسي الرسمية وكأنني في حفل سينمائي، بدأتُ بتدوين ملاحظاتي عما يحدث، أقصد أنني وبطريقةٍ ما بدأت في جمع الأحداث بعضها:

«تبدأ المأساة حيث الوعي والحب والفقد، نحن لا نكبر بمرور الأيام، نحن نكبر بالتجارب والمواقف والذكريات، كلما تعمقنا أكثر

في الواقع كلما تألمنا ونضجنا، تبدأ الآلام حينما تؤمن أن قلبك هو قائدك المناسب لمواجهة الحياة، ويبدأ النضج حينما تتجرد من مشاعرك وتعيد إيمانك بأن الحياة ليست بتلك الطفولية التي تظنها، نحن ننضج بالفقد، بالأمنيات التي لم تتحقق، بحقيقة الناس حولك، فكلما مرت عليك التجارب ستكتشف أن الناس ليسوا بهذا الصفاء الذي كنت تظنه في طفولتك عنهم. الغدر، الخيانة، الكُره والقسوة، كلها أشياء ستكتشفها مع التجارب حين تتألم منها. منتصف الطريق، العلاقات المؤذية، الخذلان من أقرب الناس إليك، مهما سمعت وقرأت عن كل الأشياء لن تعرف مرارتها وقسوتها ولن تتعلم منها إلا بعد أن يأكلك لهيبُها...»

بعد ساعة اقتحمت جيسي الغرفة قائلة بنبرة متوترة:

- يبدو أننا على وشك النهاية بالفعل، مدكور وناصر ينتظرانك في غرفة ليلى العدوي.

سألتها عما حدث، لكنها خرجت سريعًا.

فجأة سمعت حالة من الهرج والمرج في الممر، عاد رجال الأمن يفرضون سيطرتهم على المكان بأصواتهم المزعجة وأوامرهم القاسية، وبعد دقائق وأنا أستعد للخروج اقتحم أحدهم الغرفة قائلًا بصوتٍ خشن:

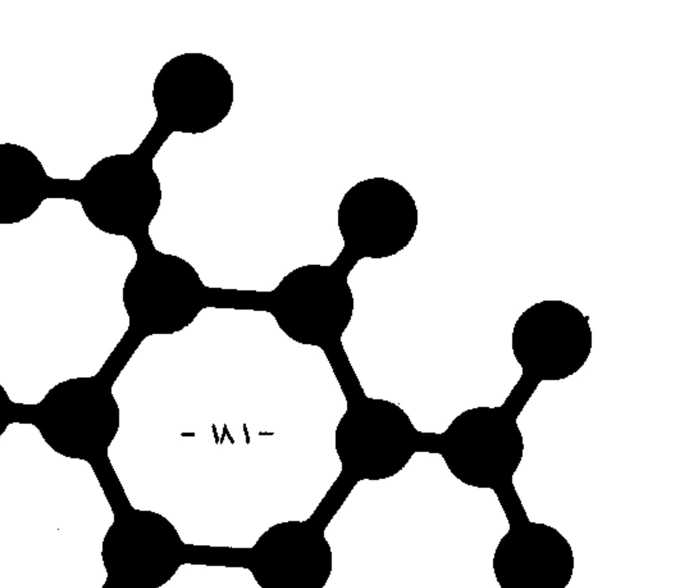
- سيد داوود، المحقق ناصر ودكتور مدكور في انتظارك، سأكون معك حتى هناك.

وصلتُ إلى الغرفة، كان ناصر يجلس على الأريكة وأمامه مجموعة شرائط تسجيلية، بينما يجلس مدكور على المكتب يتشوق لما يحمله ناصر.

بعد ثوان قال ناصر:

- أثناء عملية التمشيط والبحث في الحديقة وجد أحد رجال البحث الأمني هذا الصندوق مدفونًا بأحد أركان الحديقة، سمعت البعض منها وأظن أنكم في حاجة للاستماع معي لتنتهي القضية.

الفصل الرابع





«مُنهك أن يكون المرء نذلًا، بيد أن الأكثر
إنهاكًا هي محاولة ألا تكون نذلًا، لذلك
فالجميع مُنهكون، إذ أن الكُل لديه بعضًا من
النذالة.»

ألبير كامو.

«في البداية أعرف أن هذه التسجيلات ستزعج البعض، سيتهمني البعض بالعُهر والافتراء، وربما الكفر والإلحاد، وسيعتبرني البعض بطلة قومية يخلّدون ما سأذكره ويتغنون باسمي، وقد أصبح قائدة ورمز فكري للنساء، خصوصًا اللاتي تعرضن لما تعرضت له.

في هذه التسجيلات ثمة براءة أشخاص من تُهم نُسبت إليهم، وإدانة أشخاص آخرين. لا أعلم متى ستذاع هذه التسّجيلات، لكن ـوبكل تأكيدـ الوقت الذي ستذاع فيه سأكون أنا في العالم الآخر، كنت أتمنى لو كان بإمكاني تغيير مصير كل الذين مضوا على حياتي بعدما يسمعون هذه التسجيلات، أولئك الأشخاص الذين قابلتهم صدفة، والذين وثقوا بي ووثقتُ بهم ولم تثق بنا الحياة.

هذه التسجيلات مجرد حلقات متفرقة من الحياة، هنا حيث الإيمان والكفر، والتقوى والانحلال، هنا اللحظات الأولى في اللقاء واللحظات الأخيرة قبل الوداع الأبدي، محطات مختلفة في حياة كل النساء بأسرارهن وتفاصيلهن الخاصة ومآسيهن ومعاركهن. في النهاية لم أُرِد إلا أن أكون أنا دائمًا.»

تغيرت نبرة صوتها ثم بدأت:

«اسمي جميلة، عمريَ ستة عشر عامًا، ولدتُ في منزلٍ اجتماعي بين أشخاص ناجحين، أبي رجل أعمال معروف، وأمي ربة منزل طيبة السيرة واللسان، أنا الفتاة التي يقال عنها (**الدلوعة**)، كل طلباتي مجابة، الابنة الوحيدة لأسرة تعيش في رفاهية كبيرة، أحب الرسم، الموسيقى، الرقص ولدي قط أليف اسمه (**سمبا**)، أحب صديقاتي في المدرسة، أحلم بالسفر حول العالم، أعشق روما وباريس وأعشق الشتاء لكنني أرفض كآبتة وظلامه، يعجبني أكثر الربيع فهو الأكثر تميزًا بين كل الفصول، أحب بهجته، ألوانه ونسماته، أعشق القراءة، أميل أكثر لروايات الفانتازيا رغم أنني لا أنام بعد الانتهاء منها لكنني أعشق مثل هذه الروايات، أحب التسوق، الركض صباحًا على ساحل مدينتنا.

أنا الفتاة المرهفة التي تتمتع بكل مظاهر الحياة الوردية، كانت حياتي على ما يرام، فتاة حالمة تأمل في استمرار حياتها على النهج الهادئ.

وفي أحد الأيام استيقظتُ بثقل في قلبي، كاد قلبي ينخلع من صدري، كنتُ أبكي من الألم ـ فتاة مثلي لم تكن تعرف للآلام معنى ـ، تم نقلي إلى المستشفى ومن هناك علمت أنني لن أعيش حياة طبيعية، أقصد أنني لن أعيش كما أريد، فلقد أُصبت بارتخاء شريان بالقلب، مما جعل الأدوية لا تغادر حقيبتي ـ تلك التي اعتادت أن تحمل بداخلها الأموال ومستحضرات التجميل أصبحت الأدوية ملازمة لها ـ.

تغيرتْ فجأة نظرتي للحياة، بعدما كنت أركض لأميال، أرقص كيفما أشاء، أغني وأضحك، بات كل شيء محسوبًا ومدروسًا، كان لهذا

أثر عظيم على قلبي، ساعدني أبي وأمي على النهوض سريعًا، حاولت التأقلم على الحياة والالتزام بالأدوية.

وفي هذا الوقت ظهر في حياتي شاب يدعى (**خالد زيدان**)، لطالما تابعني بنظراته التي كانت تشي بما يحمله لي في قلبه، كان يعمل مع أبي واعتبره بمثابة الابن. الحب يحدث دون ترتيبات، الحب يحدث صدفة، إنه الحدث الأعظم والأهم في الحياة الذي يحدث صدفة، نحن لا نُهيّئ قلوبنا للحب، نحن لا نستعد له كضيف أو زائر، هو الشعور المفاجئ الذي يجتاح قلبك بلا سببٍ واضح، يستولي عليه ويفرض سيطرته، بل ويدفعك إلى الحفاظ والتشبث به، وحدث هذا مع خالد، الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي.

للحب الأول لذة لا تُنسى، والفتيات اللاتي عشقن بصدقٍ لا ينسون ولا يتجاوزن عشقهن الأول. أحببت في هذا الشاب طموحه وقوته وتحديه للظروف، أحببت إصراره على مواصلة الحياة رغم العقبات التي وقفتْ أمامه، كنت أبدو ثابتة لا أكترث لوجوده ولا أهتم كثيرًا بما يفعل، لكنني كنت أُجن حين أراه يتحدث إلى زميلاته في العمل، كنت أتعذب حين أسمع أنه أُصيب بوعكةٍ صحية ولا أستطيع الاطمئنان عليه، كان يتحدث أبي عنه دائمًا بلكنة الأب والأخ؛ أحببتُ هذا الشاب كثيرًا وأحببتُ إصراره وملاحقته لي. لا أُنكر، أنا فتاة مدللة تحب أن ترى في عينيك نظرات الحب والاشتياق ثم تغادرك ما إن تظنَّ أنك بالفعل حصلتَ عليها، ثم إنني كنت أخشى أن ينفضح أمري، وأخشى عليه من الأذى خصوصًا بعد الاضطراب القاسي الذي حدث في قلبي.

باستمرار محاولاته معي طلبتُ من أبي أن أعمل معه، كانت الفكرة مزعجة لأبي لكن سرعان ما وافق عليها بعد إلحاحٍ كبيرٍ وبعد أن أكدتُ له أن الحياة العملية مفيدة لحالتي والتفكير فيما أصابني فوافق، وبموافقته كان سببًا في أعظم قصة حب مرت عليَّ.

الآن، وبعدما أصبحت أغار كلما رأيته صدفة يتحدث مع الفتيات أصبحت أراه كل يوم وبإمكاني الجلوس واحتساء فنجان القهوة الصباحية معه، أصبح من السهل قضاء أطول وقتٍ ممكن معه، كطفلة تأمل في استمرار قصة الحب الوردية وبعد الكثير من المحاولات اعترف لي خالد بمشاعره، أقسم كانت أسعد أيام حياتي، حينها كنا ننهي إحدى الصفقات الهامة مع إحدى الشركات البترولية الكبرى، وبعد أن انتهينا من إبرام الصفقة لمصلحة شركتنا قررنا الاحتفال معًا، ذهبنا إلى شاطئ مدينتنا (**الإسكندرية**)، أتذكر جيدًا أدق التفاصيل، كانت الشمس على وشك الرحيل، لا أثر على رمال الشاطئ سوى لأقدامنا، كان يرتدي قميصه الرمادي – اللون الذي أحببته عليه دائمًا– كنا نتأمل الغروب وفجأة قال:

ـ متى نعرف أننا وقعنا في الحب؟

قلت بحياء:

ـ أنا لا أفهم سؤالك، لكن أظن أننا نحب حين لا نجد إجابة منطقية للحب، حين تبلعنا نيران الغيرة بلا سبب، نشتاق ونتألم بلا سبب، نحزن لحزن الشخص الآخر، نرتدي أجمل ملابسنا ونستعد بشغف وسعادة للقاء، وتضيق صدورنا ونشعر بحزنٍ كبير وقت الرحيل. تقع في الحب حين يكون

هو أول شخص تتمنى أن يكون بجوارك في لحظات سعادتك، أول من يحتفل معك بإنجازاتك الصغيرة، أول من تشاركه أخبارك السعيدة، هو الشخص الوحيد الذي تنتظر وقْع فرحتك عليه، تكون متأكدًا أن السعادة التي ستراها في عينيه ستزيد وتزين سعادتك، هو الشخص الوحيد الذي تبحث عنه وسط الزحام لتطمئن به، أول من يخطر ببالك حين تمر عليك أغنية رومانسية، أو مَن تتمنى الذهاب معه إلى مكانٍ تحلم بزيارته، أول مَن تتمنى أن تشاهد معه فيلمك المفضل أو ربما قراءة روايتك المفضلة. نحن نشعر أننا وقعنا في الحب حين نتمنى أن يشاركنا الشخص الآخر لحظات الشغف، الجنون والأمل. تقع في الحب حين يكون الأجمل والمفضل عندك هو المكان الذي يجمعكما، أجمل اللحظات هي التي تجمعك به، النكات المضحكة ليست كذلك لأنه لا يسمعها معك، الأشياء الجميلة منقوصة وباهتة لمجرد غيابه عنها، كل الألحان العذبة ليست بهذه العذوبة وهذا الجمال إلا حين تكتمل بنبرات صوته المختلفة، حين تكتشف أنه بطل كتاباتك السرية التي لا يقرأها أحد، ورغمًا عنك تكتشف أنك دعوت الله أن يحفظه من كل سوء. تكتشف أنك وقعت في الحب حين يغزو قلبك الاشتياق، وفي أخبارك ومواقفك التعيسة لا تحتاج إلا لوجوده، تلجأ إليه وأنت على يقين أنه لن يردّك مكسور الخاطر محطم الآمال، حين يضيق بك العالم فتذهب إليه دون أن تكترث

لشيء، حين تكتشف أنك تبكي بلا خوف أن يسخر من بكائك أو يتهمك بالكآبة والسوداوية، هو ذاك الشخص الذي لا تخجل من ممارسة طقوس حزنك وكآبتك أمامه، مشاركته أفكارك الغريبة، آرائك المجنونة، ميولك المعتدلة والمنحرفة، هو الوحيد الذي تحب بقاءه بجانبك في لحظات ضيقك وحزنك ووحدتك من العالم، الاستثناء الوحيد من كل قواعد الحياة، الوحيد الذي لا يمكنك مواصلة يومك إلا بعد الاطمئنان عليه، الوحيد الذي تبحث عنه وسط الزحام، ومهما كانت مشاغل الحياة تخلق وقتًا لتشاركه يومك، هو رفيق الليل الكئيب الذي يفسد كآبته بتلقائيته واحتوائه لك، هو صديق النهار المزدحم. إنك تقع في الحب حين يكون لديك شخص تتمنى بقاءه طوال الوقت، لا تخجل من إخباره بكل ما تشعر به، تؤمن أنه لن يؤذيك مهما بدر منك، تؤمن أنه لن يقسو عليك وسيلتمس لك كل العذر. سيملأ قلبك بالحب، بالكلمات الطيبة، بالأفعال الجميلة، سيكون بجوارك فقط لأنه يريد أن يكون بجوارك، يريدك أن تكون بخيرٍ لأجلك أنت، حين تصدق أن هذا الشخص يحبك بلا سببٍ دون أن ينتظر المقابل أو رد تلك المشاعر. نحن نقع في الحب حين نكتشف أننا نملك شخصًا يشاركنا كل هذه التفاصيل، حتى وإن لم نعترف له بمشاعرنا، هنا فقط نؤمن أننا وقعنا في الحب .

أخجلني تأمله لملامحي فقلتُ:

ـ هل أسأتُ الإجابة؟!

تنهد ثم سألني:

ـ وأكثر الصفات التي تجذبكِ في الشخص!

ابتسمت ثم قلت:

ـ أكثر ما يجذبني في الشخص هو اللين، أحب الكلمات اللطيفة التي تقال بلا مناسبة، نظرات السعادة والشغف في بداية اللقاء، أحب التعبير عن جمال المظهر والثناء على التفاصيل البسيطة التي لا يكترث لها أحد، حين أبكي فأجد من يواسي ويشاركني تلك اللحظات الحزينة بكلمات الرأفة والحب، هذا الذي لا تخشى معاتبته لك لأنك تعرف أن ومهما كانت قسوة العتاب لن يجرحك بكلماتٍ سامة تؤلم قلبك، مهما اشتد الخلاف ينتهي بمجرد أن يراك على وشك البكاء. أحب ذاك الذي لا يتجمل في كلماته، هو يدرك حجم الضغط والتعب الذي تعاني منه في الحياة ويحاول جاهدًا أن يخفف ويهون من قسوة العالم عليك. أحب أصحاب الردود الطيبة في لحظات غضبي وثورتي، أحب التعبير عن الحب الامتنان بلا مناسبة أو سبب واضح. جميل أن يكون في حياتك شخص ليّن لا يطيق الخصام، لا يطيق الهجر، مهما كان الخلاف هو دائمًا يسمعك وينتظرك بكلماته وطريقته الرقيقة في التعبير. جميل أن يكون في حياتك مَن يشاركك اللوحات، الموسيقى، القصص الجميلة، لا يتركك تغرق وحدك في مأساتك، يحمل معك عبء الحياة، يتباهى

بإنجازاتك ويراك إنجازه الوحيد، يتباهى بك وبعلاقتكما في كل مكان، يبحث عن كل كلمة لطيفة لتسعدك، يحب الأشياء التي تحبها، يشاركك الحلم والهدف والرغبة في البقاء معك إلى الأبد؛ في عالم يحطمنا ويستهلكنا، جميل أن يكون في حياتك شخص لَيّن القلب والفعل والكلام، شخص مثلك يا خالد... أقصد ...

تلعثمتُ بعدما اعترفتُ رغمًا عني بمشاعري له.

أمسك يدي ثم قبلها وهو يقول:

ـ أحبكِ كثيرًا يا جميلة.

رغمًا عني وبتصرفات فتاة مراهقة صفعتُه على وجهه ثم رحلت.

بعد هذا اليوم تغيرت حياتي تمامًا، بدأتْ قصة حبي الأولى، كنت أشعر بسعادة عارمة في كل لقاء يجمعني به، تخيلات وأفكار مراهقة للمرة الأولى تعرف معنى الحب، كنت أحلم وأتمنى وكأننا وحدنا على الأرض.

لا أُنكر، لقد عاملني خالد المعاملة التي قرأتُ عنها في الروايات، لم يكن قارئًا متميزًا، لكنه كان يجاهد من أجل مشاركتي كل تفاصيل حياتي؛ أَحَبَّ الأشياء التي أحببتها، تعلم اللغة الألمانية والإيطالية، أحب الحيوانات التي أحبها، شاركني أدق تفاصيل حياتي، كان يحاوطني كلما ذهبت، كان يعاملني كطفلة، وأحببتُ هذه الطريقة في الحب، كنتُ وكأنني ابنته، يحقق كل الأشياء التي أريدها وأتمناها، لم يقسو يومًا عليّ، كان يعرف أنني ولدتُ في منزلٍ يتمتع برفاهية وأنني لن أطيق التعامل بقسوةٍ وجفاء، وكنتُ أحاول دائمًا أن أعوضه عن

الأشياء التي افتقدها رغم صغر سني، لكنني كنتُ أحاول جاهدة أن أكون له الأم والأخت والعاشقة.

ثمة تفاصيل بيننا حدثت للمرة الأولى، العناق الأول، القبلة الأولى، وممارسة الحب والهيام، كنت في حالة سعادة عارمة.

واصل زيدان تعليمه، كان رجلًا موهوبًا أيضًا، أحببتُ موهبته لكن كانت تنقصه الثقة، وبكل الطرق الممكنة حاولتُ إمداده بها. كان يرسم دائمًا، يرسمني أنا فقط، يعمل طوال الوقت من أجل بناء منزل يجمعنا، لتبدأ حياتنا معًا.

لكن تأتي الحياة بما لا يشتهي الحلم؛ فجأة انقلبت الدنيا رأسًا على عقب بعدما كشف أبي علاقتنا، وقرر منعها تمامًا، وبأفكار وحماس طفلة وقفتُ وعارضتُ أبي لفترةٍ طويلة، قبلت كل أنواع التعنت والقسوة في سبيل الحياة معه. كان يحتاج للطمأنينة، ولقد سعيت دائمًا لأُطمئن قلبه.

رفض أبي خروجي من المنزل، فرض سيطرته وأحكامه فمنع عني كافة وسائل التواصل الاجتماعي، كنت أتصل به كلما أُتيحت الفرصة. لم أتحمل هذا الوضع كثيرًا فقررتُ مواجهة أبي وسألته عن أسباب رفضه للزواج من زيدان، فقال:

ـ أنا لا أرفض زواجكِ من خالد، لكنني أرفض مبدأ الزواج من رجلٍ لم يحترم حُرمة المنزل. لقد وثقتُ في هذا الشاب وأمنته على ابنتي الوحيدة، لكنه لم يحترم الثقة، ولو كان طلب مني الزواج قبل التحدث إليكِ لربما اختلف الوضع. هذا الرجل لا يؤتمن، لقد خان الأمانة، والذي اعتاد الخيانة لن يُبرَّأ منها إلا بعد أن يتذوق مرارة عقابها...

قاطعته:

- أبي، هذه الأسباب ليست منطقية، لطالما كان يفكر في اتخاذ تلك الخطوة لكنه كان ينتظر الوقت المناسب.

رد أبي بهدوء:

- نحن من نصنع الوقت المناسب. هذه المسألة منتهية تمامًا، انسي أمر ذاك الشاب.

- لكنني أحبه .

رد ساخرًا:

- هكذا نحن نظن في بداية الحب أن الحياة بهذه البساطة، ما إن تقع في غرام من تحب حتى تتخيل حياتك وردية جميلة، تبني أحلامك وأمنياتك، تظن أنه الوحيد في العالم، المثالي الذي رزقتَ به، الذي لن تستطيع أن تحيا وتعيش إلا في وجوده، لكن الأمر يختلف مع التجارب والمواقف، ففيما بعد ستتحول هذه الأيام إلى ذكريات تضحكين عليها، ستنسين وتتجاوزين هذه الأيام سريعًا، وستعرفين أن هذا الرجل ليس الأول ولن يكون في حياتك؛ أرجو أن يحسن قلبك الاختيار في المرة القادمة.

انتهى حديثي مع أبي، وانتهى معه كل شيء، حاولت المقاومة والاستمرار في الكفاح ضده، لكن كنتُ أضعف من مواصلة هذه الحرب وحدي، خصوصًا بتواصلي المتقطع مع خالد.

كنت أكتشف أشياء أخرى تزيد الخراب الذي حل بحياتي، تغير سلوك خالد كثيرًا، بدا من نبرة صوته أنه عاد لتدخين الحشيش وشرب

الكحوليات، الأمر الأكثر إزعاجًا بالنسبة لي الكذب، كان يُنكر أنه قد عاد لهذا الطريق الذي لم أحبه أبدًا، كنت أرى أنني أصغر من تلك الضغوطات خاصةً مع الإصابة بالاضطراب في مهام القلب، أحيانًا كنت أسقط على الأرض من شدة الألم في قلبي، أبكي وأصرخ بلا رحمة، ولم يشفع هذا عند أبي من أجل الموافقة على استمرار علاقتنا.

كنت أشعر بالضيق والكسرة من تلك المعاملة، كنت أكتب كثيرًا لخالد، الكثير من الرسائل التي لن يقرأها أبدًا، رغم غباء تصرفاته التي زادت من الضغوطات عليّ لكنني كنت أكتب.

بعد فترة قرر أبي إنهاء وتصفية ممتلكاته في مصر وقضاء ما تبقى من حياته في روما، كان لهذا القرار صدى وأثر لا ينسى في نفسي، فجأة قرر أبي أن ينهي كل شيء متعلق بمصر، العائلة، الأصدقاء، الذكريات والحب. تناقشت معه حول القرار وسلبياته لكنه قد اتخذ القرار والإجراءات بالفعل، وفي رسالتي الأخيرة إلى خالد كتبت:

«صديقي وحبيبي وابني الوحيد خالد زيدان، أكتب إليك لأنني لم أجد نفعًا من الصمت أمام كل الأشياء التي تحدث في حياتي.

في البداية أنا مُمتنة لك، ممتنة للحظات العظيمة التي عِشتها معك، أيام قضيناها في سعادة وحب وأيام مرت علينا في غاية التعاسة والحزن، لكننا كنا معًا وكان هذا الأهم والأسمى.

أعرف أنك لم تكن مراوغًا معي، وأنك لم تُرِد إلا الزواج مني، وكنتَ مستعدًا للتضحية بكل شيء في سبيل تحقيق حلمك؛ أرجو أن لا تكن أنانيًا معي، فلقد تشاركتُ معك نفس الحلم ودعوتُ الله أن يجمعنا، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، وأقسم لك أنني بذلتُ

ما في وسعي لاستمرار الحرب والكفاح ضد أبي من أجل أن نجتمع معًا، من أجل حبنا، لكن في النهاية انهزمت، وهذا لا يعني أنني لا أحبك، لكنك لا تعرف قسوة الحرب التي أخوضها ضد رجل يملك كل المقومات ليمنعني عن الحياة.

ولنواصل الحياة علينا أن نتخلى عن الكثير من أحلامنا، من أمنياتنا، ونقتل أشياء بداخلنا لنحافظ على ما تبقى منا، وأنا أحب الحياة وأريد أن تستمر يا خالد وأومن أنني أستحق أن أعيش حياةً أفضل حتى لو كان الحب هو ضريبتها وضحيتها.

سامحني من فضلك على كلماتي التي تبدو باردة مثل تلك المواقف لا تحتاج إلا لعناقٍ طويل، لكن ما باليد الحيلة.

حين تصلك هذه الرسالة سأكون قد غادرت مطار القاهرة متجهة إلى روما، لا تبحث عني يا خالد، سأغادر وللأبد ولن أعود مهما حدث. نعم، لقد اخترتُ أن أقتلع جذوري القديمة في مصر وزرع حبوب جديدة.

تأكد أنني مجبرة على تجاوزك سريعًا، مجبرة على التعامل معك وكأنك لم تكن، في طي النسيان. قد أبدو لك قاسية لكنني أكثر واقعية منك، أعرف أننا لن يجمعنا طريق واحد ومكان واحد، لن نتزوج، لذلك من العقل أن نتجنب مأساة أخرى من الآلام والانتظار ثم انتكاسة فقدان الأمل واليأس.

رغم كل هذا تأكد أنني أحبك.»

وهاجرتُ إلى روما مع عائلتي.

في أيامي الأولى بدأتُ أشعر برغبةٍ في الهروب منهم، فرغم الأجواء الرائعة فجأة شعرتُ بفجوةٍ كبيرة وأنا معهم، كان هذا الاضطراب دخيلًا وغريبًا عليّ؛ لطالما أحببتُ عائلتي وأحببتُ بقائي معهم أطول فترة ممكنة، لكنني ورغم القسوة التي ظهرت في رسالتي إلى خالد كنتُ أفتقده كثيرًا.

لم أحاول متابعته أو البحث عنه ومعرفة أخباره، كنت أضرب على قلبي وأعلمه الفقد والحرمان، كنتُ أقسو عليه حتى يتأقلم على الحياة، حاولتُ تكذيب ما أشعر به، كان مزيجًا من المشاعر المتضاربة التي لا يمكن تفسيرها، أصبحتُ أكثر عدوانية تجاه أبسط الأشياء، تغيرتْ ميولي وأفكاري واهتماماتي، الأشياء التي كانت تضحكني لم تعد كذلك، الأحلام الوردية التي حلمتها باتت عادية وسخيفة وطفولية، التجمعات التي كنت أنتظرها طويلًا والتحدث مع الناس أصبحت أشياء مزعجة لا أتحملها، حتى الود الذي كنت أشعر به مع عائلتي لم أعد أشعر به، بكاء الأطفال ليس بتلك القسوة التي كنت أظنها، المشاهد الحزينة في الأفلام تثيرني للضحك، قراءة الروايات المرعبة تثير رغبتي في قراءة المزيد، الوردي لون طفولي ساذج لا معنى له، الربيع مزعج وثقيل، الحيوانات كائنات لزجة لا داعي لوجودها على الأرض من الأساس، حتى ملامحي لم تسلم من هذا التغيير بل أصبحت أكثر حدة وقسوة، رغبات مُلحة في القتل والانتقام من العالم؛ بلا سببٍ واضح لطختُ كل صوري وذكرياتي القديمة، مررت بفترة قاسية أتأرجح وأتمايل في الاضطراب النفسي.

الحياة في روما مختلفة لكنني لم أعِر لها أي اهتمام، التحقتُ بمعهد التمثيل هناك وحاولتُ استعادة نفسي القديمة لكنني فشلت.

وفي العام الثاني كان الحادث الأشد وجعًا على قلبي، كنا في الطريق إلى مدينة ميلانو لحضور أحد المهرجانات السينمائية، وفي الطريق انقلبت السيارة بنا، وبعدها استيقظت في أحد المستشفيات هناك، وعرفتُ أنه قد مات أبي وأمي ونجوتُ أنا بأعجوبة! تهشمت عظام جسدي وملامحي، مما اضطر الأطباء لإجراء الكثير من عمليات التجميل لإنقاذي، واستيقظتُ بملامح ووجه فتاةٍ أخرى، فاقدة لعائلتي، لما تبقى من أحلامي، لحياتي القديمة. كانت صدمة كبيرة اضطرتني للبقاء بإحدى المصحات النفسية هناك، لم أستوعب ما حدث، فجأة أصبحت في بلدة غريبة، بلا أهل، بلا أصدقاء، والكثير من القرارات والخطوات التي يجب عليّ اتخاذها.

خرجتُ من المستشفى وبدأت ببيع كل ممتلكات أبي في روما ثم العودة إلى مصر، كان قرارًا صائبًا وقتها. صحيح أن الحياة وحدك لا تختلف بين مصر وإيطاليا، لكن على الأقل الأموال والثروة الطائلة التي أمتلكها قد تساعدني في حياة أكثر رفاهية في مصر، وهذا ما حدث، والمال ساعدني في إنهاء بعض الإجراءات المعقدة.

فكرت كثيرًا في اللجوء إلى خالد لكنني ترددت بعدما عرفت أنه قد سلك طريق الفن والإبداع، لم أرد إفساد حياته بما حدث في حياتي. كان المال هو السلاح الأول لمواجهة الحياة، لم يمر وفاة أبي وأمي ومن قبلهم رحيلي عن خالد مرور الكرام على قلبي، بدأت أشعر بأنني شخصيتين في شخص واحد، بملامح مختلفة تمامًا.

ازدادت رغبتي في التحدث مع نفسي، كلما وقفت أمام المرآة تساءلتُ عن وجه هذه الفتاة الذي استولى على وجهي، نبرة صوتها المختلفة عن صوتي، كان الأمر مرعبًا وفي غاية القسوة؛ أنا أتعذب، أقضي حياتي بشخصيتين، أحدهما هي طفلة بريئة أرادت الحب والحياة ولم تحصد منهما إلى الفقد والموت والتعب، والثانية امرأة ناضجة قاسية تعرف كيف تتخذ القرارات المصيرية ولا تلجأ إلا لعقلها وأفكارها، الأولى لا تستطيع عبور الطريق وحدها دون أن تشعر بالخوف من أن تدهسها شاحنة عابرة، والأخرى تنتظر الوقت المناسب لتدهس كل مَن مرَّ في الطريق، الأولى ما زالت تحلم بالحب وقضاء حياتها مع الرجل الذي أحبته في هدوءٍ وسلام، والثانية تسعى للحياة نفسها التي ضحت من أجلها بكل شيء.

لا أرى نفسي ضحية القدر، لكنني أومن أنني لم أكن أستحق هذا الشقاء مبكرًا، وأنني لا أستحق هذا التعب الذي حدث دفعة واحدة، ولأنني تجاوزت سريعًا صدمتني مواجهة نفسي.

في التجاوز السريع كارثة، ففي الحقيقة أنت لا تتجاوز شخصًا أو موقفًا عابرًا، إن أشد أنواع التجاوز أن تتجاوز مشاعرك وقلبك، فبعد فترة تقف أمام نفسك في المرآة، تراجع تفاصيل حياتك، ذكرياتك القديمة، المواقف التي استدرجتك للبكاء ولم تبكِ، نوبات الفقد والحنين التي تجاوزتها، ففجأة تشعر بالحنين لأتفه الأشياء، تجلد ذاتك وتعذبها لأنك لم تتصرف بطريقة لائقة في الكثير من المواقف، وتسخر منها على تصرفاتك الساذجة الطفولية، تعود لنقطة الصفر حيث الشفقة والقسوة عليها، أنت الملاك الذي تحبه وأنت الشيطان الذي

تهوى تصرفاته، أنت الطيب الذي أردت أن تكون عليه، والشرير الذي يجيد التصرف في المواقف الحاسمة، الذي يرى الحياة جميلة هادئة تستحق أن تُعاش في هدوءٍ وسلام، والذي يراها حربًا لأجلها يمكن أن تدهس وتقتل كل شيء من أجل استمرارها.

كانت حربًا قاسية ضد نفسي، وفي حروبك ضد نفسك، بين مبادئك وأفكارك، أحلامك وما يريده قلبك، وما يرفضه عقلك، ولإنهاء هذه الحرب كان عليّ أن أودع أحدهما، وقد كان، وبدأتُ حياةً جديدة..

أقصد حياة (مريم)».

صمتتْ طويلًا، ثم تغيرت نبرة صوتها مجددًا:

«اسمي مريم، فتاة في بداية العشرينات، أملك الكثير من الذكريات الحزينة وعلاقات كُتب لها أن تنتهي قبل أن تبدأ. أمام الناس أنا واحدة من أهم الفتيات اللاتي حققن نجاحًا كبيرًا في وقتٍ قصير، فأنا صاحبة أكبر شركة مستحضرات تجميل في مصر، أظهر دائمًا مبهجة وقوية أمام الناس، حياتي تتمناها أي فتاة أخرى، حيث الشهرة والمال والنفوذ والمجد.

أما عني فأنا لستُ بهذا اللمعان الذي يظهر أمام الناس، لقد نفيتُ نفسي القديمة حين قررت أن لا أكون أنا، حين قررتْ تغيير اسمي للاختباء من الماضي وللمحافظة على حياة البعض.

وحين تفتقد نفسك القديمة فكل الأشياء الجديدة تبدو رائعة لكنها لا تعجبك، لا تشبهك، لا تنتمي إليها، لقد كان انتمائي الوحيد في التفاصيل البسيطة العادية، الأشياء التي لا تحتاج إلى مجهود خرافي لتبدو جميلة، أولئك الأشخاص الذين يختارون ملابسهم بعناية

دون أن يكترثوا لآراء الناس عن ملابسهم، أصحاب الأفكار المختلفة والأحلام التي يسخر منها الجميع، أولئك أصحاب الذوق المختلف في الموسيقى، الذين يعجزون عن وصف ما بداخلهم فيظللون العبارات التي تشبههم في الكتب والروايات، الذين يتأثرون بمشاهد الفقد والنهايات الحزينة في الأفلام، أولئك الذين صادقوا البحر ولهم أسرار لا يعرفها أحد مع القمر والنجوم، أنا أنتمي للذين لا يكترثون للأمور السياسة ولا يملكون ضغينة لمن يختلف معهم، يؤمنون أن الاختلاف أمر طبيعي فنحن نُخلق في الحياة لنكون عملة واحدة، الذين يرفضون العنصرية والتنمر والاضطهاد وتؤلمهم الحروب ويتجنبون مشاهد القتل والذبح، لا يصدقون كلام السياسيين ويؤمنون أن الله الذي يعبدونه لا علاقة له بهذا الذي يتحدث عنه رجال الدين من منابرهم، أنا من أولئك الذين لا يسخرون من شكل وعادات أحد، لا يستهينون ولا يستخفون بتعثرات غيرهم، يستيقظون كل يوم لا يفكرون إلا في إسعاد أنفسهم، في تجنب الأذى والخيبات والتعامل الحاد مع الناس، يبتسمون في وجه الجميع لأنهم يؤمنون أن ثمة من يعاني في حياته الخاصة، يعرفون كم المعارك التي يخوضها المرء من أجل أن ينجو سالمًا من الحياة، هم الذين يملكون أمنياتٍ عالقة في السماء، يخجلون من الجهر بها أمام أي شخص، تُضحكهم النكات التي لا تُضحك أحدًا، تبهرهم القصص المختلفة التي يملأها الشغف والحب والكفاح، هم الذين اعتادوا أن يظهروا دائمًا بخير مهما كانوا في أسوأ حالاتهم النفسية والجسدية، أصدقاء الجميع الذي لا صديق لهم، الذين بإمكانهم إسناد الجميع بينما لا يقدرون على النهوض من سريرهم بشكلٍ طبيعي.

أنا أنتمي لأولئك الذين تتهم بالغرور في لقائك الأول بهم ثم وما إن تعتاد عليهم حتى تكتشف أنهم أكثر الناس ودًا واجتماعية عن غيرهم من الناس، أولئك الذين ومهما أفسدت الحياة قلوبهم لا يحاولون الانتقام من أحد ولا يحاولون إفساد قلب أي شخص، حين تقسو عليهم الحياة يقررون العزلة في هدوءٍ تام، لا يخلقون ضجيجًا خلفهم ولا يتركون أثرًا سيئًا، يرحلون من باب الحياة الخلفي الحياة دون أن يشعر بهم أحد».

ساد صمت طويل تقطعه أصوات حركة بعيدة، ثم عادت لتتحدث ومعها صوت التلفاز:

«هذه حلقتي الأولى، أقصد ظهوري الأول في الإعلام.

من المفترض أن أكون سعيدة، وربما الأسعد في حياتي، لكن الأمر ليس كذلك؛ بدأ اليوم غريبًا، استيقظتُ في حالة من الخمول دون رغبة حقيقية في مغادرة الفراش وكأنني لست في صباح اليوم الذي انتظرته طويلًا، ارتديتُ الملابس التي جهزتها في المساء وخرجت من الغرفة، كانت السعادة والفخر تسيطر على كلمات مَن حولي، لكنني لم أشعر بحرارة تلك الكلمات، كنت تائهة، العالم حولي يتراقص بينما كانت حالة الحداد هنا في قلبي، فحاولتُ التأقلم على الأجواء الاحتفالية حتى لا أفسد فرحتهم.

مر اليوم باردًا، لم تداعبني نسمات السعادة كما تمنيتُ، لم أشعر بالفخر كما ظننت؛ حين تصل إلى القمة ستتذكر الصعوبات التي واجهتك، ستتذكر الليالي التي قضيتها تفكر كيف تحقق أحلامك، ستضحك على لحظات يأسك وحطامك والمرات التي ظننتَ فيها أنك انهرتَ تمامًا

ولم تعد قادرًا على النهوض، ستتذكر كل الحروب التي خضتها من أجل أن تبقى حيًا، ستبكي لأنك حققتَ ما حلمتَ به طويلًا بعد معاناة في غاية القسوة. هذا ما كنت أرجوه لكنني فشلت؛ لم أشعر بالسعادة التي انتظرتها طويلًا، كان شعور الفقد أشد قسوة وسيطرة على قلبي.

احتجتُ في تلك الفترة إلى شخصٍ ما أتحدث إليه، إلى شخصٍ ما يساعدني على خروج الكلمات من صدري.

وعلى ساحل الغردقة كنت أجلس أمام البحر والعقل والقلب هناك حيث مدينتي وموطني الذي شهد وعرف طفولتي (**الإسكندرية**)، هناك كان اللقاء مع خالد، وهناك كانت النظرة الأخيرة قبل الفراق الطويل.

حين تهجر وطنك تتحول إلى لاجئ في كل الأوطان، ولقد قضيت سنوات اللجوء في روما وفي الغردقة، لكن دائمًا يقودك الحنين إلى المدينة التي عرفتك، المدينة التي حملت آثار أقدامك الأولى، الشوارع التي حفظتك وأنت محطم ومنهزم، وأنت في لحظات سعادتك وجنونك.

فتاة مثلي لم تتوقع يومًا أن تخرج من مدينتها، لم تتوقع هذا التغير المفاجئ الذي حدث في حياتها، هنا الإسكندرية حيث الحب والأحلام والأمنيات والواقع الذي يدفعك لتكون شخصًا آخر.

كنا في إحدى ليالي ديسمبر البارد، الشواطئ فارغة، الهواء البارد يضرب المارين ليملأهم سعادة وشغف، وأصوات تصادم الأمواج بالصخور سمفونية طبيعية لا يمكن مقاومتها. كنت وحدي بعيدًا عن صخب العالم، بعيدًا عن الالتزامات والمعطيات، عارية المشاعر أمام البحر، أجلس وأبوح بما لا أستطيع أن أبوح به لأحد.

ووسط الظلام سمعت خطوات تقترب مني، كانت امرأة في الستين، خطواتها على رمال البحر ثقيلة ـلربما من ثقل الحياةـ، وحدها الأجساد تُظهر شيخوخة وآثار العمر والزمان، ووحدها الأرواح تُقتل في الخفاء بصمتٍ وهدوءٍ تام.

جلست العجوز بجواري ثم قالت وكأنها تتحدث إلى نفسها بعد أن تركت نسمات الهواء الباردة تسلل إلى نهديها:

ـ في هذه الحياة الكثير من الأشياء التي قد تحدث لكِ، ربما ستصدمكِ تصرفات الأصدقاء وتتغير نظرتكِ الطفولية إلى عائلتكِ، سيرحل عنكِ أشخاص كنتِ تظنين أنهم لن يرحلوا وسترحلين عمدًا عن أشخاص، ربما ستنهزمين أمام القدر. في ذاكرتكِ تحتفظين بذكرياتٍ حزينة وأحلام محطمة، لكنكِ ستعيشين لحظات من الحب والسعادة أيضًا، ستلتقين بأشخاصٍ رائعين صادقين مع أنفسهم ومع العالم، سيكون لهم الأثر الجميل في حياة الجميع، لكن لا تظنين أن هؤلاء قد نجوا من معارك الحياة، ربما قضوا أيامًا أشد تعاسة من أيامكِ وأشد كآبة وظلمًا وسقطوا مرارًا في قاع البؤس واليأس، هؤلاء فقط رغم كل التعاسة والاكتئاب وليالي الفقد والحزن ورغم هزائمهم المتكررة مع الحياة، لكنهم لم يسمحوا للعالم أن يُلطخ أرواحهم الجميلة الطاهرة، هؤلاء هم الجميلون المنكسرون. الحياة جميلة كوني جميلة مثلها.

ابتسمت العجوز ثم واصلت:

- المعذرة، أنا شادية، أسكن في المنزل المقابل لمنزلك، وفي الحقيقة الأجواء رائعة فانتهزتُ الفرصة للخروج والاستمتاع بها.

رددتُ وأنا أتأمل ملامحها:

- أهلًا بكِ! أنا جميلة... أقصد مريم.

من هنا بدأت علاقتي الجميلة مع شادية، قررتُ فجأة بدء هذه العلاقة حين اتفقنا أن يجمعني بها فنجان القهوة الصباحية والمسائية، كنت في حاجة إلى صديقة، والعجوز لم تكن الفصل الأكبر في حياتي، لكنها كانت الأكثر صدقًا وحكمة.

الكثير من الأشياء التي جمعتني بهذه العجوز، كانت وحيدة تنتظر اللقاء الذي يجمعني بها من الصباح حتى المساء. بدأتُ أحكي لها عن الأشياء التي عجزتُ عن شرحها أو الاعتراف بها أمام أي شخص؛ كانت أزمتي في تلك الفترة أنني لا أستطيع تجاوز خالد زيدان، أفشل كل مرة في محاولتي للنسيان.. وقتها قالت:

- يا مريم، الجميلات الصادقات في الحب لا يستطعنَ تجاوز غرامهن الأول؛ للمشاعر حُرمة ولكلمات الحب الأولى خصوصية ولذة لا تُنسى، نحن النساء لا نقع في غرام الرجال بسهولة، لكننا وحين نقع في الحب نغرق تمامًا، تستيقظ فطرة الأم بداخلنا فنتعامل مع مَن نحب وكأنه الابن الأول لنا، نخاف عليه من التعب ومن أثقال الدنيا، تمامًا كخوف مريم على ابنها يسوع، لا نطمئن إلا وهو أمامنا. نحن وحدنا من نعرف تفاصيله الخاصة، وحدنا نعرف أسراره

وتقلباته المزاجية، وحدنا نعرف الأشياء التي تزعجه والتي لا تزعجه، موسيقاه الخاصة، ألوانه المفضلة، الأفلام التي يحب مشاهدتها، ورغم غيرتنا الجنونية لكننا نحفظ سرًا ملامح النساء التي يحب أن يَراهن، نشتهي البقاء بجانبه طوال الوقت، نشتهي الجلوس معه دائمًا مهما كان الحديث عاديًا. لا تهم روعة الأماكن التي تجمعنا، فكل الأماكن التي تجمعنا به دافئة وهادئة لمجرد أننا معًا. كيف ننسى من قاومنا الخجل أمامه من أجل أن ننطق ولأول مرة كلمة «أحبك»؟! كيف نتجاوز الذي تزينّا له للمرة الأولى، أو حتى حاولنا أن نبتسم أمامه لأنه متيّم بابتسامتنا؟! كيف نتجاوز الرجل الذي اقتحم أحلامنا الأولى، وسرق لحظات شرودنا الطويل في تخيل كيف ستكون الحياة معه؟! كيف لنا أن نتجاوز عناق الأيدي الأول والرعشة التي اجتاحتنا بعد العناق السريّ، ومشاعرنا وأفكارنا التي ارتبكت بعد حديثٍ طويلٍ بالنظرات؟!. نحن النساء لسنا مجبرين تمامًا على النسيان، فالمرأة التي أحبَّت بصدقٍ هي امرأة محظوظة بالطبع، لكن حين لا تجتمع بحبيبها الذي حلمت به تتحول إلى أتعس نساء الدنيا، لأنها داعبت الحياة ولم تمتلكها ولو ليوم واحد. كل ما عليكِ هو الاعتراف والاستسلام أمام حقيقة الحياة؛ نحن لن نحصل دائمًا على كل الأشياء التي نريدها، تقبُّل الهزيمة في هذه المسألة أمر ضروريّ لتواصلين حياتكِ بطريقةٍ أفضل، عليكِ تقبُّل الواقع وفلسفة الحياة في

العطاء الكبير وقسوة البخل والجفاء، تعلَّمي كيف تبتلعين الحياة.

مرت الأيام يومًا بعد يوم وكانت أكثر غرابة، ففي الصباح أقضي مهامي العملية، أبرم الصفقات، أجيد كلمات المجاملة التي تصل حد النفاق، وأبتسم أمام كل الذين لا أُطيق النظر إلى وجوههم، وفي المساء أعود إلى شادية باكية، أُحدثها عن المهام اليومية الشاقة، الصفقات المشبوهة، رغبتي في القتل أو فضح أمر هؤلاء الذين يظهرون أمام المجتمع بقناع الفضيلة والعفة بينما في عقولهم يكمن العهر والفساد.

كان شعور الانفصام يزداد رويدًا رويدًا، بدأ يظهر في ملابسي، في تصرفاتي، ومع شادية حيث (جميلة) الطفلة التي ترفض هذا العالم الكاذب المزيف، ومع الناس سيدة الأعمال المرموقة حيث السياسة والحنكة بين العالم.

كنتُ أعرف أنني على الطريق الخطأ، وأعرف أن الحال التي وصلت إليها لا تناسب ربيع شبابي، أدرك مدى خطورة استمراري في تلك اللا مبالاة، وأعرف أن لا أحد غيري سيتحمل توابع الطريق الخطأ، أحفظ قصص الأمل عن ظهر قلب وبإمكاني أن أخبرك سوداوية المستقبل الذي ينتظرني لمجرد أنني أتكاسل عن اتخاذ خطوة واحدة في الحاضر.

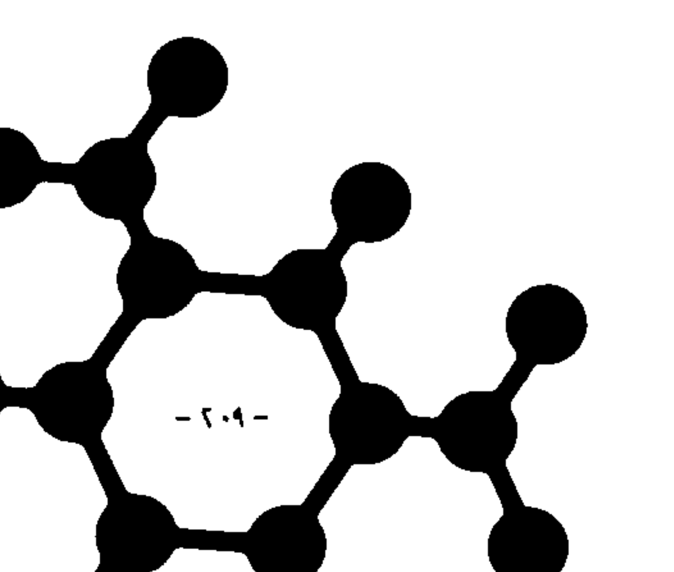
إنني أعاني، لكن معاناتي ليست في الاكتئاب، وإنما في فقدان الشغف؛ فجأة أبكي لأنني أملك كل الحيل التي تجعلني شخصًا أفضل، لكنني لا أستطيع القيام بها، بلا سبب بلا رغبة، فقط لا أستطيع القيام بها لأنني لا أريد.

فجأة أبكي لأن حالي لا يعجبني، لا يروق لأفكاري، ولأنني أرى التعاسة واليأس من بعيد ومع ذلك لا أخطو خطوة واحدة من أجل تجاوزها أو خلق حياة أفضل. لديّ الكثير من الأحلام والأمنيات والأفكار التي حتمًا ستجعل حياتي رائعة أو على الأقل ليست بهذا السوء الذي ينتظرني، ومع ذلك أعجز عن فعل أي شيء.

لست بائسة؛ إنني أعاني كسيدة يجلس على قضيب القطار لا تهتم لصوته الذي يقترب منها، لا تقدر من الأساس على النهوض والابتعاد عنه، تعرف أن الموت قادم نحوها ومع ذلك لا تكترث لأمره.

لا رغبة لديّ في القيام بأي شيء، لا رغبة لديّ في التغيير رغم أنني أرفض وألعن وأتمنى الخلاص من هذه الحال، لكنني أعجز عن فعل أي شيء. لستُ مكتئبة، لست كسولة، لا أحتاج لمن يحدثني عن الأمل والكفاح والنجاح، أحفظ كل هذا وأعرف خطورة ما أنا عليه الآن، أنا أعاني ما هو أسوأ من التعاسة ومن اليأس والاكتئاب، ليس أكثر من أنني فاقدة للشغف تجاه كل شيء».

الفصل الأخير





«لقد تطلعتُ من فوق سياجي الذي
يفصلني، تشبثتُ بقمة ذلك السياج بيدي،
ثم... سقطتُ متراجعًا بأيدي جريحة مُتسخة.»

فرانز كافكا.

تنهدتْ ثم واصلت:

«اليوم الذكرى الخامسة لوفاة أبي، لم أستطع أن أغفر له رفضه زواجي من الرجل الذي أحببته، لكنني لا أُنكر أنني تألمتُ وفقدته كثيرًا؛ أحبني أبي بطريقةٍ خاطئة، كنتُ أعرف أنه يحبني ولم أملك يومًا ضغينة في قلبي له. كان رجلًا عظيمًا، لطالما ساعدني على تجاوز عقبات كبيرة، ولطالما كان يسعى لتحقيق كل أحلامي.

لكن في عالمٍ آخر كان خبر وفاته هو الأسعد بالنسبة لي، وكأنني كنتُ أنتظر هذا الخبر، إنه الصراع المستمر بين شخصين اتفقا بداخلي على أن يفسدا حياتي.

كنت كطفلة تبكي خوفًا من الظلام الكبير في غرفتها، تبحث وتصرخ وتنادي: هل من أحدٍ هنا؟

فلا تسمع سوى صدى صوتها يضرب أذنيها التي ترتعد كلما لمستهما الرياح. أعي جيدًا ما أقصده، فلقد كنت في غاية التعاسة والمأساة، كنت أريد أن ينقذني أحد من تلك الوحدة وذاك الظلام،

أريد أن أتجاوز أيامي سريعًا حتى أموت، حتى الخلاص، لا يهم ما سيحدث، لست شغوفة بالمكاسب التي سأحققها مستقبلًا، ففتاة ابتلعت الهزيمة لن تزعجها هزيمة أخرى، ولقد فقدت نفسها القديمة منذ زمن بعيد لن يؤلمها أي فقدان آخر مهما كان.

وكنت أعلم أيضًا أن الخطوة التالية في غاية القذارة، ليست من صفاتي أبدًا، كنت فتاة ورغم كوني منهزمة من الحياة والحب حاولت أن أكون أقوى من أن يهزمها الاحتياج، أقوى من أن تقبل أن تقضي حياتها بقرارات تحت تأثير رغبة إنهاء هذه الوحدة.

استمر الصراع طويلًا حتى جمعتني الصدفة برجل أعمال لبناني يدعى (كريم رمزي)، المؤسف أن الصدفة التي جمعتني به كانت في إحدى الحفلات الغنائية هناك في بيروت، وقتها كنت في فترة استرخاء بعيدًا عن الضغط الكبير في مصر، كنت غارقة في شرب النبيذ المعتق ـ للمرة الأولى في حياتي ـ ومع تأثير الكحول جذبتني الموسيقى الصاخبة للرقص، لا أعرف لماذا كنت أرقص، لكنني أومن أن السعادة ليست السبب الوحيد للرقص، فكثير من النساء يرقصن في أشد لحظات حزنهن وخيباتهن وتعاستهن، ولقد كنت أرقص من فرط التعاسة. رافقني هو الرقصة الأخيرة على ما أتذكر، كنت أرقص معه بشغف وجنون وكأنني أملك أطرافًا جديدة بعيدًا عن أطرافي التي تهالكت من الضغط والتفكير والتعب.

انتهى اليوم وبدأ يومي الأخير هناك، وأثناء احتساء فنجان القهوة الصباحية التقيت به..

ـ الآن أنتِ في حالٍ أفضل!

نظرت له باستغراب، فواصل:

- المعذرة، أنا كريم رمزي، رجل أعمال، ليلة أمس كنتِ فاقدة لجزء كبير من وعيك، أظن أن هذه تجربتك الأولى مع الكحوليات! دائمًا يستغل الرجال مثل تلك المواقف لإرضاء رغبتهم في التعارف على الحسناوات مثلك، لكنني لم أجرؤ على ذلك فتظاهرت أننا أصدقاء ورافقتك للرقص بهذه البساطة...

شعرتُ بالخجل من نفسي، لكنني تظاهرت أمامه بالثقة:

- أتذكر هذا جيدًا، مُمتنة للقائي بك.

سألني عن اسمي وقتها فقلت:

- اسمي مريم من مصر .

بدأ تواصلنا عبر (**واتساب**)، كان رجلًا يعرف كيف يتعامل مع النساء، يراوغ بالكلمات والأسئلة، يعرف متى يعبر عما بداخله حتى يجعلني أظن أنني محبوبته الوحيدة، ومتى يصمت ليهدم كل ظنوني فجأة، وكانت مثل هذه التغيرات تزعجني كثيرًا، لكنني كنت أعلم أيضًا أن كل هذه الطرق لن تفي بالغرض، كل هذه المحاولات البائسة للاقتراب مني لن تنجح، لقد قررت أن لا أغرق في الحب مرة أخرى مهما حدث.

أعرف أن الحب يقتحم القلب فجأة دون رغبة أو إرادة منا، لكنني أعرف أيضًا عن الآلام القاسية التي يشعر بها المرء بعد الفقد، وعانيت كثيرًا قسوة الخذلان، وأعرف كيف تشعر بقلبك وهو يتفتت ثم ينفجر

فجأة، أعرف معنى أن يؤلمك قلبك وكأنه يريد الخروج والهروب من جسدك، أنا أعرف عن الآلام المميتة بعد الفقد والخذلان والقسوة.

لو كنت فتاة عادية لغرقتُ في غرامك ودعوت الله أن لا أنجو أبدًا منك، لكنني فتاة محطمة وحزينة، منهزمة من الحب والحياة ومن نفسها.

أنا في صراع مع نفسي من أجل تجاوز رغبتين، إنني في أشد الحاجة لمن يهوّن وحدتي، أحتاج لمن يلوّن غرفتي الرمادية، يشاطرني اللحظات الحزينة ويخفف من حدتها، ويشاركني لحظات الفرح التي تمر مرورًا عابرًا على حياتي، ويخفف من وطأة وقسوة آلام بعد منتصف الليل. أكل الخوف جدران قلبي وبالطبع يحتاج ليطمئن ولو لبعض الوقت، أحتاج لشعور الشغف بالحب، الرسائل الغرامية، والقلق والغيرة وشعور أنك لست وحدك في عالمنا القاسي، لكنني لن أتحمل تعبًا جديدًا على قلبي، أنا مستهلكة ومحطمة تمامًا، تجاوزت الكثير من المواقف التي كانت تستدرجني للخلاص، نجوت بأعجوبة من تعثرات كادت أن تقذف بي إلى حياة أخرى ربما أشد ظلمًا وكآبة، ولم أستسلم في حروب دامية مع الحياة.

ليس من السهل أن أنجو من كل خيبات الحب ثم أجازف مرة أخرى بما تبقى من حياتي، لن أتحمل خذلانًا آخر، لم أعد قادرة مرة أخرى على تحمل الجلوس بمحطات الانتظار، ولن أتحمل الوقوف في منتصف الطريق بعد أن يرحل أحد عني، ليس بوسعي تحمل تلك المشقة.

أنا لا أتجنب الحب، وأقسم ربما أنا أكثر من تحتاج في الحياة إلى ثورة الحب الجامحة، لكن جدران قلبي متهالكة أضعف من أن تتحمل سيمفونية الحب الهادئة.

كلما تكررت محاولاته أخوض صراعًا أكبر مع أفكاري؛ إنني أفكر طوال الوقت بطريقةٍ مزعجة، كل شيء حولي يزعجني، كل شيء يستدرجني للبكاء وربما الصراخ، لكنني ألتزم الصمت رغمًا عني لأنني لا أملك الكلمات المناسبة التي أتحدث بها عن كل الأسئلة التي تدور بعقلي، فأنا لا أستطيع وصف المعاناة التي أعاني منها وأنا أفكر في كل شيء طوال الوقت بلا هدنة؛ الضجيج في رأسي أشد ضوضاءً من ضجيج العالم.

لجأتُ إلى شادية العجوز، كانت وحدها تعرف قسوة ما أعاني منه، رحبتْ بي كعادتها وأعدتْ لنا فنجان القهوة، ثم سألتني عما يحدث في حياتي، وكانت إجاباتي باردة وعادية، وبعد صمتٍ طويل قالت:

ـ وماذا عن الحب؟!

جاوبتُ باستنكار:

ـ تعرفين أنني لم أعد أومن بالحب!

قالت وهي تضحك:

ـ لا أحد لا يؤمن بالحب؛ الحب فطرة إنسانية، خلقت الحياة من البداية بدافع الحب، سُخِرتْ لآدم الأرض عن سائر المخلوقات، ووعده الله بنعيم أبديّ في الجنة، وحين أراد أن يؤانس آدم في وحدته خلَق من ضلعه حواء ليجمعهما

الحب. نحن نحب دائمًا ورغمًا عنا نشعر بالحب، للأقارب، الأصدقاء، للوطن، البعض يحب الشروق والبعض يعشق لحظات رحيل الشمس عن السماء في الغروب، أحدهم يحب سماع الموسيقى وآخر يحب الأصوات الطبيعية كصوت تساقط المطر على الأرض أو ارتطام موج البحر بالصخور. تفاصيل حياتنا الخاصة، الألوان التي نرتديها في ملابسنا، العطور المفضلة لنا، لكل منا ذوق مختلف عن الآخر في اختيار وجبته الغذائية اليومية، كوب الشاي الصباحي أو أماكن يحب الذهاب إليها، البشر خلقوا ليمارسوا الحب طوال حياتهم. يموت الإنسان حين يفقد قدرته على الحب يا مريم.

رددت:

ـ لكنني أخشى من خذلانٍ آخر يضرب قلبي؛ أنا لست قادرة على الحب.

ضحكت العجوز بعفويتها ثم وضعتْ يدها على قلبي وقالت:

ـ دعي لقلبكِ القيادة، اتركي له حرية الاختيار حيث يقودك نحو الحياة، إن تعثرتِ سينقذكِ شخص ما، كتاب قرأته، فيلم تحبينه، ستنجيكِ من تعاستكِ ذكرى جميلة تعيشين من أجلها، عطر طيب من وردة كنتِ تروينها كل يوم، ابتسامة عابرة في وجه شخص عابر، دعوة دعاها لكِ شخص يحبك. وإن لم ينقذكِ كل هذا فالله وحده سينقذك، والله هو الحب.

أخيرًا سمحت لرمزي بالاقتراب من مدينة قلبي، تلك المحطمة والتي أفسدتها الحياة والتجارب القديمة.

كان رجلًا رائعًا ومتفاهمًا، كانت خطواته يغلب عليها الحب، وكأنه كان ينتظر الفرصة المناسبة ليجعلني أغرق وأتيم عشقًا به، ولأسباب لا أعرفها قررتُ أن يكون زواجنا في سرية تامة أشبه بالزواج العرفي، لا أعرف لماذا خطرت في رأسي تلك الفكرة الغريبة، لطالما تمنيتُ أن أكون مثل أي فتاة تتمنى أن يعرف العالم قصة حبها وغرامها.

في النهاية تزوجنا، لكن لطبيعة عمله في لبنان والتي تحتاج دائمًا للبقاء هناك لأطول فترة ممكنة ولطبيعة عملي في مصر والتي تحتاج لمتابعة دورية هنا، قررنا مؤقتًا أن يستقر كل منا في بلدته على أن نلتقي كل أسبوعين في مصر أو في لبنان.

بدأ يشاركني طبيعة عمله وبدأت أشاركه أهم القرارات والخطوات التي أتخذها في حياتي العملية، كان زواجًا لطيفًا حيث كل منا يملك أهدافه وأسبابه في الزواج، حينها فقط تأكدتُ أن ما يجمعني برمزي ليس حبًا كما كنتُ أظن، لكن كانت علاقة متبادلة من الإعجاب مع الكثير من المصالح والأهداف المشتركة والمتبادلة.

شعرتُ بالأسف لنفسي لأنني لم أتمنى أبدًا أن أتزوج بمجرد إعجاب عاديّ، أردتُ أن أتزوج بعد قصة حب أفلاطونية، ذاك الحب الذي قرأتُ عنه في الروايات، لكن الواقع يختلف كثيرًا عن القصص الغرامية التي نقرأها ونشاهدها في الأفلام السينمائية، قسوة الواقع كانت في تلك التفاصيل الصغيرة التي لا يمكن شرحها، التي لم نكترث لها في بداية الأمر ثم تصدمنا بعد أن يصبح التعبير عنها يحتاج إلى طاقة وقوة لا نملكها، تلك التفاصيل التي تخبرنا كل يوم أن الحياة تزداد سوءًا

ورغم ذلك لا نستطيع أن نتراجع خطوة واحدة إلى الخلف، لا نستطيع الانهيار؛ أنت مجبر على تحمل كل الشقاء وحدك في صمتٍ تام.

كنتُ كلما اقتربتُ منه شعرتُ بالغُربة عن عالمه وحياته، ففي الأيام التي كنا نقضيها في لبنان كان يبدو متوترًا، يتحدث طوال الوقت في الهاتف، يظهر منفعلًا أحيانًا، وفي الكثير من الأوقات كان يستقبل أصدقاءه وتبدأ بينهم حالة من الشد والجذب، حتى أنني كنتُ أسمع أصواتهم المتشابكة العالية تضرب غرفتي.

وذات يوم سألته عن طبيعة عمله خصوصًا مع حالة الركود التي سادت صناعة الأفلام السينمائية في لبنان ومصر، يومها تهرب من السؤال، كانت إحدى صفاته السيئة التي لم أحبها أبدًا. كانت تظهر علامات التوتر والقلق بشكلٍ واضح على رمزي كثيرًا في لبنان على عكس مصر، فقد كان يغلبُ علية الهدوء والسكينة أكثر؛ بدأ الشك يراودني تجاه هذا الرجل، خصوصًا مع ارتفاع ثروته بشكلٍ ملحوظ رغم توقفه على إنتاج أي عملٍ سينمائي منذ فترة طويلة.

بدأت بمراقبته، وذات يوم سمعته يتحدث مع أحد أصدقائه في الهاتف بصوتٍ عالٍ:

- نحتاج لإرسال دفعة أخرى من الكريستال الأسود إلى مصر، لم نَفِي بالدفعة الأولى كاملة وخسارتنا لهذا الرجل خسارة فادحة!

ثم قال:

- سأذهب إلى مصر بعد أسبوعين، أريد أن أحتفل معهم بتسليم الشحنة ونتفق على شحنةٍ جديدة. لا تقلق رجالنا يستطيعون تدبر الأمر، وداعًا.

لم أفهم ما يقصده بالضبط، كانت نبرته غريبة وحادة.

ترددتُ كثيرًا بين سؤاله عن الكريستال الأسود وبين البحث عنه في منصة البحث Google حتى قررتُ البحث عنه بنفسي.

النتائج الأولية لم تُظهر دلائل أو تعريف قوي، لكن في رحلتي وفي إحدى الصفحات الطبية ظهر تقرير غريب:

كريستال ميث (**الكريستال القاتل/الأسود**):

(**تركيبة كيميائية مُخدرة مضافة إلى الكريستال، صنع في اليابان عام ١٩١٩ وزادت شهرته وتداوله في أنحاء أمريكا الجنوبية والشمالية، ثم انتقلت شهرته إلى أوروبا تحديدًا في ألمانيا، حيث بلغت نسبة تعاطيه بين الشباب الألمان إلى ٤٠٪، وبعدها انتقل إلى مصر وتداول بين أبناء الطبقة الراقية نظرًا لارتفاع سعره الذي يتداول بين ٥٠٠ إلى ١٥٠٠ جنية، يستخدمه بعض الأطباء النفسيين ومعالجي الإدمان في السيطرة على مرضاهم وتهدئة نوبات غضبهم وحدتهم. يعتبر من أخطر المواد الكيميائية المتداولة في العالم وعلى رأس قائمة الأدوية المخدرة المحظورة في كافة أنحاء العالم**).

كانت المعلومات التي أقرأها مذهلة ومفجعة، لم أفهم علاقة رمزي بهذا العالم، لم أجد أي رابط بين طبيعة عمله وبين اهتمامه بهذا المجال الطبي!

بدأ الشك يراودني أكثر، كنت أخشى من إساءة الظن وأتمنى بصدقٍ أن تخيب ظنوني ومخاوفي، فطويتُ هذه الصفحة مؤقتًا حتى عُدنا إلى مصر.

لا أنكر، كنت قد بدأت بالفعل في مراقبة تحركات رمزي، ووجدتُ الكثير من الأصدقاء الذين يلتقي بهم في منزله الخاص هنا، وأنا لا أعرفهم.

وذات يوم دعاني لحفل عشاء في فيلا أحد أصدقائه المقربين، لم أمانع فلقد كانت فرصة رائعة لمعرفة المزيد عن تفاصيل حياته. كان حفلًا مريبًا، أغلبه من الطبقة المرموقة في مصر، بعض الوزراء السابقين ونواب مجلس الشعب الذين أعرفهم والمعروفين لدى الجميع، والأطباء. لم أشهد مناقشة جادة بينهم، كانت مظاهر الاحتفال واضحة عليهم، الكحوليات، الرقص، الغناء، ومداعبة النساء.

بعد أن انتهى الحفل، ونحن في طريقنا إلى المنزل دار حديث بيننا..

ـ أحب مثل هذه الاحتفالات؛ مصر بلد الموسيقى والفن والحب.

وأنا أتصفح هاتفي قلت:

ـ والكريستال الأسود.

أوقف السيارة فجأة ثم قال:

ـ ماذا تعرفين عن الكريستال الأسود؟!

رددتُ:

ـ لا أعرف سوى أن احتفال اليوم كان بمناسبة وصول الشحنة الثانية من المخدر إلى مصر .

في هدوءٍ تام أدار المحرك ثم انطلق دون أن ينطق كلمة واحدة.

وفور عودتنا إلى المنزل ونحن نستعد للنوم قلت:

ـ حسنًا، أنت مُهرب مواد مخدرة!

ابتسم رمزي ثم قال:

ـ كان بإمكاني أن أكون موزعًا لأدوية طبية لولا أن السلطات المصرية وضعت هذه المادة في قائمة المحظورات الطبية .

رددتُ بسخرية:

ـ المادة محظور تداول في كافة أنحاء العالم!

قال:

ـ أنا لا أعرف بالضبط استخدامها، لكنها على أي حال مادة فعالة للتعافي من الاكتئاب ونوبات الحزن والضيق، ثم أن لها مفعول رائع في الشعور بالسعادة والبهجة.

قاطعته:

ـ لكنها محظورة، وتتسبب في خيالات واضطرابات نفسية قد تؤدي إلى الانتحار!

صب لنفسه كأسًا من (**الريد واين**) ثم قال:

ـ الانتحار! إذن العالم مدين لنا نحن مهربي وتجار المخدرات، إننا نحاول تخفيف الآلام القاسية التي يشعر بها المواطن العربي، نحاول إمداده بمادة رخيصة لمواصلة حياته الشاقة المنهكة بعد كل تلك الأحداث التي دفعت الشباب إلى اليأس والإحباط ثم الانتحار، نحن نرسم الضحكات على وجوههم الكئيبة، نخلق لهم آفاقًا أخرى بعيدة عن آفاقهم وواقعهم المتهالك التعيس، نحن نبني أحلامهم التي حطمتها الحياة رغمًا عنهم...

قاطعته:

ـ أنت مُهرب يا رمزي، لا تَدَّعي الفضيلة، أنت مُهرب وخارج عن القانون وعديم الإنسانية، لا تختلف كثيرًا عن مَن يقتل ويغتصب وينتهك حقوق البشر، أنت مهرب ولست بطلًا للسعادة والحياة!

ضحك ساخرًا ثم ذهب إلى السرير:

ـ وأنتِ زوجة المهرب.»

أوقف ناصر التسجيل ثم نظر إلى مدكور:

ـ بالتأكيد أنت تعرف هذا المخدر يا دكتور!

بدأت علامات التوتر تظهر على مدكور رغم نبرته الهادئة المتزنة:

ـ نعم أعرفه، إنه يستخدم في علاج حالات الاكتئاب ومرحلة أولى من مراحل التعافي من الإدمان .

قال ناصر وهو يتأمل مدكور وكأنه يبحث عن شيء ما في ملامحه:

ـ هذا يُفسر عدوانية بعض الحالات في المستشفى!

قاطعه:

ـ أنا لا أستخدم هذه المواد في طرق التعافي من الاكتئاب أو الإدمان.

تنهد ناصر ثم ضغط زر التسجيل لتواصل ليلى:

«كانت ليلة قاسية، لم أكن أعرف ما يجب عليّ فعله، خصوصًا بعد أن اتضح أن مسألة الطلاق من رمزي مرفوضة رفضًا تامًا.

في الصباح استيقظتُ فلم أجد رمزي في المنزل، اتصلت به فلم يستجب لمكالماتي، وبعد ساعة عاد إلى المنزل في حالة سعادة غريبة، أعد لي الإفطار ثم قال:

- شيء ما حدث نسيتُ أن أخبركِ به، لقد احتجت إلى تخزين الشحنة الأخيرة قبل تسليمها، ولم أجد آمن من مخزن مستحضرات التجميل الخاص بكِ بالإسكندرية. بالمناسبة، تحتاجين إلى إعادة تدوير النظام الأمني الخاص بالمخزن؛ لم تستغرق العملية أكثر من عشر دقائق لإخفاء وتخزين الشحنة.

صفعتني كلماته فصرختُ في وجهه:

- أنت مُحتال!

كدتُ أنهال عليه بالضرب لكنه سبقني ودفعني بقوة:

- أنتِ الآن شريكة معي في العمل، كل محاولاتكِ للهروب أو التبرؤ من مشاركتك في عملية التهريب لن تفلح؛ كوني عملية وواقعية وحاولي الاستفادة قدر المستطاع من المميزات التي أمامك، ستحصدين ثروة لا تحصى، أظن أنها فرصة مناسبة لا تعوض؛ فكري جيدًا في الأمر.

بعد ذاك اليوم كنت أضعف من الاختيار، كنت في بداية طريق اللا عودة، حيث عالم التهريب والمخدرات، عالم الكريستال الأسود.

وفي النهاية خضعتُ له ووافقتُ على مواصلة حياته الدنيئة القذرة في سبيل أن لا يتم اعتقالي والقبض عليَّ، بعدما وعدني أن أكون بعيدة كل البعد عن الشبهات.

مر العام الأول وقد استقر رمزي في مصر، وبعدما كنت أحلم بهذه الخطوة لمجرد أن أكون برفقة الرجل الذي تزوجته، تحولت أحلامي إلى كوابيس مفزعة، حين أصبحت زوجة لشخصٍ من أهم وأخطر مهربي المخدرات في الشرق الأوسط، فجأة أصبحتُ الطفلة التي لم تكن تحلم إلا برجلٍ يحبها وتحبه ويقضون حياتهم في سلام وأمان وحب بعيدًا عن عالمنا المزيف فتاةً مشاركة وعضو أساسي في تنظيم عصابي لتهريب المخدرات.

قرر رمزي أن لا أظهر معه خلال هذا العام، لكنني كنت بدأت بمعرفة بعض مساعديه والرجال الذين يعتمد عليهم في مصر ولبنان، وقبل الظهور الأول وفي رحلة بغرض الاسترخاء في أمريكا، سألني رمزي عن رغبتي في التمثيل...

- لا أفهم، ماذا تقصد بالضبط؟!

قال:

- أعني أن ثروتكِ المالية بدأت تتضاعف وهذا ما قد يثير الشكوك حولك، نحتاج إلى عملٍ إضافيّ لتغطية هذه الثروة التي تتضاعف بشكل مستمر، وربما حان الوقت لظهورك كسيدة أعمال ومنتجة سينمائية، تحتاجين إلى شركة إضافية مع شركة مستحضرات التجميل، ولعدم إثارة الشكوك يُفضل كونها شركة إنتاج كشركتي، ويُفضل أن يكون لكِ اسم مُستعار يُناسب الشهرة التي ستحظين بها.

لم أكترث كثيرًا لفكرته، كنت في حاجة أكثر إلى التعمق في هذا العالم الغامض.

التقيتُ الكثير من الأشخاص الذين لا يمكن تصور أنهم مسؤولون عن كل تلك العمليات الفاسدة التي تُدار في مصر، ومن بينهم التقيتُ فتاة تعمل وسيطة بين رمزي وأحد الرجال المعروفين في مصر، (**ياسمين**) كانت فتاة متسلطة وحادة، لا تكتفي من طلب العمولات والامتيازات بعد كل عملية، لم أعرف طبيعة عملها بالضبط، التقيتُ بها مرات معدودة، كانت كل الشخصيات التي ألتقي بها مجرد قناع خارجي، لا أحد منهم صادق، كلهم يستخدمون أسماءً مستعارة وربما أفكار وعقائد كاذبة.

وفي العام الثاني تعمقتُ أكثر في هذا المجتمع، وبدأت علاقتي تتوطد ببعضهم، وكانت أكثرهم قربًا لي (**ياسمين**).

ياسمين فتاة في بداية الثلاثينات، من كلماتها ومخارجها للألفاظ تبدو أنها من الطبقة أقل من المتوسطة، حيث أنها لا تتحدث بلباقة كما يتحدث أغلب الذين التقيتُ بهم، عشوائية بشكل كبير في اختيار ملابسها وألفاظها، والمال هو هدفها الأول في الحياة، تفكر طوال الوقت في كيفية إبرام وإنهاء الصفقات نظرًا لعمولتها التي تزداد مع كل صفقة، كانت الشخصية الأهم بين كل الشخصيات رغم دورها المحدود وظهورها البسيط، لكنها الوحيدة التي لم يستطع رمزي التخلي عنها، كان يلجأ إليها ويستعين بها دائمًا.

وذات يوم كان رمزي في لبنان لإنهاء بعض الأعمال هناك، وفجأة طرق أحدهم الباب وتفاجأتُ أنها (**ياسمين**). رحبت بها وأعددتُ لها فنجان القهوة.

صدقًا غلب عليَّ التوتر والتساؤلات حتى قطعته هي:

- أعرف أن رمزي في لبنان، في الحقيقة جئتُ إلى هنا لأقول لكِ أن ثمة من يحبكِ ويفكر كيف ينجيكِ من هذا التعثر والحياة التي لا تليق بكِ. مع الأسف أنتِ تعرفين جيدًا أن ولائي الوحيد للمادة، أنا صادقة معكِ، أمركِ لا يهمني من الأساس، لكنني أتيتُ إلى هنا بإرادتي بعد أن دفع لي هذا الرجل مقابلًا ماديًا كبيرًا في سبيل أن أكون وسيطًا بينكما. أيضًا يمكنكِ إخبار رمزي بهذه المقابلة لكنه لن يصدقكِ وربما يكون هو السبب في القبض عليكِ؛ آمل أن تكوني عاقلة ورزينة في التفكير قبل اتخاذ أي خطوة قد تكون ضد مصلحتكِ وحريتكِ.

شعرت أنه فخ، ضحكت ثم قلتُ لها:

- أخبري مُرسلكِ أنني أعيش حياةً رائعة كما تمنيتُ مع رمزي، وإن تكرر الأمر ربما أنتِ مَن سيدفع حريته وربما حياته مقابل هذه الخدمة. أسعدني لقائي بكِ.

خرجت ياسمين في حالة غضب وسخط، وبدأتُ أنا بتوخ الحذر من كل شيء حولي. حياةٌ مُضطربة بكل تفاصيلها وأشخاصها، لا يمكن التعايش مع تلك الأوضاع وهؤلاء البشر إلا بعد أن تكون نسخة منهم.

شعرتُ أن خطوة ظهوري قد حانت، وبعد أن عاد رمزي من لبنان وبعد صراع لا ينتهي بين الطفلة التي لم تفز بحبيبها الأول ثم الشابة التي تألمتْ وأفسدتها العلاقات الاجتماعية، حتى السيدة التي بدأتْ في مسارها العملي من أجل تحقيق ذاتها وكيانها الشخصي، إلى صاحبة مجموعة (**العدوي**) للإنتاج السينمائي، لصاحبتها (**ليلى العدوي**)».

بعد صمتٍ طويل لا يقطعه إلا صوت تنهدات ليلى:

«اسمي ليلى العدوي، سيدة أعمال معروفة، بعد الكثير من التجارب الفاشلة، قررتُ الاستقرار، والنساء اللاتي يتخذن الزواج خطوة لاستقرارهن النفسي نساء لم يفلحن في تحقيق أحلامهن.

لقد مررتُ بالكثير من الأشياء والمواقف التي كادت تقتلني، لكنني كنت أهرب في كل مرة قبل القرار الأخير بالانهيار. لقد أفسدني الحب في مرحلة شبابي وأفسدني الزواج، فبعد الزواج وجدتُ نفسي في تنظيم عصابيّ لتهريب المواد المخدرة، وبعدما حققتُ وحصدتُ الثروة الطائلة التي تحلم بها أي فتاة قررتُ أن أنفصل عن زوجي، لكنه لم يكن بهذا اللين الذي توقعته، وبعد استمرار طلبي بالانفصال أخيرًا رشّح لي رمزي طبيبًا نفسي يدعى (**مدكور التهامي**).

كانت عيادته فقيرة لكن سمعته طيبة، حاول مدكور فهم أسباب شعوري بالضيق، التصرفات العدوانية، والاكتئاب الذي أعاني منه، كانت إجاباتي على أسئلته باردة؛ لم أكن في حاجة إلى طبيب يستدرجني للحديث أكثر من حاجتي إلى شخصٍ يسمع ما أريد أن أقوله فقط، ينصت لكلماتي البسيطة، لا يتهمني بسوءٍ ولا يتجمل في أفعالي، لا يوافقني الرأي، لا يختلف معي؛ احتجتُ فقط إلى مَن يسمع ويهتم في صمتٍ تام.

اتفقتُ مع مدكور على أن تكون جلستنا النفسية بهذا النظام الذي أحتاج إليه، بدأ يسمع لي باهتمامٍ وفي نهاية الجلسة يكتب بعض الأدوية المُهدئة والمضادة للاكتئاب.

تحسنتُ تدريجيًا بعد متابعة مدكور، لكنني لم أشعر بالراحة الكاملة في حديثي معه نظرًا لأنه من ترشيحات رمزي، كنت أحاول فهم سر العلاقة التي تجمعه بزوجي، لكنه أقسم أنه لا يعرف رمزي من الأساس.

توطدتْ علاقتنا وزاد ارتباطي بمدكور، بدأتُ أحكي له عن الرجال الذين مروا في حياتي، عن التجارب القاسية التي مررتُ بها، عن الاضطرابات النفسية، وتدريجيًا بدأتُ أحكي له عن رمزي، كنت في حاجة لأبرئ نفسي وأعترف أمامها بكل شيء.

نصحني بالاستمرار معه مؤقتًا على وعد أن ينقذني من هذا الطريق في أسرع وقت.

مرتْ الأيام سريعًا وانتهى ما تبقى بداخلي من مشاعري لرمزي، لم أعد أحبه، لا أطيق سماع صوته، لا أتحمل رؤيته، لا أصدق كلماته ولا أشعر بالتعاطف معه حين أراه مضطربًا أو في حالة قلق. كنتُ أفكر دائمًا في الخروج الآمن من تلك العلاقة ومن ذاك العالم المشبوه. كنتُ كلما تعثرتُ بخبر انتحار فتاة أو شاب أو بأخبارٍ عن ارتفاع نسبة الإدمان أو انتشار الكريستال القاتل في مصر شعرتُ بالذنب لأنني شريكة في قتل المئات والآلاف من الذي يبحثون عن فرصة لقضاء حياة سعيدة، كانت هذه الأخبار تطاردني حتى في كوابيسي، لقد قتلتُ آلاف التعساء في مصر!

لكن وفي فلسفةٍ أخرى بدأتُ أقتنع بأن عليهم أن يكونوا ممتنين لهذا المخدر ولي، في النهاية لقد وفرتُ لهم لحظات سعادة قد لا

يعيشونها في حياتهم الواقعية، لقد خلقتُ من ألوانهم الرمادية ألوانًا أخرى أشد بهجة وسعادة.

بدأ مذكور بالاقتراب مني، في البداية حاولت أن لا أُسيء فهم الأمور وأتعامل معه في حدود وسياق الحوار، لكن ونظرًا لانشغال رمزي في العمل طوال الوقت، استغل الآخر هذا الخلل وبدأ بالتقرب مني أكثر، كان يتابعني ويتواصل معي كلما سمحت الفرصة، بدأ باقتحام تفاصيل حياتي الصغيرة، وبدأتُ أعتاد اهتمامه المستمر بي، كنت في حاجة أن يرى أحدهم أنني لستُ بهذا السوء، كنت في حاجة أن أشعر أنني لم أسلك هذا الطريق بإرادتي بل كنت مجبرة عليه.

تطورت علاقتي بمذكور، والغريب أن هذا الأمر لم يزعج رمزي مطلقًا، كان يثق بي ثقة عمياء، وكنت أشعر بالخزي من نفسي وهذا كان أشد قبحًا وسوءًا على روحي وقلبي. في الوقت نفسه لم تتحدث ياسمين معي مرة أخرى عن أمر الرجل الذي أرسلها إليّ.

بعد فترة وبعد اتفاقي مع مذكور طلبتُ الطلاق من رمزي، بعد العديد من المحاولات وافق على طلبي، عاهدني بالأمان وبإنهاء كل الأعمال المتعلقة بي شرط الحفاظ على شركة الإنتاج ومواصلة العمل، كان هذا الشرط غريبًا بالنسبة لي وحين عرضته على مذكور أبدى سعادته ولم يمانع مطلقًا، بل كان يعتبر هذا العرض مغري وطوق النجاة للهروب من المسائلة القانونية.

تم الطلاق في الخفاء تمامًا كما حدث في الزواج، لم يكن يحتاج مني ضمانات؛ كان يعرف أنني أبعد ما يكون عن الأذى أو الانتقام،

أكثر ما كنت أفتقده وأحمل همه هي الأدوية التي كان يسهل عليَّ الحصول عليها من رمزي، فلقد اشتدتْ حالة الاكتئاب بعد تلك الفترة.

ظل مذكور بجواري واعترف لي بمشاعره!

الحب؟ للمرة الثالثة!

بالتأكيد كان طلبه مختل وسخيف، رفضتُ حتى طرح المسألة والفكرة للنقاش من الأساس، واتفقنا على أن نكون أصدقاء بهذه البساطة.

قررتُ التركيز وإنقاذ ما تبقى من حياتي، كانت علاقتي بمذكور رائعة خصوصًا بعدما تطور وبدأ في الازدهار العملي، واتجه هو الآخر إلى الانتاج السينمائي وساعدني كثيرًا في شركتي وأصبحنا من أهم شركات الإنتاج السينمائي في مصر.

قضيت خمس سنوات أحقق كل الأشياء التي لم أحققها في حياتي، اختفتْ أخبار رمزي، ماتت شادية ولم أودعها، والكثير من الأشخاص الذين أحببتهم اختفوا تمامًا وانقطعت أخبارهم، الوحيد الذي بقي وظل معي كان مذكور التهامي. صدقًا تمنيتُ أن أكون فتاة جيدة في واقعٍ أفضل وحياةٍ أقل قسوة، تمنيتُ أن لا أكون تلك الفتاة أبدًا.

في أيامي الأخيرة قررتُ الاستقرار في تركيا بعدما اتفقت مع مذكور على أنني بحاجة للخروج من مصر وتوديع كل ذكرى هنا، أسعده هذا القرار ودعمني كثيرًا.

وبقرارٍ خاطئ وبكل سذاجة وغباء قررتُ الزواج من شاب مصري في بداية الثلاثينات يعمل مُخرجًا، كنت أكبر منه بخمسة عشر عامًا

على الأكثر، لم أفهم سر هذا الارتباط وسبب موافقتي عليه، لكن ما زاد دهشتي أكثر هو ترحيب مذكور بهذا باعتباره السبب في تعارفنا.

كانت تجربة قصيرة لم أخبر أحدًا عنها، وبعد عامين عدتُ إلى مصر من جديد.

زادتْ الاضطرابات في حياتي، بدأتْ لا أعرف كيف أُسيطر على تصرفاتي، وهنا لجأت إلى مذكور وقلت له:

- مذكور. أنا متعبة؛ كل الأشياء حولي باهتة وباردة وسخيفة، لا أعرف كيف أتجاوز ما تبقى من حياتي، لكنني أريد إنهاء كل شيء، تعبت من كوني فتاة تجيد التمثيل، أنا لست بخير، أنا دائمًا لستُ بخير ودائمًا أجيد الكذب والخداع. أنا أتألم وأعاني من الضجيج في رأسي ومن الأفكار، والألم في قلبي لا يتوقف. تعبت من كوني لا أملك حلولًا حقيقية، وتعبت من استمرار هذا الوضع، أتمنى لو كان بإمكاني اقتلاع قلبي من مكانه؛ إنه يؤلمني، أشعر بالحزن وهو يستوطن أركانه بمخالبه الحادة المسمومة. أنا تائهة وأشعر بالوحدة رغم كل الزحام الذي حولي، أشعر بالوحدة وكأنني أعيش في باطن الأرض!

اقترح عليَّ مذكور أن أكون في عيادته الخاصة تحت إشرافه بعدما تأكدتُ من الفحوصات والتحليلات أنني مُدمنة لمادة (**كريستال ميث**) الكريستال الأسود.

توقف التسجيل ثم أمر ناصر، رجال الأمن بنقل المرضى إلى الحديقة وتشديد المراقبة على كريم رمزي وخالد زيدان وسارة خطاب.

نظر إلى مدكور ثم قال:

- والآن التسجيل الأخير يا دكتور، أعتقد أن هنا تكمن الحقيقة.

جلس مدكور على مكتبه في محاولة بائسة لإثبات أنه لا يزال يتمالك أعصابه.

ارتفع صوت الضجيج في الخارج وبدأت حالة من البكاء والصراخ يتبعها السباب واللعنات، لم يكترث ناصر لكل هذا وأدار التسجيل الذي كُتب عليه: (**امرأة وأربعة رجال**).

«أشعر أن لحظة وفاتي تقترب، إنني أرى الموت حولي في كل مكان، يداعبني ويلامسني كلما أُتيحت له الفرصة، لا أستطيع دفعه ولا أستطيع معانقته حتى لحظة الخلاصة، أنا بائسة.

مرت أيامي في غاية السوء والتعاسة، وكثيرة هي المواقف التي دفعتني لأكون إنسانة سيئة وقبيحة، لكنني حاولت النجاة قدر المستطاع وفشلت، آسفة على كوني أنا.

أنا الآن في مستشفى (**زايد للأمراض النفسية وعلاج الإدمان**)، مريضة انفصام، ومدمنة لمادة الكريستال ميث. ظننتُ أن وجودي هنا هو بداية طريق التعافي، لكنني كنت مخطئة، بل كان ما هو أصعب من ذلك، لقد كان وجودي هنا وحده بداية معرفة الحقيقة الكاملة.

بدأ الأمر بـ (**خالد زيدان**)، الرجل الذي أحببته في بداية حياتي ولم يشأ القدر أن يجمعني به، وقررتُ بعدها أن أتبرأ من شخصيتي واسمي، وقتها لم أكن أملك أسبابًا مقنعة لاتخاذ هذا القرار الغريب، بل كنت أندفع أكثر ناحيته من أجل أن أكون (**جميلة**)، حتى انتهى كل

ما يجمعني بهذه الشخصية وهذا الرجل الذي أحبني بصدق. ثم كان (**كريم رمزي**) الرجل الذي ظننتُ أنه يحبني، لكنني اكتشفتُ أنه أراد أن يكون زواجه من فتاة تُسهل عليه عملياته القذرة المشبوهة، وربما لهذا الاضطراب الذي لم أُدركه إلا مؤخرًا طلبتُ أن يكون زواجي به في سريةٍ تامة، وقد كان. ظهر في حياتي (**مدكور التهامي**) الذي ظل بجانبي طوال تلك الفترة، والأخير كان الشاب الذي تزوجته في آخر أيامي.

تكمن الحقيقة في التفاصيل الأولى حيث لقائي الأول بـ (**جيسي**) الممرضة والمساعدة الخاصة بمدكور التهامي، سألته عنها فقال أنها مساعدته الخاصة منذ زمن بعيد، أقسمتُ أنني أعرفها جيدًا، إنها هي (**ياسمين**) الفتاة التي كانت تعمل وسيطًا بين رمزي والأطباء النفسيين في مصر!

لم أستطع مجاراة مدكور في الحوار بعد إصراره على النفي، وإثباته أن ذاكرتي أُصيبتْ بشيءٍ من الضمور ومن المحتمل تعرضي إلى الزهايمر بسبب جرعات الكريستال ميث المفرطة مما جعل الأشخاص يختلطون عليّ ولا أستطيع التفريق. لم أُصدقه وظللتُ أتابع ما يحدث في العيادة حتى عرفتُ بوجود كريم رمزي نزيل هنا.

وكانت الصدمة الثانية حين اكتشفتُ أن مدكور يستخدم الكريستال الأسود في السيطرة الكبيرة على المرضى خصوصًا أصحاب النفوذ والمصالح المهمة الحساسة في مصر، ومن هنا تأكدتُ أن مدكور هو الشريك الخفي لكريم رمزي، فبعدما اتفق معه على أن يكون طبيبي

الخاص دَسَّ الكريستال وسط الأدوية التي يكتبها لي في رحلتي العلاجية فقط من أجل مصالحهم الخاصة.

وفي أيام رمزي الأخيرة بدأتْ أعراض الزهايمر تظهر عليه خصوصًا بعدما نصب له مدكور الفخ الأعظم وكان سببًا في أن يتعاطى ويُدمن نفس المادة الملعونة والتي جعلت الأخير يسيطر على ممتلكاته، فلم يعد رمزي يملك إلا سترته في المستشفى الخاص بـمدكور.

لكن ثمة خطوط ما زالت غامضة مما دعاني إلى البحث بين المرضى عن علاقة تجمعهم بـمدكور التهامي، وقد كان حين اقتربتُ من (**سارة خطاب**) وأخبرتني بقصتها، وهنا كانت العلاقة حيث علمتُ أن والد سارة هو من اتفق مع مدكور على أن يتم إيداعها في مشفاه الخاص وكتابة تقارير تثبت أنها مدمنة وأنها مصابة بالوسواس القهري واختلال عقلي مما يجعل أمر خروجها مستحيل، مقابل بعض الامتيازات والنفوذ الإعلامية لـمدكور، والعلاقة الثانية كانت في زواجي من عمار زوج سارة، حيث لم يكن وجود هذا الشاب في تركيا صدفة، بل كانت خطة مدكور من أجل السيطرة أكثر على وجودي في حياته ومساعدة خطاب والد سارة.

خالد زيدان كان أكبر ضحاياه؛ وحده الذي أخبرته في لقاء لم أذكره في التسجيلات السابقة وبعد زواجي من رمزي بكل شيء يحدث معي، لكن تحركاته من أجل إنقاذي لم تنجح، حيث تم اعتقاله لأسباب مجهولة، وحسبما عرفت لقد استخدموا نفس المادة في المعتقل حتى أصبح خالد ضحية هو الآخر للكريستال ميث، وبعدها أصبح نزيلًا هنا حتى لا يعترف أو يحاول الحديث عما حدث معي ومعه.

أراد مدكور أن يسيطر على كل شيء، حتى أعجبته ابنة صديقه والتي كانت تصغره بعشرين عامًا وتدعى (**آسيا**)، تقدم للزواج منها لكن لم يوافق صديقه وكان لهذه الفتاة رجل مغرمة ه يدعى (**داوود الحسيني**) وهو ممثل معروف، ولإثبات نفوذه وللانتقام من الشاب المسكين قرر أن يساعده في عمله السينمائي لكن كان عليه أولًا أن يقدم كبش الفداء بالاتفاق مع يونس صديق داوود الوحيد، وقررا أن يجعلا من داوود مريضًا نفسيًا مصاب بالخيالات، وقد حدث ما أراداه.

عرفت تلك القصة بعد أن سمح مدكور لـ آسيا بزيارة داوود لكن في الفترة من بعد منتصف الليل حتى يأتي الصباح ليُثبت أكثر أن داوود مصاب بالخيالات. كل تلك الأشياء عرفتها بعد أن كتبتُ لـجيسي ما تبقى من أملاكي في تركيا وفي مصر».

توقفت ليلى ويبدو أنها لم توقف التسجيل حتى ظننا أن التسجيل قد انتهى، لكن بعد دقائق عاد صوت خطوات في الغرفة كأن هناك من يبحث عن شيء ما، ثم ظهر صوت جيسي وهي تتحدث على الهاتف:

- **«نعم، أنا في غرفتها الآن، لا أجد شيئًا واضحًا، سأقوم بمتابعتها في الحال، وداعًا».**

سادت حالة صمت طويل، ثم عاد التسجيل مرة أخرى بصوت ليلى وهي تتنهد وترتجف:

«الرابعة فجرًا، أنا الآن أعلى مبنى المشفى، لقد وشت بي جيسي وأخبرتْ مدكور بكل شيء، هذا ما سمعته الآن، ولقد تعمدتُ أن أترك التسجيل مُعلقًا لدقائق لأتأكد من ظنوني أن جيسي تراقبني، وبالفعل حدث ما توقعته.

أشعر بالخوف، أشعر بالخوف والموت حولي و...
أسمع صوتًا الآن...
طرقات تقترب، تصعد إلى... جيسي!
لا أظن... ربما مدكور!
لن يكون رمزي بالتأكيد!
لكن ولمَ لا؟!
الأصوات تقترب أكثر... أكثر...»

تعالَى صوت أنفاسها من الذعر، كانت تُردد:

«لا أعلم ما الذي قد يفعله بي القادم، ولا أملك حيلةً للهروب...
أنا.. أنا فقط حاولتُ...
حاولتُ أن أكون جميلة.
الظلام يعيق الرؤية، لا أستطيع تحديد مَن المُتقدم نحوي...
يقترب أسرع...»

ثم سمعنا صوت ارتطام قوي بالأرض، وانتهى التسجيل.

ساد صمتٌ طويلٌ بالغرفة، العرق يتصببُ من جسد مدكور بينما كانت صدمتي كبيرة فيما سمعته عن آسيا ويونس.

جمع ناصر الشرائط التسجيلية ثم واصل:

ـ ولتلك الأسباب قرر مدكور أن يكون ملكًا للعُبة بمساعدة ممرضته الخاصة جيسي التي ساعدته في الاستيلاء على أموال كريم رمزي، وبمهاراته الكلامية أوقع ليلى رهن اقتراحاته، ولأفكاره القذرة استطاع أن يُبرم اتفاقًا مع خطاب والد سارة، ثم وللسلطة والنفوذ الدنيئة التي يمتلكها كان هو

الوحيد الذي أشرف على التقارير الطبية التي تمنع خروج كل ضحاياه، ثم كان آخر الضحايا الممثل الشاب داوود الحسيني، فبعد الاستعانة بصديقه يونس أقنعه أنه مريض نفسي وأنه الوحيد الذي يملك أمر علاجه وعودة حبيبته التي رحلت عنه منذ زمن. ثم بدأت النهاية بقتل ليلى العدوي بعدما قررت أن تفضح الجميع، ولإثبات براءته استعان بجيسي لقتل الضحية الأولى. وبعد أن أشارت سارة لزواج عمار من فتاة مرموقة استخدم رجاله هناك في تركيا لقتل عمار خوفًا من التحقيق معه، وبدأ معه كل شيء فمِن حسن حظنا وسوء حظه لم يفكر مدكور في تلك الخطوة جيدًا، حيث أن المنزل الذي وجدوا فيه جثة عمار هو ملكٌ لمدكور من الأساس. لعبة رائعة يا دكتور، كان ينقصها اللمسة الأخيرة .

فجأة، هلع مدكور وهرب من الغرفة ولحق به رجال الأمن، كان يراوغ ويركض بين المرضى حتى سادت حالة من الفوضى في المكان.

احتشد رجال الأمن أمام البوابة واتخذ بعضهم وضع استعداد إطلاق النار، فحاول مرة أخرى العودة إلى المبنى لكن لم يفلح...

حيث اخترقتْ رصاصة صدره، كانت مُنطلقة من أعلى المبنى.

اتجهت الأنظار إلى الأعلى، وهناك كانت جيسي ترتدي فستانًا قصيرًا شبه عاري تقف وتضحك في حالة جنون.

أثناء ذلك كانت سارة تقف وتتابع المشهد من بعيد وهي ترقص رقصتها المفضلة، وخالد في ركنٍ آخر منشغلًا بالرسم لا يكترث لما يحدث حوله، بينما كان رجال الأمن ينقلون جثة كريم رمزي الذي لقي

مصرعه أثناء التحقيقات بجرعة مُخدر زائدة، والدماء تنزف من صدر مدكور التهامي.

وبعد ثوانٍ، كان السقوط الكبير والأخير لجيسي من الأعلى.

صرخ كل المرضى من هول ما يحدث، والبعض منهم حاول الهرب.

جثيتُ على ركبتي من هول التفاصيل، مشهد السقوط، الدماء، عدالة السماء، في النهاية لم يكن هناك أكثر من الصدمة تسيطر علينا جميعًا.

لم تكترث سارة ولم يتحرك زيدان من مكانه، وواصل ناصر عمله وأوامره بفرض السيطرة الأمنية على المستشفى.

جلستُ على الأرض في حالة انهيارٍ تام، كنت أبكي، أبكي لكا ما حدث في حياتي، للعالم الكبير الذي عرفته في تلك الفترة، لضحايا الحب والحلم، لتجارة كلمات الغرام واللهث وراء النفوذ والسلطة، للمبادئ المزيفة والخطط الدنيئة وللقبيحين في الأرض، لمَن باعوا الدين على طاولة المصالح الشخصية، ولمَن زيفوا الحقيقية للسيطرة على المُغيبين، للكذب، للنفاق، للغش والخداع.

بكيتُ لأنني لا أملك حق أو رفاهية مغادرة هذا العالم، للفقد الذي يجعلنا شخصيات أخرى، للحياة التي تتحول فجأة، لكل الأشياء التي حدثت بعد الفراق.

فجأة، همس أحدهم في أذني:

- **«لقد تأخرتُ عليكَ يا داوود، لكنني كنت واثقة من عودتنا»**.

الخاتمة

ربما حان الوقت لنعترف أمام أنفسنا أننا لسنا بهذا الجمال الذي نظهر عليه أمام الناس، إن الواقع شوَّه الكثير فينا، حولنا إلى أشخاصٍ سيئين مصابين بلعنة التفاصيل والإدراك والوعي.

ليس كل مريض نفسي يعني أنه لا يؤذي غيره، ثَمَّة مرضى نفسيين أشد خطورة وضررًا من أولئك الذين لم يسقطوا في فخ الاكتئاب والانتكاسات النفسية.

حاولتُ في هذه الرواية أن أصف الحقيقة كما رأيتها، كما سمعتُ عنها وعاشرتها، لكن وكالعادة كان الواقع أقسى وأصعب من أن تصفه الكلمات وتمتلئ صفحات الكتب بحقائقه.

لكل منا عالمه الخاص وأسراره الخاصة، وتفاصيله المؤذية، وذكرياته الأليمة، والتزامات تجبرنا على مواصلة الحياة بقدر أقل من القسوة والألم، الكل يصارع في معركته الخاصة مع الحياة، فمِن فضلكم اعلموا أن العالم يؤذي الجميع؛ كونوا لطفاء.

وإلى اللقاء في موعدٍ آخر، ربما أقل قسوة...

الإهداء

إلى العَرّافة التي أقسمت أنها لم تَصْدُق يومًا في قراءة الكف أو الأحجار أو الفنجان، لكن ثمّة أشياء تظهر على ملامحنا مهما حاولنا إخفاءها، كالهزيمة في الحب، أصحاب الأحلام المحطمة، وأولئك الذين خُذلوا كثيرًا من الأمل والحياة.

أُهدي إليكِ هذه الرواية، وأتمنى أن تنتهي مهنتكِ في أسرع وقت. أقصد أن ينتهي الحزن وتتحقق كل الأحلام وتعود ثقتنا مرة أخرى في الحياة.

محمد طارق